

دخائر العرب

١٨

مذكرات الأمير عبد الله

آخر ملوك بني زيري، بفراطة

(٤٦٩ - ٤٨٣)

المسمّاه بكتاب "التبّيان"

نشر وتحقيق

من النسخة الوحيدة المحفوظة

بجامع القرويين بفاس

إ. ليثي بروفسال

أستاذ الحضارة العربية بالمريون

ويعمل بمعهد الدراسات العربية والإسلامية بجامعة باريس

والأستاذ الزائر بالجامعات المصرية

دار المعارف بمصر

مقدمة

إنَّ المصنّف الذى سيوجه الجزء الأكبر من نصّه هنا — وهو كلُّ ما عُثر عليه لحدِّ الآن — سبق أن عُرف لدى كلِّ من درس تاريخ الأندلس بعض الشيء ، وعلى الأخصّ العهد المسمّى بعهد ملوك الطوائف من هذا التاريخ ، والموافق إجمالاً للقرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . ولقد نشرتُ منه ، فى فترتين ، أولاً ثلاث قطع ، ومن ثمّ قطعتين واسعتي كلاً ما اكتشف شيء منها ، وذلك فى مجلّة « الأندلس » الصادرة فى مدريد فى عام ١٩٣٥ — ٣٩ وفى عام ١٩٤١ . وستظهر ترجمةٌ باللغة الإسبانية ، بعد فترة وجيزة ، بتوقيعى وتوقيع زميلى وصديق الأستاذ إ . غرسية غومس ، للمجموع الذى أُلّف بين أجزائه اليوم ، ما عدا الصفحة الأولى وفراغاً طويلاً يؤسف له فى وسط الكتاب . وستصحّب هذه الترجمة بمقدّمة مفصّلة وبمجموعة من الملاحظات التاريخية والجغرافية أُحيلُ إليها منذ الآن القارئ الذى يرغب أن يطلع بتفصيل على المؤلّف الذى أنشره اليوم وعلى قيمته الأدبية والتاريخية .

سأقتصر هنا إذاً على بعض الإشارات الأساسيّة . فليس من المألوف أن نجد فى تاريخ العالم العربى ملوكاً أو شخصيّات رفيعة اعتنوا بتسطير حياتهم ، فكتبوا مذكراتهم لفائدة معاصريهم أو الأجيال القادمة . إنّ هذه الملاحظة لتصدق على الغرب الإسلامى أكثر منها على الشرق ؛ فإذا

وُجد في الغرب الإسلامي بعض من يترجم لنفسه من الشخصيات الهامة كمثل ابن خلدون وابن الخطيب في القرن الثامن (الرابع عشر الميلادي) ، فلا يعرف من هذا الصنف التاريخي إلا مصنف واحد يذكر ، وهو كتاب التبيذقي صاحب المهدي ابن تومرت مؤسس الموحّدية ، وقد وقّعت منذ أكثر من ربع قرن على مخطوط له بمكتبة الأسكوريال في إسبانيا ظل مجهولاً إلى ذلك الحين . وإنّه لتوفيق آخر ليس أقلّ سعادة من الأول ، أن أحصل ، بعد سنين طويلة ، وجزءاً بعد جزء ، على مصنف لترجمة شخصية لا يقلّ أهميّة عن الأول ، وهو مصنف الأمير عبد الله ، الذي كانت كرايسه مبعثرة بين مجموعة كثيفة من المخطوطات المهمة منذ ستة قرون على الأقلّ في جناح تابع لمسجد القرويين بفاس .

وقد كنّا نعرف ، بفضل إشارة واردة في كتاب « الحلال الموشية » المجهول المؤلف ، أنّ الأمير عبد الله كان قد دوّن تأريخاً عن الدولة التي أمّستها أسرته في إسبانيا والتي كان هو آخر ممثليها . وعندما أصدرت في ١٩٣٤ أول طبعة للقسم المتعلق بالأندلس من كتاب « أعمال الأعلام » لابن الخطيب ، جلبت انتباهي الفقرة الآتية (ص ٢٩٩) : « وقّعت على ديوان بخطّ عبد الله بن بلقين ألّه بعد خلمه بمدينة آغمات وقرّر فيه أحواله والحادثة عليه ممّا يستظرف من مثله ، أنحفني به خطيب المسجد بآغمات رحمه الله . » وبفضل إشارة أخرى وردت في نفس الكتاب ، نعرف أنّ ابن الخطيب قد زار آغمات وزار بها قبر المعتمد بن عباد في سنة ٧٩١ (١٣٩٠) ؛ فيمكننا أن نتساءل بأن المخطوط الذي استعملناه ، إذا لم يكن هو نفس هذه النسخة ، فهو على الأقلّ نسخة ثانية كُتبت

عن الأصل وقُبلت معه ، كما تثبت ذلك الإشارة المترددة : « صح » ،
أصله » .

وأخيراً ، اكتشفت لي صدفة من صدف المطالعة العنوان التام
لمذكّرات عبد الله : ففي قهرة من كتاب « المرقبة العليا » (ص ٩٧) ،
وهو مصنف في مراتب القضاء بالأندلس لمؤلفه المشهور ابن الحسن النباهي
(وقد نشرته في القاهرة سنة ١٩٤٨) ، يتبين أن كتاب عبد الله
كان موسوماً بـ « التبيين عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري
في غرناطة » .

إنّ هذا العنوان يعلن أحسن إعلان عما يُقصد منه : فالملوك الذين
عزل وُفّي قصد إلى سرد تاريخ دولته وظروف عزله .

• • •

من كان الأمير عبد الله هذا ، وأية قيمة يجب إعطاؤها إلى كتابه ؟
فلأكتفِ هنا بتلخيص ما نشرته عنه أخيراً في الطبعة الجديدة لدائرة
المعارف الإسلامية (الطبعة الفرنسية ، ج ١ ، ص ٤٥) :

كان عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس بن حَبُوس بن زيري الملك
الثالث والأخير لمملكة غرناطة التي أسسها فرعٌ منحدرٌ من عائلة بني
زيري البربرية الصنهاجية ، وذلك بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة .
وُلِدَ في سنة ٤٤٧ (١٠٥٦) ؛ وعيّن عند وفاة أبيه بُلُقَيْن سيف الدولة
في عام ٤٥٦ (١٠٦٤) كوليّ عهد لجدّه الأمير باديس بن حَبُوس ؛
ثمّ اعتلى بعده عرش غرناطة في سنة ٤٦٩ (١٠٧٧) ، بينما أصبح أخوه

تيميم المميز أميراً مستقلاً في مالقة . ولم تكن دولة الأمير عبد الله إلا سلسلة طويلة من الاضطرابات في داخل مملكته ، والمشادات المسلحة مع جيرانه من الأمراء المسلمين ، والمواطئات مع ملك قشتالة ألفونس السادس . وسام عبد الله في وقعة الزلاقة ومحاصرة حصن لبيط عند تدخل المرابطين في إسبانيا . لكن اتفاقاته مع الملك النصراني أدت به إلى ضياع عرشه ؛ فقد جاء الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين لمحاصرته في غرناطة عام ٤٨٣ (١٠٩٠) ؛ فاضطر إلى أن يسلم نفسه إليه ؛ فعزل عن ملكه وأرسل إلى المنفى بمدينة آغمات ، في جنوب المغرب الأقصى ، حيث انتهت حياته .

أما كتابة عبد الله لذكراته ، فقد كانت أثناء إقامته الإجبارية في آغمات . وإن هذه الترجمة الشخصية تكون أعظم مجموعة وثائق نملكها عن تأريخ ملوك الطوائف وأقلها تحويراً ، كما نستطيع أن ندرك ذلك بسهولة . وعلى الرغم من الاستطرادات الطويلة التي يحاول فيها المؤلف أن يبرز موقفه السياسي أمام الأخطار التي كانت تهدم مملكته ، فإن كتاب « البيان » يقدم لنا سرداً مفصلاً جداً لجميع الجوادث التي أدت إلى استيلاء ألفونس السادس على مدينة طليطلة عام ٤٧٨ (١٠٨٥) وإلى تدخل المرابطين في شبه جزيرة إيريا في السنة التالية .

كما أن مذكرات عبد الله هي وثيقة سيكولوجية من الطراز الأول ، يساعد بصورة أفضل من كتب التاريخ التي ألقت من بعد ، على الحكم على حالة الانحلال الاجتماعي والسياسي في الأندلس قبل معركة الزلاقة وبعدها ، وعلى التقدم الذي حققه في هذا الوقت أنصار استرجاع

إسبانيا المسلمة إلى النصرانية . ومن جهة أخرى ، إنَّ قصَّة الحوادث السابقة على حكم الأمير عبد الله نفسه هو أيضاً أمرٌ جديدٌ وهامٌ جداً . ويجب إذاً أن نعتبر مذكرات ملك غرناطة كدليل مرشد لتأريخ الطوائف الغامض ، وذلك ابتداءً من العصر الذي تنتهى فيه مؤلَّفات ابن حَيَّان . وإنَّ هذه الفترة التي سأصِفُها بحول الله في الجزء الرابع من كتابي « تأريخ إسبانيا الإسلامية » ستوضَّح بصورة أوسع وتحت ضوء جديد بفضل هذا الحصول السعيد على وثيقة غنيَّة لا يرتاب فيها .

* * *

إنَّ مخطوط مذكرات عبد الله يحتوى في مجموعه على ٨٠ ورقة من القِرطاس السحيك ومن القطع الكبير (٢٣ X ٣١ سنتمتر) . وهو مسجَّل في مكتبة جامع القرويين بفاس تحت رقم ١٨٨٦ . خطُّه من الخطِّ المبسوط الأندلسي . والنسخة على العموم في حالة جيِّدة عدا ورقتين ممزقتين جداً .

وقد أرفقتنا مع النصِّ ملحقين يحتويان على فقرات غير منشورة من كتاب « البيان المغرب » لابن عِدَارِي المراكشي ، ومن كتاب « الإحاطة في تأريخ غرناطة » لابن الخطيب ، يتعلَّق هذا الذيل بالأمير عبد الله نفسه وبشخصيَّتين هامَّتين في دولته . وسيجد القارئ خريطة تساعد على الوقوف على أهمِّ المناطق الجنوبية في إسبانيا مما جرى ذكرها في النصِّ .

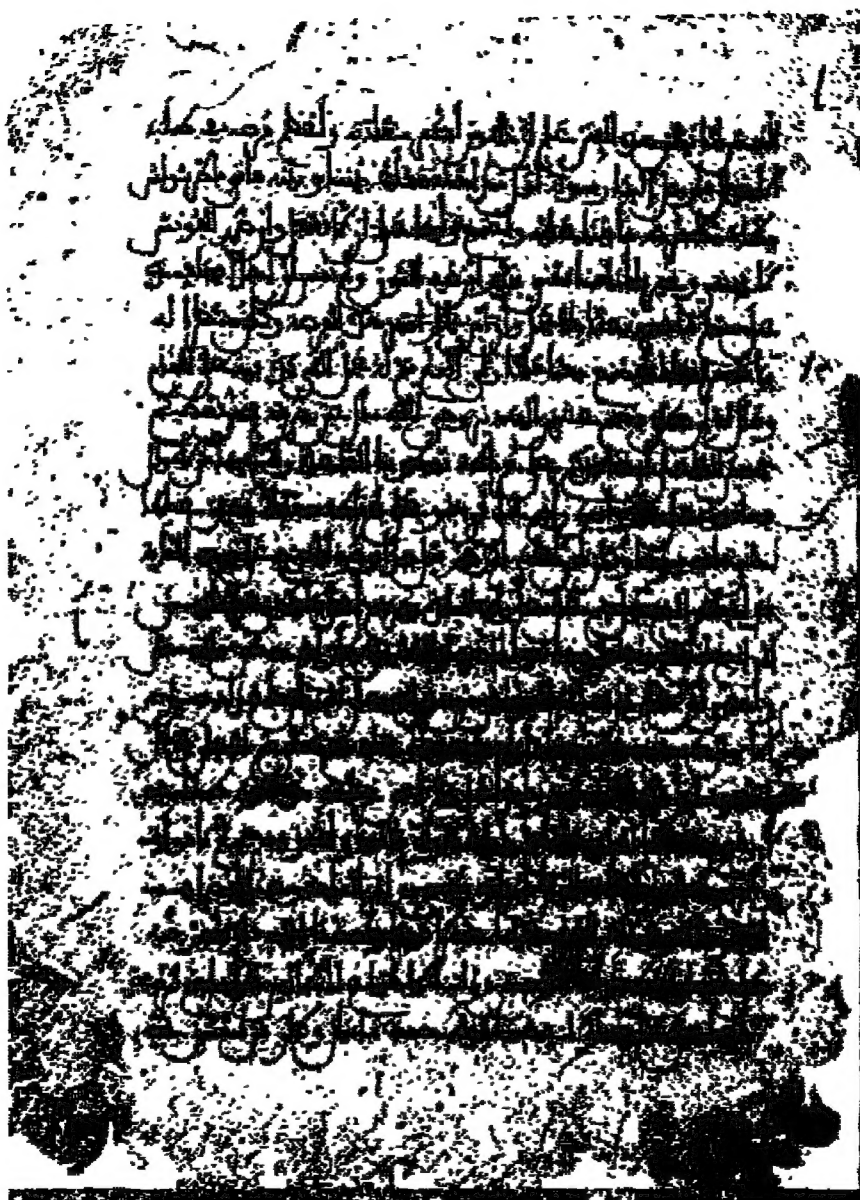
أودُّ في الختام أن أثبته قرأني الذين سيستفربون لبعض التعابير أو لبعض الصياغات في تأليف الأمير عبد الله إلى أن لفته ، مع أنها صحيحة ، قد تأثَّرت إلى حدٍّ ما باللغة العامَّة الأندلسيَّة ، وأتة يلزم الرجوع بصورة

خاصة إلى « ملحق القواميس العربية » لـ « لوزي لفهم بعض الألفاظ التي تبدو خاطئة ».

وليس من الضروري أن أنبئ القراء من جهة أخرى إلى أن المناهين التي أضيفت داخل النصّ للتفريق بين محتويات الفصول لم تكن مر في النصّ الأصلي .

ا . ل . ب

پاریس ۲۶ یونیہ ۱۹۵۵



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفصل الأول

نظرات مائة للمؤلف

١ — القواعد التي يتعين للمؤلف اتباعها

.....^(١) واستنباط الغريب الذي لا يعقله كثير من الناس ؛ فإن ذلك ١ (١)

يولد خشونة اللفظ ، الذي تمنجه الأسماع .

- والكلام ، إذا خرج من القلب ، وقع في القلب . ولا خير في رامه
ه رَعِشَ ، ولا متكلم هائب ؛ فإن الهيبة فرع [من] المخافة ، والمخافة فرع
[من] الحذر ؛ ومن حذر ، فقد عقله ، ومن خاف ، تكدر عيشه ، ولا
تصح مع هذا قريحة ينطق عنها اللسان ، ويذكر بها الجنان ؛ فالنفس ،
إذا منعت ما تشتهي ، ترى مختلطة ، وتصير كأنها بطوارق الخيل مختبطة .
ولا يجب على الناطق والكاتب أن يتبع هواه في أمره كله : فكل
١٠ مفتون ملقن حجة ، ولا عليه أن يرفض ذلك ؛ فيكون بانياً على غير أصل
وعاملاً لغير نهاية . وعسى بذلك يسعى فيما يصلح غيره ويُفسد حال نفسه ،
وهو لا يشعر ، بل يصرف نفسه على فرقين : يسعى في بلوغ أمله وإدراك

(١) هنا ينتهي نص المخطوط ، إذ تلفت منه الورقة الأولى .

مُراده دون أن يكون ذلك مُخِلًّا بذكره ولا غرضاً لمدوّه . وكلُّ بيان ما لم يكن صواباً ، فهُذَرٌ .

وليس يُحْمَدُ لواضع كتابٍ أو ناظمٍ خَبَرٍ أكثر من جودة التأليف فقط ، لأنّه إنّما وضع ما قد سبقه إليه غيره ؛ وكلُّ أحدٍ ينفق ممّا عنده . ٥ وإنَّ الأوّل لم يدع للآخر شيئاً . فلو كان نطقُ الناس إحالةً بَعْضهم على بَعْض ، ما سُمِعَ أحدٌ يأمر بمعروفٍ ولا ينهى عن مُنكَرٍ ، ولا يتبرّع في [شئ] . ولكنَّ الأولى أن يؤخذ بما نصَّ الله عليه في قوله ^(١) : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ .

ولست الفائدة فيما قصّدتنا إليه ذِكْرُ خَبَرٍ يوصف ويأتى عليه نادرة ١٠ مستطرفة ، أو حكاية مستغربة ، أو معنى يؤدّى إلى تأدّب وانتفاع . فلعلَّك — أيّها المتأمل كتابتنا — أن يكون عندك أو طرأ إليك خَبَرٌ من أحوال الدولة مشهور لا تَجِدُه منصوصاً هنا ، فتُحْجِزُ واضِعَه : فليس إلّا كما قدّمناه . اللهمَّ إلّا أن يكون حديثاً يؤدّى إلى القيام بِحُجَّةٍ صاحبه* والاعتذار عنه ١٥ من أمرٍ قد التبس على الجاهل أو أشكل على السامع لم يهجم على حقيقة ، فنَطَقَ هَذَرًا ، وساعدَ عليه أقواماً لم يخسروا في عرض غيرهم شيئاً ، وطمعوا على غائبٍ أو ميّتٍ لم يُحِرَّ الجواب عن نفسه ، أو دليلاً لم ينتصر لعرْضه .

أو أبان المؤلف عن نفسه حِدَقًا ومعرفةً تُدَكِّرُ عنه وتُنشِرُ بعده : فإنَّ ذلك من آكد ما يجب له السعْيُ فيه وإعمالُ ذهنه وحواسه في تلخيصه ، ٢٠ إن أعانه على ذلك اغتباطٌ بِجَمِيلِ الثناء ، وأنفةٌ لسوء المقال ، ونشاطٌ على

ترفع الذكر ، مع فتور الهمة وصبوة التريجة . وإلا ، فالأمر ناقصٌ منه ،
واللسانُ عيٌّ عنه .

ولا ضئيل إلى اجتماع أمرين مختلفين في الإنسان معاً ، ولا في غيره من
جميع المخلوقات . فإنه ، متى ارتفع أمرٌ ، نزل ضِدُّهُ : كالحياة ، إذا ارتفعت ،
وجب الموت ؛ وإذا ارتفعت الصحة ، وجب السقم ؛ وإذا ارتفع الكرب ،
وجب الفرج .

هكذا نسق كلَّ أمرٍ : كالعامل للآخرة محضاً ، لا بُدَّ له من نقصان
دنياه .

ألا ترى أنَّ مؤلِّفَ الكتاب ، إن كان غرضه نظم الكلام وسجع
اللفظ ، كان ذلك ضاراً بالمعنى ؛ وإن أتى به ، فإنما يسوقه بعد تحليق عليه ،
ورُبَّما وضعه من غير شكله . وإذا تمَّ المعنى ، نقص بعضُ اللفظ ؛ كما قيل :
« إذا تمَّ العقلُ ، نقص الكلام » .

وأرى أنَّ مساقَ الحديث في التأليف بَعْضُهُ لِبَعْضٍ أحسنُ خطأً وأفضلُ
نظماً من تقطيعه . ولهذا نريدُ إيرادَه كالحديث « [فالحديث] ذو
شُجون » ، ونضرب المثل لِبَعْضِهِ يَبْعُضُ : فيتنقَّى إرادُهُ دفعةً واحدةً ،
ونصُّه على أكمل ما يمكن .

٢ - حقيقة الإسلام والردُّ على من لا يؤمن به

ومن كان لا يعرف دنياه التي نشأ فيها ، وأدركها بصره وجميع حواسِّه ،
فهو لآخرته أَجْهَلُ ، [آخرته] التي لا تُعرف إلا بالتفكير والاعتبار ، بعد

ما حضّ عليه الكتاب وأتى به الرسول — عليه السلام — . وقال تعالى ^(١) :
 ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ . وما * يصلح لنفسه لا يصلح لغيره . وأصل ^(٢) ()
 العلم كله معرفة الإنسان بدينه ، و [يقينه] بمعآده ، وأنه لم يخلق عبثاً . فإذا
 صحّت معرفته بذلك ، كان أخرى أن ينفع به لدينه التي يشاهدّها معاينةً .
 والرجال ثلاثة : رجلٌ عَمِلَ قَعِيل : فذاك الذي يدعى في الملكوت ؛
 ورجلٌ عَمِلَ ولم يَعْمَل : فذاك الذي يُضَاعَف له العذاب ؛ ورجلٌ لم يَعْمَل
 ولا عَمِلَ : فذاك ، إن مات ، يموت ميتةً جاهليّةً ، ولا تصحّ له معرفة
 دينه إلا بأن لا يقدح فيه قول كافرٍ ولا مُعْطَلٍ . فإذا حَسُن تمييزُهُ عن
 الصنف المُلْحَد ، عرف فَضْلَ ما هو عليه ، فَاتَّبَعَ على يقينٍ وجودةَ نظَرٍ ،
 لا باستهزاء ولا تقليدٍ ، فيعجز ويشك . ١٠

وأما من كان من الأصناف المُلْحَدَة ، غير أهل الكِتَابَيْنِ ^(٣) من المُشْرِكِينَ
 ومن سِوَاهُمْ ، فالضلالُ منهم يَبْنُ ، لا يحتاج معه إلى قياس ولا تفتيش . وأما
 ما يزعم أهل الكتاب من أنّهم على الحقّ ، ولهم الدين القويم ^(٤) ، وأنّ قولهم
 أحلّ [بنيره] ، فالردّ عليهم في ذلك أن يُقال لهم : « إن كنتم تزعمون
 أنه ليس بعد نبيّكم نبيٌّ ولا مُنَّةٌ ، فلا يكون هذا القياس إلّا بأن
 تكفروا بمن كان قبل نبيّكم من الأنبياء ! ألم تكن قبل موسى شرائعُ
 وكُتُبٌ مُنْزَلَةٌ وأنبياءُ عدّةٌ ؟ فلو كان على مذهبكم ، لا ينسخ دينُ دينا ،
 لم يجب لكم أنتم شيء ! »

وإنّ الله تعالى لا يترك الخلق سُدًى مُهْمَلِينَ ، وهو قوله تعالى ^(٥) :

(١) سورة الرعد : ١٨ . (٢) كذا في الأصل . (٣) أصل : « القديم » .

(٤) سورة فاطر : ٢٢ .

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ ، وقد كانت الضلالة بيّنة في الفترات من عبادة الأوثان وتعبدهم بعضهم لبعض ، ما لم يكن في حكمة الله ومشيتته أن يترك المرء دينه ، ولا يجهل من يعبد سواه حتى بعث محمداً — صلى الله عليه وسلم — بالحق بشيراً ونذيراً ؛ فصنع بالقرآن ، وجاهد في الرحمن ، وسنّ السنن ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر . وكان في ذلك الزمان قد ضلّ أهل الكتاب ، واختلفوا ، وردّ بعضهم [على بعض بما لا] يمكن أن تصبح لفرقة منهم شريعة مع الأخرى ؛ وكانوا كه * (١) ٢ (ب) الله تعالى ؛ فحتم الله الرسالة بنبيّنا — عليه السلام — ليبين له ما فرضه عليهم ، ويظهره على الدين كلّّه ! إن يقولوا : « ما جاءنا من بشير ولا نذير ! » وقال الله تعالى (٢) : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ ، فالْحُجَّةُ عليهم ظاهرة على ما بيناه فيما يعطى العقل والقياس . وأمّا تبيين نبوته — عليه السلام — في الآيات التي جرت على يده ، فأكثر من أن توصف . وإذا قتلت أحدهم ببعض هذه الحجج ؛ فمن ينتحل منهم قبحاً في علمه وسداداً ، يرجع إلى أن يقول : « إنّما كان رسولاً إلى العرب ! » فتأمل تناقضه ، وكيف أثبت له الرسالة ؛ ومتى وجب إثبات الرسالة ، فقد أوجب على نفسه التصديق في كلّ مقالة وما أتى به . ثمّ الله يقول (٣) : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ . وقال — عليه السلام — : « بُعِثْتُ إِلَى الْأَسْوَدِ وَالْأَبْيَضِ وَالْحَرِّ وَالْقَبْدِ » ؛ فهم لا يصحّ لهم الإنكار جملةً ولا الإيمان بأمرٍ دون أمرٍ .

(١) خرم نحو سطر في الأصل .

(٢) سورة المائدة : ٤٨ .

(٣) سورة سبأ : ٢٨ .

٣ - قصور القياس دون عون من الوحي

وقد كانت معرفة الباري تعالى بالعقل اضطراراً لقوله^(١) : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ . ولو ترك الناس في ذلك على قياسهم وما تدركه عقولهم ، لكان خوضهم في هذا المعنى قليلاً ، مستضعفين ، لا يطيقون نصر ما عهد إليهم مما يريدون من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولغلب جهالهم وعامتهم الظلم ، ولم يلتفت أحد إلى قوله وما يقيس عليه . فكانت النعمة مما أراد الله من صلاح العالم أن بعث فيهم الرسل ، ليكون ما أتوا به دواء لما في الصدور وهُدًى ورحمة ؛ فن عرف الله قبل العقل ، أتم عليه نعمته ؛ فقد عرفه نفسه باليقين ، وبشره بالثواب ، وأنذره العقاب ، ليرتفع الشك ويوقن بالمعاد ولينقد إليه عامة الناس طوعاً أو كرهاً .

١٠ ألا ترى أن لأشياء من أمور الدنيا يصح بالظن دون اليقين ؟ فكيف الآخرة التي لا يوقن^(٢) * الذين أبانوا عنها ؛ والظن كذب الحديث والشرع ، ومن تقلده بطل [رأيه] . وليس حكم الباري تعالى مما يجري على قياس : كيف ؟ وهو خالق القياس ، وهو واهب العقل الذي به أدركنا جميع الأشياء . ألا ترى أن النفس لم يقف أحد منها على حقيقة ؟ ما هي إلا اختلاف بين العلماء الشرعيين وأهل الطبيعة والذهريّة . والحق إنما يكون في طرف واحد ؛ فهم يخطئون خبطاً عشواء وإذا قست على الحق ، فإنما تجده عند أهل السنة لما بأيديهم من القرآن

(١) سورة الزمر : ٨٧ .

(٢) خرم نحو نصف سطر في الأصل .

وحديث ارسول — عليه السلام — ، فهم يتكلمون على أصل ، وغيرهم على قياس : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾^(١) .

وترى من المُلحدين كثيراً [مَنْ] لا يؤمن بالغيب ويقول : « إِنَّمَا أَعْلَمُ^(٢) ما تُدْرِكُه حواسي من حارٍّ وبارِدٍ ورطبٍ ويابسٍ ، وما أدركته بعقلي بما كان ؛ ولا أعلمُ ما يكون ، وإِنَّمَا أَنَا أَنُ الْآنُ » . فالرَّدُّ عليه أن يقال له : « أَتُدْرِي بِمَ عَرَفْتَ هَذَا كُلَّهُ ؟ » سيقول : « بالنفس . وعلمتُ النفس بالعقل الذي هو أرفع الدرجات » . فتقول له : « إِذَا عَرَفْتَ بِالْعَقْلِ ما أَنْتَ فِيهِ ، لم يكن لك شيءٌ متقدِّمٌ تعرف به العقل ، ولا استطعتُ لنفسك ، ولا علمتها قبل ؛ فتركب فيها عقلاً وتديراً . وواهبُ العقل الذي ١٠ يخلقك ودبرك كيف شاء ، قادرٌ على أن يميزك ولا يجعلك هماً ، ولم يخلقك عبثاً ! ولو أنك تعلم — أيها الشقي — أن العقل ، إِذَا جِئَتْ به آيات ربك ، كَلَّ عليك وحملٌ يوم القيامة ؛ وهو قوله تعالى^(٣) : ﴿ لَمَّا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَمْجِدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ . وقال^(٤) : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ .

١٥ وقد أنت الرسل بالآيات التي هي خارجة عن حكم الطبيعة ليكون ذلك في العالم أشدَّ استغراباً ومعجزاً يؤمن به أكثرُ البشر . وقد أمر الله تعالى بالإيمان بما قد غاب عن العقل والقياس ؛ ولا يمجز الله في قدرته على ما يشاء * جاحِدٌ كافرٌ .

٣ (ب)

كقول أهل الطبيعة : إِنَّمَا هِيَ تُدَبِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ، وإِنَّمَا أَعْلَمُ [مَنْ] كُلُّ

(٢) أصل : « نعلم » .

(٤) سورة يس : ٧٨ .

(١) سورة الأنعام : ١١٦ .

(٣) سورة الأحقاف : ٢٦ .

عليم وأحكم [من] كلِّ حكيم ؛ فتجع من فعلها في الأبدان ما لا تُدرِكه
 الأطباءُ بجتهادها . وقال غيرُهم : « الطبيعة اسمٌ واقعٌ على غير شيء لا يُدرى
 ما هو . » فالحُجَّة عليهم : أهى طبيعةٌ واحدةٌ ، أم طبائعٌ كثيرةٌ ؟ بل ،
 يقولون : « لكلِّ شيءٍ طبيعةٌ ، فأرى أضداداً لا تصحُّ لأحدها إلهيةٌ ،
 وغيَرُها مُناقِضٌ لها . وهى كانت حُجَّة إبراهيم على قومه وردَّه على من قال
 إنَّ الشمس هى حياة العالم دون غيرها ؛ فقال — عليه السلام — : « أرى
 الظِّلَّ يفعل ضدَّ ما تفعله الشمس ؛ والخالقُ لا يُضادُّ ! » فأثبت الوجدانيةَ
 بالحُجَّة القاطعة الواضحة .

وقد ذُكر عن سُقراط ، وكان في زمن جاهليَّة ، أنه قال ، بما أوتى من
 الحكمة ، مخاطباً الباريَّ عزَّ وجلَّ : « يا أزل الأزل ! ويا أوَّل الأوائل !
 ويا قديماً ! لم يزل مِنِّي نارُك لِعَلِمى أن هذه الخلوقات من آتارك ؟ »
 ولم تكن معه فئةٌ يتبعونه على قوله ، ولا يمتثلون ما قال ، حتى أمروا
 بقتله .

ولمنا يرجع ما قدَّمنا ذِكرَه أنَّ شرعاً لا يتمُّ بقياس العلماء وخوَصَّ الناس
 دون الرسالة ، على أنه لا يشكُّ ذو عقل أن الخلوقات قد جعلها الله عِللاً بَعْضُها
 لِبَعْض ، ولم يخلقها عبثاً ؛ ولكلِّ عِلَّةٍ عِلَّةٌ إلى أن ينتهى ذلك إلى الباريَّ عزَّ
 وجلَّ ؛ فهو الذى لا فوقه شيء . وهو قولُ إفلأطون لموسى — عليه السلام —
 إذ قال له : « يا أخى ؟ رَسولٌ مِنُّ أنتَ ؟ » أراد استخبارَه ؛ فقال له موسى :
 « أنا رسولُ العِلَّة » . فقال له إفلأطون : « ما العِلَّة ؟ » قال : « لا أدري !
 ولو كنتُ أدري ، لكنتُ أنا العِلَّة ! إنَّما أنا متَّبِع ! » فقال له إفلأطون :
 « اذهب وبلِّغ ما شئت ! فالآن صحَّ عندى أنكَ رسولٌ حقَّ ! »

(١) سورة البقرة : ٢٢٥ .

٤ - ضرورة التعليم والتجربة

- وأعلم أن العقل محتاج إلى التعلم ، ولا يستحكم تعلم إلا بتجربة ، ولا تتحكم تجربة إلا ما كان فيها بعض النكد والإشفاق ؛ فالإنسان على ما ضرى عليه وعلى أن السعيد من اعتظ بغيره ؛ لكن من شأن الإنسان التسويف و « لعل » و « عسى » ؛ فإذا أحتيج في ذاته ، أعقبه ذلك بقطة وحسنة . وكذلك من أخرج إلى نفسه كأنما لا يتكل على غيره . فينبغي للعاقل أن يعمل نفسه في رياضة ذلك ، والتمرن فيه ، إن لم يحوجه الدهر ؛ وإلا : فليتب ذهنه ، ويشغل باله بالفكرة فيه ، خوفاً أن يضطر إليه ، وإن اللعة غير دائمة . فإن احتاج إلى نفسه ، وجدها ؛ وإن استغنى عنها ، عرف فضل ما هو فيه ، وكانت لذته به أشد تمكناً ؛ فإنه لا يعرف قدر الخير من لا يعرف الشر . وإعمال الفكرة في هذه المعاني كالتجرب بها ؛ فإن الاهتمام بما لم يكن بلائاً في النفس كائن ، وذلك البلاء مؤدب ، واعظ ، نافع ، مضحل ، خير من بلاء موجب حال .
- وقيل : ليس العلم بكثرة الرواية ؛ إنما هو نور يصفه الله في القلوب . ولا عذر للإنسان في أن يحجل علماً يليق به ، لقول الله تعالى ^(١) : ﴿ فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا ينهيه . وليس كل ما حض عليه ونهى عنه على العموم ، بل لذلك كله حكم يحسنه العاقل ؛ والجاهل لا يحسنه ، وإن جهد جهده .

(١) سورة النحل : ٦٣ .

٥ - التكوين السياسى للمؤلف

وقد كُنَّا - مَعَشَرَ أَهْلِ بَيْتِ الْمَلِكَةِ - نَرَى مِنْ آكَدِ مَا تَأْدَبُ بِهِ إِعْمَالُ السِّيَاسَةِ فِي طَلَبِ الرِّيَاسَةِ ، وَالسَّعْيِ لَهَا بِكُلِّ الْوَجْهِ ، وَإِحْضَارِ الْأُذْهَانِ ، مَا لَوْ أَنَّ الْمُفْرِطَ فِي بَعْضِ ذَلِكَ مِنَّا يَكُونُ أَهْمَةُ النَّاسِ فِي سَائِرِهَا مِنَ الْعُلُومِ ، لَكَانَ عِنْدَنَا نَاقِصًا ، لَا يَصْلُحُ لِهَذَا الشَّأْنِ ، حَتَّى وَقَعَ التَّنَافُسُ عَلَى ذَلِكَ .

وَقَتَلْنَاهَا نَحْنُ عِلْمًا لِرِيَاضَةِ أَنْفُسِنَا لَهَا ، وَمَا أَجْرَانَا^(١) عَلَيْهِ آهَاؤُنَا ، وَبَصَرُونَا فِيهِ مِنْ أَوَّلِ نَشَاتِنَا .

١٠ وتلك صناعةٌ وجب تعلُّمُها لضرورة الحال ، كسائر الصنائع التي منها معايش الناس ، ولا بدَّ لهم من إتيانها . وَلَقَمَرَى إِنَّ الْوَالِيَّ أَكْثَرَ عِلْمًا وَأَحْسَنَ عَقْلًا : فَإِنَّ جَمِيعَ عُقُولِ النَّاسِ تَعْرِضُ لِدَيْهِ ، وَيَجْرُبُ فِي مَوْضِعِهِ مَا لَا يَجْرُبُ غَيْرُهُ فِي تَقْلُبِهِ فِي الْبِلَادِ ، وَإِلَيْهِ تَهْدَى الْأَخْبَارُ ، وَيَتَخَصَّمُ النَّاسُ ، وَعِنْدَهُ يَقَعُ الطَّلَبُ ، وَتَرْفَعُ الْحَاجَاتُ ، وَتَقَعُ الْعِنَايَاتُ ؛ فَيَرَى وَيَسْمَعُ كُلُّ يَوْمٍ جَدِيدًا لَمْ يَرَهُ أَمْسًا . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْعَزِيزِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : « لَسْتُ كَخَبِيرٍ ، وَلَا الْخَبِيرُ يُخْدَعُنِي ! » وَقِيلَ : « فَلَا تَعْرِفُ الشَّرَّ » .

١٥ قَالَ : « ذَلِكَ أَجْدَرُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ ! »

* وَلَمَّا كَانَ الْمُظَفَّرُ جَدُّنَا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَدْ أُوتِيَ مِنَ الدَّهَاءِ وَالتَّمْيِيزِ ٥ (١)

لأحوال الزمان ما لا يخفاء به ، وأنه من آكد ما يجب له النظر فيه ترشيح

أَحَدَ بَنِيهِ لِلوَلَايَةِ بَعْدَهُ ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِتَمَرِينِهِ وَإِعْمَالِهِ فِي جَمِيعِ خِدْمَتِهِ ، كَيْ يَتَدَرَّبَ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِ الدَّوْلَةِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِيهِ نَفْسُهُ ، كُنْتُ مِمَّنْ وَقَّهَ اللَّهُ لِبِرِّهِ وَالْإِنْصِياعِ لَوْصِيَّتِهِ . فَأَمَرَ بِإِخْرَاجِي مِنَ الْمَكْتَبِ إِلَى التَّصَرُّفِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَقَالَ لِي — نَصَرَ اللَّهُ وَجْهَهُ — : « مَعَكَ مِنَ الْكِتَابَةِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ مَا يَكْفِيكَ ! وَهَذَا أَوْلَى مَا تَعَلَّمَ ! فَعَلَيْكَ بِإِحْضَارِ ذَهْنِكَ لِجَمِيعِ مَا يَكُونُ مِنِّي وَمَا يَنْقُضِي فِي دَوْلَتِي أَيَّامَ هَذِهِ الْفَتَنِ ؛ فَإِنَّ الزَّمَانَ أَشْرُّ ، وَالْأَيَّامُ أَقْصَرُ مِنْ أَنْ تُذَرِكَ تَعَلَّمَ كُلُّ شَيْءٍ بِعَيْنِي بِهِ الْمُلُوكُ لِأَبْنَائِهِمْ ! »

فَامْتَثَلْتُ حَذَّه . وَأَخَذْتُ نَفْسِي أَوَّلًا بِالتَّوَضُّعِ لَهُ وَابْتِغَاءِ كُلِّ شَيْءٍ يَتَقَعُ مِنْهُ فِي نَفْسِهِ أَنِّي أَشْرُهُ بِهِ إِلَى تَعْجِيلِ الْوَلَايَةِ أَوْ الْحِرْصِ عَلَى الرِّيَاسَةِ ؛ بَلْ كُنْتُ أَتَأَبَّى لَهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَلَا أَخْكُمُ بَيْنَ اثْنَيْنِ إِلَّا عَنْ مَشُورَتِهِ وَمِشَارَكَةِ أَهْلِ السَّنِّ وَالْعَمَلِ مِنْ وَزَرَاتِهِ ، وَأُنْزِلُ نَفْسِي لَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْإِبْنِ ، حَتَّى وَقَعَ ذَلِكَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مَوْقِعًا ارْتِضَاؤِي بِهِ لِلْخِلَافَةِ مِنْ بَعْدِهِ . وَاتَّفَقَ فِي ذَلِكَ رَأْيُهُمْ مَعَ رَأْيِ الْجَدِّ — رَحِمَهُ اللَّهُ .

وَلَمْ يَكُنْ مِنْهَا نَهَارٌ إِلَّا وَأَسْتَفِيدُ فِيهِ فَائِدَةً مِنْ تَجَرِبَةِ وَحُكْمَةِ .
وَمَا كُنْتُ أَجْهَلُهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ ، أَجِدُ لَهُ أَعْوَانًا مِنَ الْوُزَرَاءِ ، يَعْلَمُونَني بِالصَّوَابِ فِيهِ لِقَلَّةِ خِلَافِي عَلَيْهِمْ وَبِرِّي بِهِمْ .

كُلُّ ذَلِكَ [مِنْ] الْأَسْبَابِ الَّتِي أَذِنَ اللَّهُ مِنْ أَجْلِهَا وَلَايَتِي مِنْ بَعْدِهِ .
وَقَدْ كَانَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمَمْلُوكَةِ مَنْ يَصْلَحُ لَهَا قَبْلِي ، وَمَعِيَ مِنْ أَخِي كَبِيرٍ وَعَمٍّ وَقَرَابَةٍ أَنْتَوَّعُ اسْتِغْدَاقَهُمْ إِلَيَّ وَتَغَلُّبُهُمْ عَلَيَّ ، مَا لَوْ أَنْفَقْتُ مِلْءَ الْأَرْضِ عَلَى كِفَايَةِ شَرِّهِ ، مَا اسْتَطَعْتُ لَهُ . فَكَفَانِي اللَّهُ تَعَالَى مَا كُنْتُ * (ب)

أَتَوْعَ ، وأراني الخيرة في عاقبة كلِّ أمرٍ كنتُ فيه أكرهه . فنحنُ
جُدْرَاهُ بِتَعْدَادِ رِيعِ اللَّهِ وَالْإِنصَافِ فِي شُكْرِهِ ، كَمَا حَضَّ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي
قَوْلِهِ ^(١) لَنَبِيِّهِ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .
وَقَدْ كَانَ أَبُوْنَا سَيِّفُ الدَّوْلَةِ — رَحِمَهُ اللَّهُ — مُرَشَّحًا لِلْمُلْكَةِ ، كَثِيرًا
حُبُّ أَبِيهِ لَهُ ، وَجَمْعُهُ الْأَمْوَالِ مِنْ أَجْلِهِ ، وَتَدْرِيبُهُ عَلَيْهِ بِكُلِّ وَجْهِ .
وَكَانَ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — مِنَ الْعَقْلِ وَالْكَرَمِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ وَالْحِلْمِ مَأْشُورًا بِهِ
فِي الْبِلَادِ ، وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ مَحَبَّةُ الْعِبَادِ . وَلَمْ يَكُنْ لِلْمُظَفَّرِ جَدًّا غَيْرُهُ ؛ فَتَوَفَّى
— رَحِمَهُ اللَّهُ — ابْنُ خَمْسَةِ وَعَشْرِينَ عَامًا . وَسَنَذَكُرُ مِنْ أَحْوَالِهِ مَعَ سَائِرِ
أُمُورِ الدَّوْلَةِ مَا يَرِدُ بَعْدَ هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

٦ — صعوبة الإنصاف التاريخي

وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي تَقْدِيمُهُ ذِكْرُ دُخُولِنَا الْأَنْدَلُسَ ، وَكَيْفِيَّةِ وَلَايَتِنَا إِيَّاهَا ،
إِلَى هَلُمَّ جَرًّا .

فَإِنَّهُ ، مَتَى أَتَيْنَا عَلَى خَيْرِ طَيْبِ ذِكْرِهِ فِي هَذَا التَّأْلِيفِ ، لِلْمُعْتَرِضِ
أَنْ يَقُولَ : « هَذَا أَحْسَنُ لَوْ كَانَ عَلَى أَصْلِ مُحَمَّدٍ ، وَعَنْ وَلَايَةِ تَرْتَفَى ا »
فَيَنْطِقُ هَذَرًا دُونَ اخْتِبَارٍ وَلَا إِنْصَافٍ ، عَلَى أَنَّ الثَّنَاءَ الْحَسَنَ لَا يَقَعُ عَلَى الدَّوْلَةِ
إِلَّا فِي مُدَّتِهَا وَأَيَّامِ سَعَادَتِهَا ، وَلَوْ كَانَتْ ظَالِمَةً ؛ فَلَا يَقَعُ فِيهَا الْقِتْمُ إِلَّا بَعْدَ
تَوَلَّيْهَا ، وَلَوْ كَانَتْ عَادِلَةً . وَالنَّاسُ مَعَ مَنْ سَبَقَ إِلَّا مَنْ نَظَرَ بَعَيْنَ الْعَدْلِ ،
لَا بَعَيْنَ الْهَوَى ؛ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ !

ولتَرَى أن لا شيء في العالم يسعد وينجس إلا وكان أحد الأمرين لا يشوبه غيره . ولا يتعلق بالسعادة إلا كل مستحسن من غير تكدير ، كما أنه لا تشوب المنحسة ما فيه أدنى مرور . وليس مع الإقبال إقبال إلا تمام المدة .

- ٥ ولا يتفق الناس أجمع على مدح أحدٍ ولا على ذمه : فإن رضى العامة أمر لا يدرك ، ولا بدّ للوالى أن يقضى عند حكمه لأحد الخصمين على الآخر ضرورة ؛ فالتفنى عليه انقلب سخطاً ، والتفنى له انقلب راضياً ، وكلاهما يتكلم على شهوة نفسه . فكيف يتفق إجماع العامة على خير واحد ؟
٦ أو مدحه ؟ وإن الله تعالى كان قادراً على أن يسوى بين [أمور خلقه ،
١٠ وجديراً ، وإن] كيف ، أن يرفع بعضهم فوق بعض درجات .

٧ - المصادفة وأثرها في التاريخ

مثل المنصور

- وإذا اعتبرت أحوال هذا العالم على شيء من أمر الدنيا ، فإنما تجد كائناً بأرق سبب : فن بين جاهل مسعود أو حاذق مُمخرق . وإذا
١٥ بمرت على ما هو فيه أعين استحقاق تصوير إليه ، لم تختبر من ضالّه ومقاله شيئاً يشذ عن العالم ، ولا يشف على رأى من تزدرية عينك ، ولأنّ الجمل في العامة أغلب ، والباطل إلى عقولها أسرع : استعظمت ما هو عند اللبيب حقير ، وتكلمت على ما ظهر إليها ، ولم تحس عليه بمقولها ؛ والله

ما بطن ، وللتاس ما ظهر . ولهذا ترى صاحب التاموس أرفع ذكرًا وأطيب نساء ، وإن كان يُراى .

وقد كان المنصور بن أبي عامر ، على دقة شأنه قبل ، ولأنه لم يكن من أهل بيت الملكة ، فيستحقها عن الآباء ، ولا كانت به قدرة على الدنيا ، قد حصل على عظام بدهائه ونخرفته على العامة ، مع ماهيات السعادة له (وكان أقوى الأسباب فى سلطانه) . وقد ذكر بعض أهل العلم بالتنجيم أنه من كان طالعه من البروج الحوت والقوس كان أعظم الأسباب فى سلطانه أو عقاره .

ولولا قيامه بدعوة الخليفة ، وإظهاره الانخضاع له [فى جميع ما يأتى ويذكر إلى طاعته وإقامة أوده ، وتوليته الحجابة والوزارة ، وإخماله لأهل الدولة الحكيمية^(١) ، وتقصيهم بالقتل ، متأولاً فى ذلك أن دولته تصفو^(٢) به ويقوى سلطانه ، وأن فى بقائهم كثرة الخلاف وإيثار الفتن وهلاك المسلمين ، حتى اتسقى له ما أمّل ، وبلغ من ذلك كله الناية القصوى — ولو أن أحداً اشتهر ببعض ما أتى هو به دون تعلق بسبب أو إظهار طاعة ، [لكان قتل] من ساعته ، ولو كان من أهل بيت الخلافة — إلى أن ورث الأمر ابنه من [بعده ، فسار المنصور] * بأحسن سيرة وأحمد طريقة ؛ وكانت له فى بلاد^(ب) العدو فحكات ، نال الإسلام فى أيامه عزاً ما كان بالأندلس [مثله] ، وأذل ما كان النصارى عليه .

(١) فى الأصل : « الحاكيمية » .

(٢) أصل : « أن به تصفى دولته » .

الفصل الثاني

الأحداث الممهدة لقيام دولة بني زيري
وأوليات هذه الدولة . أيام زاوي بن زيري
وحبوس بن مأكسن

٨ - الإصلاح العسكري الذي أدخله المنصور .

قدوم بني زيري إلى الأندلس وقيام دول الطوائف

وتوقع [المنصور] من أجناده الاتفاق على بعض ما يخل بدولته ، إذ كانوا صنفًا واحدًا ، وتألَّبهم على معصية أمره ، متى أمر بما أحبوا أو كرهوا ؛ فنظر من ذلك بين اليقظة ، وسؤل له رأيه أن تكون أجناده قبائل مختلفة وأشتاتًا متفرقة : إن هم أحد الطوائف بخروج عن الطاعة ، غلبها بسائر الفئات ، مع احتياجه إلى تقوية عسكره ، والزيادة فيه بمن يستطيع على تحلل بلاد العدو وتدوينها متى شاء . فاستجلب من رؤساء البربر وحماة وأنبجاءها من بلغه فروسيته وشدته . وتسامع الناس بالجهاد ؛ فبادر إليه من شرق العدو من كان لهم من الآثار والمكارم والبأس على النصارى ١٠ ما لا خفاء به . وبهم كان يصول ابن أبي عامر على العدو ؛ وهم كانوا

العِدَّة في الجيش وللوثوق بهم عند اللقاء ومعتك الوغاء . وكان من أذهابهم رأياً وأبندهم همة زَاوِي بن زِيرِي عَمَّنَا ، وبعده حَبُوسُ بن مَاكْسَن ابنُ أخيه — رضى الله عنهما — ؛ فإليهما كان الرأى والمشورة في الأمر ، والحكم على من دونهم من الأجناد .

فرتب ابنُ أبى عامر الرُّتَب ، وأظهر هيئة الخلافة ، وقع الشرك ، وحضَّ المسلمين عامَّة على الغزو ؛ فعبز عن ذلك رعية الأندلس ، وشكوا إليه ضعفهم عن الملاقاة وشغلهم بالفَرَوات عن عمارة أرضهم ؛ ولم يكن القومُ أهلَ حَرْبٍ . فقاطعتهم على أن يشتغلوا بعمارة أرضهم ، ويمطوا من أموالهم كلَّ عام ما يقيم به من الأجناد مَنْ يكفيهم ذلك ، على اتفاق ورضى منهم . فضرب عليهم الأقطاع ، وحصل في الدواوين جميع أموال الناس ، وكسرها* عليهم^(١) [وفرض] بينهم ما لا [يرتزق] منه الجيش . فبقيت تلك ٧ (١) الأقطاع عليهم إلى [أن عمت الأندلس] عدَّة الثَّوَار و[اتبعوا] هم على تلك الآثار . [ودأبه] في ذلك إنما كان على ما وصَّفهنا .

وكان الناس مؤتمنين على ما يعطونه من زكاة أموالهم في الناض والطعام والمواشي ، يقسمون ذلك على المساكين بكلِّ بلدة ؛ ولم يكن الوالى يقرب من ذلك إلَّا ما يقيم به الجيش والدولة التى هى قيام العالم ؛ ولولا حماية السلاطين للرعية ، وعزُّ دُؤْلهم ، وذُبُّهم عنهم ، ما طاب لهم عيشٌ ولا عزٌّ بهم قرارٌ . فكان ذلك كله عن سداد وصلاح وتأول الخير . ولم تزل الأندلس قديماً وحديثاً [عامرة] بالعلماء والفقهاء وأهل الدين ، وإليهم كانت الأمور مصروفة ، إلَّا ما يلزم المالك من خاصته وعبيده وأجناده من الأخذ من واحد

(١) وقع هنا وفيما يلي خرم وبعض محو في الأصل . وأكثناه بما يتفق والمنى .

وَدَفَعَهُ لآخر ، لينخل بذلك عسكره ويتخير أفضله فيه للمسلمين
كفاية وعدة ، إذ كانت الأموال التي يعطونها من غير أصولهم ، ولا اكتسابهم ؛
إنما كان ذلك من وجه النظر للمسلمين . وأما ما كان بينهم من مظلمة
أو قضية وكل حكم يرجع للسنة ، فإنما كان لقاضى البلدة .

٥ فلما تمت الدولة العائرية ، وبقي الناس لا إمام لهم ، ثار كل قائد
بمدينته ، وتحصن في حصنه بعد تقديمه النظر لنفسه ، واتخاذ المسافر ،
واذخاره الأموال ؛ فتنافسوا على الدنيا ، وطمع كل واحد في الآخر .
وكذلك لا يصح أمره بين نفسين ؛ فكيف سلاطين كثيرة وأهواء
مختلفة ؟ إلا الله من كان ظالماً منهم يتمدى . . .
١٠ للقدرة* الذى شاء ربنا لا شريك له .

٧

٩ — استقرار بنى زيري في البيرة بناء على طلب أهلها

فلما رأى سلاطين صنهاجة وبنو زيري اقتطاع كل أمير في بلد لنفسه ،
وذهاب ما كانوا عليه من عز وأثر ، عزموا بالرحيل عن الأندلس والجواز
إلى العدو ، ليرجعوا إلى مستقرهم . فانقدوا على ذلك بعد أمور يطول
١٥ ذكرها ، وظهور فساد كثير أضربنا عن إirاده كله ، إذ كان مقصدنا
وصف دولتنا خاصة . ولا بد من ذكر لمع من غيرها عند الاحتياج إليه .
وكان أهل البيرة في بساط من الأرض ، وكان بهم من الفس بعضهم
لبعض ما إن الرجل منهم ليتخذ يازاه داره مسجداً وحاماً فراراً من جاره ،
ولا يرجعون إلى طاعة ولا حكم وال . وكانوا مع هذا من أجبن الناس

وأخوفهم على مدينتهم ، لا يستطيعون على قتال أحد ، ولو كان اللدباب ،
إلا بن يحميم ويذب عنهم . فلما بصروا باختلاف سلاطين الأندلس ،
وأنها أضمرت ناراً ، وتوقعوا أن يتخطقهم الناس ، وجَّهوا إلى زاوى المذكور ،
شاكين مما هم فيه ، ويقولون : « إن كنتم جاهدتم قبل اليوم ، فهذا
الجهاد آكد عليكم : أنفسكم تحيونها ، ودياركم تحمونها ، وعزة تأوون إليها
ونحن شاركوكم بأموالنا وأنفسنا : لكم منا الأموال والسكنى ، ولنا
منكم الحماية والذب عنا ! » .

قبل القوم قوَّلم . واغبتوا بمكانهم ، واستبشروا باستفتاح البلدة
لغيرها ، و . . . أنفسهم من الغدر لتشتتهم ورجوع أمرهم كله إليهم دون
فئة [تحميم] ، ولا جماعة يتوقع غضبها . فاتوهم مُحْتَشِدِينَ مُنَالِّفِينَ ،
قد انقطع إليهم كل من اتى من البربر وتعلق بهم . ونزلوا ساحتهم ،
وحَيَّوهم بالتخف والأموال ، وشاركوهم أحسن مشاركة ، راضين بهم
لا ساخطين . واستجابت لهم عند ذلك معاقِلُ كثيرة ، منها جَيَّان وأنظارها ،
وحِصْنُ آشَر* من القرب .

(١) ٨

فلما طاعت لهم البلاد ، اجتمع رأيهم على أن يتقارَّعوا عليها ؛ وكانت
عادة في البربر ، كنى لا يأنف أحدُهم مما يصير إلى أخيه . فرجعت
إلى بيرة في قرعة زاوى ، وحِصْنُ آشَر مع جَيَّان في قرعة حبُّوس ابن أخيه
جَدَّنا — رحمة الله عليهم — . وتعاقد جميعهم على أنه ، إن طرق العدو
جهة صاحبه ، يكون الآخرُ يحمىها بنفسه ورجاله .

١٥

١٠ - ردّ الفعل الذي أحدثه في الأندلس قيام دولة بني زيري

اختطاط غرناطة

فلما بصر بفعلهم ثوار الأندلس ، جزعوا منهم ، وحذروا أن تقوى شوكتهم ، فيطرقوهم ويحصّوا على بلادهم ، لئلا يختبروا من شدّتهم ورأيهم .
 ٥ فاجتمعوا على منازلهم وقصّدهم إليهم بأحشادهم ، كراهية تطييدهم بذلك للكان وبفضهم لجنسهم . وقدموا على أنفسهم إنساناً سموه بالمرنّضى ، زعموا أنه قرشي^١ ، كنى يستهلّوا بخلافته عامّة الناس ، وليرجع أمرهم إليه . ونزل الجمع على مقربة منهم .

وكان قبل ذلك ، لما بلغهم احتشادهم وتألّبهم ، جمعوا أهل البيرة المذكورة وقالوا لهم : « نحن لم نأت لفساد دياركم ، ولا قهرناكم على استيطانها ؛ وإنما كان ذلك على اختياركم لنا . وهذه الفئات متبيلة لطلبنا : فإن استوثقنا منكم ، دافعنا عنكم ؛ وإن كانت الأخرى ، فأعلونا : نمض عنكم على أجل وجّه . فلن نعلم الخير بسيوفنا ! » فأجابهم القوم : « اثبتوا في قتال عدوكم والدفاع عنا وعن أنفسكم ! فنحن رعيّكم الطائفة وأسيافكم القاطعة ! » قال لهم زاوي بن زيري : « إذا كان هذا رأيكم ، فأرى من الصواب أن نرحل عن هذه المدينة ، ونختار لأنفسنا فيما يقرب منها مَقْلاً ناوي إليه بأهاليها وأموالنا * والحرب^٨ (ب) مِجَال^(١) يصيب عندها ولا يصاب ؛ فقد يُظنُّ عجزاً ! وقد أمر

(١) حرم في الأصل .

النبي — عليه السلام — عند احتشاد المُشْرِكِينَ على المدينة أن يُخْتَدَقَ حَوَالِهَا ، وسنَّ الحَزَمَ ، مع مدَّ الوَحْيِ له ؛ فكيف نَحْنُ ؟ »

وقالوا لأهل البيرة : « لَسْنَا نَكْلِفُكُمْ ^(١) من الأموال ما نسرَّغُم به ، إلا أن تنفقوها فيما يخصُّكم من تقوية مدينتكم بحشود رجَّالةٍ منكم ، تنفقون عليهم ليكونوا بها لكم أعواناً : تصرفونهم حَرَساً وجواسيسَ وما أشبه ذلك ، وتحملون من تعرفون أنه يستطيع على الجُنْدِيَّةِ ، أو تبنون لأنفسكم سوراً يتوقَّع بتركه ثلثةٌ تدخل بها الداخلة عليكم . وأمَّا سِوَى ذلك مما يخصُّنا نحن ، فاعلموا أنه لم نأتِ الأندلسَ إلَّا وأجلبنا مع أنفسنا من الأموال ما لا نحتاج فيه إلى أحدٍ ، بانين على الإقامة إن اضطرَّرتنا إليها ؛ ولم نأتِها من فاقةٍ ولا سعاية ؛ إنَّما جئناها رغبةً في الجهاد ، وأن تكون كفايتنا التي شهرنا بها على العدوِّ دون سائرهم ، وأن نفنى باقى أعمارنا فى طاعة الله ، إلى أن دفعتنا الأقدار إلى ما تروُن . ونَحْنُ لم نطلب أحدًا ، ولا تعدِّينا على بشر ! وهؤلاء باغون متطاوِلون . وَنَحْنُ بُنَى عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللهُ ^(٢) » ؛ ومن قُتِل دون ماله وأهله ، فهو شهيدٌ ! »

فرضى القوم من قولهم ، وزاد ذلك فيهم رغبةً . واتفق رأى الجميع أن يَخِيرُوا لأنفسهم جَبَلًا مُنِيفًا وَمَقِيلًا شامخًا ، يبنون فيه ديارهم ، ويرحلون إليه بقلتهم وكثرتهم ، ويمحلونه القاعدة ، ويخربون له البيرة المذكورة
..... ^(٣) فوقت أعينهم على بسيطٍ جميل ، قد جمع الأنهار والأشجار ؛ ٩ (١) وجميع ما يليه من البلاد كلُّه ينسقى من وادى ^(٤) شَنِيلٍ المنحدر من جبل

(١) أصل : « نكلفوكم » . (٢) سورة الحج : ٦٠ . (٣) غرم نحو سطرين فى الأصل . (٤) أصل : « واد » .

شَلْتَر . وبصروا بالجبل الذي فيه الآن مدينةُ غَرْنَاطَة مَوْسُطَة لِلْبَلَدِ كُلِّهِ :
 الْقَحْصَ أَمَامَهُ ، وَجِهَتِي الزَّائِيَةَ وَالسَّطْحَ بِجَنْبَيْهِ ، وَنَظَرَ الْجَبَلَ وَرَاءَهُ .
 فَأَفْتَنَهُمُ الْمَكَانَ ، وَعَمِلُوا عَلَيْهِ كُلَّ حَسَابٍ ، وَرَأَوْا أَنَّهُ فِي وَسْطِ النَّعْمِ وَجْهٍ هَوْرِ
 الرِّعَايَا ، وَأَنَّ الْعَدُوَّ ، مَتَى نَازَلَهُ ، لَمْ يَطُقْ لَهُ إِحْصَارًا ، وَلَا مَنَعَهُ دَاخِلًا
 وَلَا خَارِجًا الْبَتَّةَ ، فِي كُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنَ الْمُرَافِقِ . فَشَرَعُوا فِي
 بُيْنَانِهِ . وَتَوَلَّى كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ إِقَامَةَ دَارِهِ مِنْ أُنْدَلُسٍ وَبَرَبَرٍ . وَخَرَبَتْ
 عِنْدَ ذَلِكَ الْبَيْرَةُ .

١١ - خروج المرتضى لحرب بني زيري وهزيمته

فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا مُدَّةً بِسِيرَةٍ قَبْلَ أَنْ يَسْتَكْمَلَ الثُّبَيَّانُ ، فَإِذَا بِالطَّوَائِفِ
 ١٠ الْبَاغِيَةِ قَدْ أَقْبَلَتْ طَامِعَةً مَتَأَلِّفَةً ، يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ ، عِنْدَ وَصُولِهِمْ ، لَا تَرْتَفِدُ
 لَهُمْ سَاعَةٌ . وَقَدَّمُوا كِتَابًا إِلَى زَاوِيٍّ لِلذِّكُورِ ، يَأْمُرُونَهُمْ - بِزَعْمِهِمْ -
 بِالْخُرُوجِ أَمَامَهُمْ عَلَى الْأَمَانِ ، وَأَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْبَقَاءِ ، وَلَا يَتْرَكُونَهُمْ بِذَلِكَ
 الْمَوْضِعِ : يُبَيِّنُونَ بِذَلِكَ الْعُذْرَ عِنْدَهُمْ ، إِذَا ظَفَرُوا بَعْدَ هَذَا ، أَنْ لَا يَقْبَلُوا
 لَهُمْ عَثْرَةً .

١٥ فَلَمَّا قُرِئَ عَلَى زَاوِيٍّ كِتَابُ الْمُرْتَضَى الْمَقَامَ لِهَذَا النَّامُوسِ ، جَمَعَ
 رِجَالَهُ ، وَخَاطَبَ ابْنَ أَخِيهِ حَبُوسًا ، يَأْمُرُهُ بِالْقُدُومِ عَلَيْهِ ؛ فَأَتَى فِي جَمِيعِ
 صُكْرِهِ ، وَدَخَلَ لِلدِّينَةِ عَلَى أَعْيُنِهِمْ ، غَيْرَ مُجَانِبٍ لَهُمْ ، وَلَا مُتَكَاِمٍ مِنْهُمْ .
 وَاجْتَمَعَ بَغَرْنَاطَةَ مِنْ صِنْهَاجَةٍ دُونَ الْأَلْفِ مِنْ خَيْرَةِ الْخَلِيفَةِ ؛ وَكَانَتْ الطَّوَائِفُ
 الْبَاغِيَةِ فِي نَحْوِ مِنْ أَرْبَعَةِ أَلْفِ فَارِسٍ .

٢٠ فَأَمَرَ زَاوِيٍّ لِلذِّكُورِ [بِكَتَبِ الْجَوَابِ مِنْ] إِمْلَانِهِ ، وَقَالَ لِلْكَاتِبِ :

« لَا تَزِدْ شَيْئًا عَلَى مَا أُمِّلِي عَلَيْكَ ! * اَكْتُبْ : ﴿ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ، حَتَّى ٩ (ب) زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ . كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (١) 〉 . »

فما ورد الجواب عليهم ، عجبوا من دهائه ، وقالوا : « إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَمْ يَأْبَ الطَّاعَةَ لَنَا ، إِلَّا أَنَّهُ وَائِقٌ بِنَجْدَتِهِ وَبِمَنْ مَعَهُ ، أَوْ مُوْطَّنٌ عَلَى الْمَوْتِ ، أَوْ مُعْجَبٌ بِحَيِّ ! » فزحفوا إليه .

وهشَّ القومُ إلى مُلَاقَاتِهِمْ . فَأَمَرَهُمْ زَاوَى بِالثُبُوتِ وَتَرْكِ الطَّيْشِ ، حَتَّى يَبْدُو لَهُ مَا هُمْ فِيهِ . فَقَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ : « لَا خَيْرَ لَنَا فِي غَيْرِ مُلَاقَاتِهِمْ ، إِذْ قَدْ أَقْنَأْنَا بِأَنَّهُمْ لَا يَنْفَعُنَا مَعَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا الظُّفْرُ بِهِمْ أَوْ الْمَوْتُ عَلَى أَيْدِيهِمْ . وَلَا مَهْرَبَ لَنَا فِي الْأَرْضِ دُونَ قِتَالِهِمْ ! إِنْ بَقِينَا ، لَمْ يَبَارِحُونَا ، وَأَحْصَرُونَا مَعَ رَعَايَانَا إِنْ لَمْ يَرَوْا مِنَّا دَفَاعًا عَنْهُمْ ! فَإِنَّمَا هَلَكٌ وَإِنَّمَا مُلْكٌ ! وَإِنْ مَوْتُنَا فِي مُلَاقَاتِهِمْ ، بَعْدَ إِبْلَاءِ الْعِذْرِ ، أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ تَغْلِبِهِمْ عَلَى مَدِينَتِنَا ! »

فَخَرَجُوا إِلَيْهِمْ بِأَنْفُسٍ جَرِيئَةٍ وَعَلَى الْمَوْتِ مُوْطَّنَةً ، وَقُلُوبٌ حَنِيقَةٌ وَالْمَوْتُ طَالِبَةٌ . فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا كَصَفْقَةٍ بِالْكَفِّ عَلَى الْكَفِّ حَتَّى وَلَّوْهُمُ الْأَدْبَارَ ، وَانْهَزَمُوا أَمَامَهُمْ مَذْعُورِينَ ، يَطْلُبُونَ النِّجَاةَ بِحِشَاةِ أَنْفُسِهِمْ ، لَا يَلْوِي مِنْهُمْ أَحَدٌ عَلَى صَاحِبِهِ . وَاتَّبَعْتَهُمْ صِنْهَاجَةٌ ، وَانْبَسَطَتْ عَلَيْهِمْ أَيْدَى الْبَرَبَرِ ، يَقْتُلُونَ مِنْهُمْ نَهْمَةً أَنْفُسَهُمْ ، وَيَأْخُذُونَ أَمْوَالَهُمْ وَمَا تَرَكَوهُ مِنْ أَسْلِحَتِهِمْ ، حَتَّى امْتَلَأَتْ مِنْ ذَلِكَ أَيْدِيهِمْ .

وَكَانَتْ تِلْكَ الْوَقْعَةُ أَوَّلَ ظَفَرِ ثُبُوتِهِمْ فِي أَوْطَانِهِمْ . وَهَابَهُمُ النَّاسُ ، وَانْقَادَتْ لَهُمُ الرِّعَايَا . وَتَوَطَّدَ مِنْهُمْ بَغْرَ نَاطِقَةٍ ، وَطَاعَتْ لَهُمْ أَكْثَرُ بِلَادِ أَعْدَائِهِمُ الْمَهْزُومِينَ .

١٢ — رحيل زاوي بن زيري إلى إفريقية وموته هناك مسموماً

وإنَّ زاوي بن زيري ، لما بصر بهذه الحال ، ورأى تألُّبَ أهل الأندلس عليهم وبُغْضهم لهم ، عمل بذلك فِكْرته وقال : « قد علْتُ وأيقنتُ أنَّ هذا يكون * دأبهم أبداً ، وإن كُنَّا قد مُنَحنا الظفر في أوَّل ١٠ صفة ، لم نأمنهم على أنفسنا وديارنا كلَّ حين ! وهُمْ ، إن قُتِلَ منهم واحدٌ ، خَلَفَهُ أَلْفٌ ، مع مَيْل جنسِيَّتهم من الرعايا إليهم ؛ فتكون الزيادة فيهم والنقصانُ مِنَّا ! ولا يموت لنا نَحْنُ أَحَدٌ ونُخلفه أبداً ! » فنظر من المكان بعين الحقيقة ، ورَهَدَ فيه ، مع ما عَلِمَهُ من وفاة بَادِيس بن النصور ، والِدِ المِعِزِّ ، مَلِكِ القَيْرَوَانِ ، وأنَّ ابنه وَلِيَّ طِفْلاً صغيراً ؛ فشرهت نفسه إلى تلك الولاية ، وعزم على النهوض إليها ، للقدَر الذي قَدَرَهُ اللهُ من إزالته عنها وولاية ابن أخيه مكانه .

وكان لزاوي بَنُونَ ، يعدل كلُّ واحد منهم بِيَدَنه مائة فارس في نجدته وقوَّة بأسه ورأيه : منهم بُلْقَيْن بن زاوي . فأعاب هذا الرأي على أبيه ، وقال له « بَنَيْتَ لَفَيْرِك ، فتكون له بمنزلة الخادم أو الأجير ! لا تترك ١٥ حاضراً لغائب ! واثبت بمكانك الذي لم تحصل عليه إلا بعد مشقَّة وإشرافٍ من نفسك على الهلاك ! » فقال زاوي : « نستخلف على المدينة من شيوخ تَلَكَّاتِة الموثوق بهم في المِهْمَات مَنْ يَثْقُّها ، وينوب منابى فيها ، حتَّى أباشِرَ بنفسى حال القَيْرَوَانِ وكَيْفِيَّةَ دَوْلَتِها . فلَمَّا أن يَتَهَيَّأ غَرَضُنَا ، وإلا انصرفنا إلى مَرَكَزِنَا » .

٢٠ فتهيَّأ للسير على سبيل المشاركة للمِعِزِّ ، وأن يكون له بالأندلس عُدَّةٌ

وعَبْدًا ، وما أشبه ذلك مما يُسْتَعْمَلُ فِي الْمُشَارَكَاتِ وَاتِّصَالِ الْأَيْدِي عَلَى
الْمِهْمَاتِ . وَاسْتَحْلَفَ مِنْ اسْتَحْلَفِهِ مِنَ الشُّيُوخِ إِلَّا يَدْخُلُوا^(١) عَلَيْهِ دَاخِلَةً
وَلَا يُسْلَمُوا^(٢) مِنْ أَحْوَالِهِ شَيْئًا لِابْنِ أَخِيهِ وَالْأَحَدِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ، * يُرِيهِمْ ١٠ (ب)
فِي مَسِيرِهِ^(٣) النَّظَرَ لَهُمُ وَالسَّعْيَ فِيمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ مَوَظِعِهِمْ ذَلِكَ .

٥ ثُمَّ خَرَجَ عَنِ الْبَلَدَةِ كَأَنَّهُ يُقَادُ قَوْدًا ؛ فَلَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا بِمَرَحَلَةٍ إِلَّا وَكُتِبَ
مُسْتَحْلَفِيهِ سَائِرَةً إِلَى حَبُوسَ بْنِ مَأْكَسَنَ ، يَسْفَهُونَ رَأْيَ زَاوَى وَيَقُولُونَ
لَهُ أَنْ يَجْعَلَ بِالْقُدُومِ إِلَى الْبَلَدِ ، وَأَنَّهُ أَحَقُّ بِوَلَايَتِهِ مِنْ غَيْرِهِ ، قَبْلَ أَنْ
يَطْمَعَ فِيهِ مَنْ لَا يَرْضُونَهُ ، أَوْ يَشْرَهَ إِلَيْهِ مِنْ قَفَرٍ فَأَهْ إِلَيْهِ بِزَوَالِ زَاوَى
عَنْهُ . فَلَمْ يَتَأَخَّرْ عَنْهُ إِقْبَالُ حَبُوسَ . وَتَلَقَّيْتَهُ^(٤) صِنْهَاجَةَ بِالطَّاعَةِ وَالْإِقْبَادِ
١٠ لُئْلِكَ . وَبِمَعْرِ زَاوَى ، وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ عَلَى مَقَرَّةٍ مِنْ غَرْنَاطَةِ ؛
وَنَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ . وَلَآمَهُ وَلَدَهُ عَلَى ذَلِكَ .

وَيَذْكُرُ أَنَّهُ ، لَمَّا وَصَلَ إِلَى الْقَيْرُوانِ ، وَأَحْسَنَ بِمَذْهَبِهِ بَعْضُ وُزَرَاءِ الْمُعِزِّ
نَكَرُوهُ وَخَافُوا دَوَاخِلَهُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْ يَكْدُرَ مَا صَفَا . وَرَأَوْا أَنَّ وِلَايَةَ الْمُعِزِّ
عَلَى طِفْلَوَيْتِهِ ، وَعَيْشَتِهِمْ مَعَهُ ، وَتَحَكُّمِهِمْ عَلَيْهِ ، أَخَفُّ عَلَيْهِمْ مِنْ تَوَلِّيَةِ دَاهِيَةٍ
١٥ مِثْلَ زَاوَى ، لَا يَمْلِكُونَ مَعَهُ مِنْ قِطْعِيرٍ . فَدُسَّ إِلَيْهِ مِنْ سَقَاهُ السُّمُّ . وَمَاتَ
بِتِلْكَ الْبِلَادِ .

١٣ — إِمَارَةُ حَبُوسَ بْنِ مَأْكَسَنَ

وَصَفَا الْأَمْرُ لِحَبُوسَ بْنِ مَأْكَسَنَ ، وَسَارَ بِأَجْمَلِ سِيرَةٍ وَأَعْدَلَ طَرِيقَةٍ .
وَصَرَفَ أَحْكَامَهُ أَجْمَعَ إِلَى قُضَاةِ الْبِلَادِ ، وَتَنَفَّعَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛ وَجَعَلَتْ

(١) أصل : « يَدْخُلُونَ » . (٢) أصل : « يَسْلَمُونَ » . (٣) أصل : « مَسِيرِهِ » .

(٤) أصل : « وَتَلَقَّيْتَهُ » .

يَدُهُ عَلَى الْحَرَامِ وَالْأَمْوَالِ . فَأَحْبَبَهُ النَّاسُ ، وَأَمِنَتْ مَعَهُ السُّبُلُ ، وَقَلَّ
الْفَسَادُ ، وَارْتَفَعَ الْجَوْرُ .

وكان الرجلُ مُحِبًّا فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ ، لَمْ يَسْتَأْثِرْ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ .
وَقَسَمَ عَلَيْهِمُ الْبِلَادَ . وَأَمَرَ كُلَّ قَائِدٍ أَنْ يَنْتَخِبَ مِنَ الرِّجَالِ عِدَدًا يَلِيقُ بِهِ
وَمَا يَكُونُ عَلَى قَدْرِ مَا أُعْطَاهُ مِنَ الْجِهَاتِ ، وَأَنْهَى إِلَيْهِمْ : « إِلَّا فَائِدَةٌ
تَفِيدُونِي بِهَا تُتَّفَقُ عِنْدِي مِنْ مَالٍ أَوْ تَحْفَةٍ غَيْرِ الْاسْتِكْنَانِ مِنَ الْأَجْنَادِ ؛ فَمَتَى
دَعَوْتُ * أَحَدَكُمْ لِمِهْمَةٍ ، وَبَصُرْتُ عَسْكَرَهُ أَكْثَرَ عِدَدًا وَأَجُودَ خَبِيرَةً ، (١) ١١
فَذَلِكَ الْأَثِيرُ عِنْدَنَا ، وَالْحَظِيُّ لَدَيْنَا ! » فَسَارَعَ الْأَجْنَادُ إِلَى الْإِثْقَةِ ، وَزَادَ
الْجَيْشُ فِي أَيَّامِهِ ؛ وَقَامَتْ هِمَمُ الرِّجَالِ عَلَى سَاقٍ ، وَتَنَافَسُوا عَلَى خِصَالِ
الْحُرُوبِ وَمَقَاتِلِ الشُّجْعَانِ . ١٠

وكان بنو عَمِّهِ كُلُّهُمْ إِنْسَانٌ مِنْهُمْ سُلْطَانًا فِي نَاحِيَّتِهِ ، قَدْ حَازَ جِهَتَهُ
وَانْفَرَدَ بِعَسْكَرِهِ . وَكَانَ حَبُوسٌ — رَحِمَهُ اللَّهُ — لَا يَنْفَرُ بِرَأْيِ دُونِهِمْ ،
وَلَا يَقْطَعُ مَقْطَعًا إِلَّا بِمَشُورَتِهِمْ ، حَتَّى إِنْهُمْ لِيَجْتَمِعُونَ مَعَهُ لِلْحُكْمِ فِي مَوْضِعٍ
خَارِجٍ قَصْرَهُ دُونَ السَّيْرِ إِلَيْهِ ؛ وَذَلِكَ اسْتِحْسَانًا مِنْهُ ، كَيْ لَا يَحْصُلَ عَلَيْهِمْ
مَا يَقَعُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ ذَلَّةٍ وَلَا مَا يَنْقُمُونَ عَلَيْهِ . وَكَانَ رَفِيقًا بِهِمْ ، مُحْسِنًا
إِلَيْهِمْ ، مُؤَلِّفًا لِكَلِمَتِهِمْ . وَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ : « إِنْ صَنِّهَاجَةٌ عِنْدِي مِثْلُ
الْأَسْنَانِ فِي الْفَمِ : إِنْ عَدِمْتُ مِنْهُمْ وَاحِدًا ، لَا نَخْلُفُهُ أَبَدًا ! » فَكَانَتْ
لَهُ بِهِمُ الصَّوْلَةُ عَلَى النَّاسِ وَالْإِسْطَالَةُ عَلَى الْعَدُوِّ . وَمَا كَانَ كُلُّ أَحَدٍ يَرَى
تَرْكَهُ غَنِيمَةً وَالسَّلَامَةَ مِنْهُ مِنْ أَعْظَمِ الْفَائِدَةِ ، فَضْلًا أَنْ يَطْمَعُ فِي شَيْءٍ
مِنْ جِهَاتِهِ ، أَوْ يُحَدِّثَهُ نَفْسُهُ بِغَزْوِ بَعْضِ بِلَادِهِ . ٢٠

١٤ — المؤامرات التى دُبِّرَت لإسناد الإمارة

إلى يَدَيَّر بن حُباسة .

موت حُبوس

وكان لحُبوس بن ماكسن — رحمه الله — ابنٌ آخر يُعرَف يَدَيَّر
 ٥ ابن حُباسة . وكان عنده آثرٌ من ولده ، للذى كان يرى من نباهته ،
 وإقباله على قراءة الكتب ومجالسة الفقهاء ؛ وهو الذى كان يلقي به
 الرُّسُل ، ويصرفه فى المهمات . وكان باراً بحُبوس وبجميع أهل المملكة .
 وكان من أحبِّ الناس فيه كاتبٌ حُبوس المعروف بأبى العباس ، لِمَا يَرى
 من تواضعه وحُسن مُشاركته فيما عَنَّ له من سَبَب . وطار له بذلك ناموسٌ
 ١٠ كبيرٌ عند* صِنهاجة حتى آثَرُوهُ على غيره .

١١ (ب)

وكان باديس بن حُبوس جدُّنا — رحمه الله — كبير النفس ، عالى الهمة ،
 حادِّ المزاج ، لا يستطيع أحدٌ [أن] يَمْخَرَقَ عليه فى أمر من الأمور ، ولا ينكسر
 لأحدٍ من بنى عمِّه ، رِقَّةً منه بسعاده ؛ وإنَّ الانخضاع والتريض فى القول
 لا يَغْنِيهِ ذلك ولا يزيد فى أَيَّامه . وكان ذلك كُلُّهُ منه فى حزم وروية ،
 ١٥ لا يفسد جانباً حتى يصلح آخر ، ويضرب بعضهم ببعض . فوجست أنفُسُ
 البعض منه ، وأشربوا هَيْبَتَهُ وخافته ، وتوقَّعوا ، إن صار الأمر إليه ، أن
 يَجْرِبَهُمْ على خلاف ما عهدوه من أيَّه . فأَضْمَرُ أكثرُهم لهُ الغوائل ، وآثَرُوا
 عليه يَدَيَّرَ المذكور ، وتمنَّوْا بولايته : كلُّ ذلك لشَقائِهِم وتَمَامِ أَيَّامِ سعادَتِهِمْ !
 وَصَغَتْ المُظَفَّرُ باديس — رحمه الله — يَصِفُ بعض ذلك فى مجلسه

ويقول : « كنتُ واقفاً بين يدي حَبُوس أبي — رحمه الله — حتى انتدبَ إليه من شيوخ صِنْهاجة من قال له : « إنَّ من آكِدٍ ما تنظر فيه أن تولَّى على أمرِكَ مَنْ يَخْلُفُكَ مَنْ تُرْجَى بَرَكَتُهُ للمسلمين ولبنى عمِّكَ ! فَإِنَّ الموت يغدو ويروح ! » فقال أبو العباس كَاتِبُهُ : « ليس يصلح لهذا الأمر إلا يَدَّيْر ، لطهارته ، وعفافه ، ومحَبَّتُهُ في الناس ! » وكان في الجُمْلَةِ من شيوخهم صديقٌ لى اسمُهُ فِرْقَان ، قد اصْطَنَعْتُهُ واستمَلْتُهُ ؛ فسمعتُ رَدَّهُ على أبي العباس ، وهو يقول له : « ما ينبغي لك أن تتكلم بهذا ! كيف يُقَدِّم للأمر غَيْرُ ابنه ، وهو مستطعٌ بجميع الأمور ؛ وقولُكَ أنتَ وقولُ غَيْرِكَ باطلٌ أكْثَى ، والله ، أرى موتَ حَبُوس وولايةَ باديس من بعده ، وَإِنَّ يَدَّيْرَ سيتحاطق على باديس ، ويظفر به ، ويقتله ! » قال باديس : « فسرني * كَلَامُهُ ، وأعطيتُهُ عليها ألف دينار .

وكان الأمر بعد ذلك على ما وصف فِرْقَان . ثمَّ إِنَّه اطَّيَّب من وجوه صِنْهاجة أقواماً ، ووعدهم بالإحسان ، وسعى بجهدِهِ على حلِّ تلك الصِّفْقَةِ ، إلى أن كلَّموا أباه في تَوَلَّيْتِهِ . فرضى ذلك ، وأمر الناس بانصياعهم له . وزجر يَدَّيْرَ في ملائِمٍ من الناس ، وقال له : « لا تشره ما ليس لك ، يا ابن حَبَاسَةِ ! » يُخَاطِبُهُ بهذا اللفظ .

فوقع من ذلك في نفس يَدَّيْرَ عدواةٌ مجددةٌ لباديس ؛ وعمل من ذلك الوقت على خلافه ومُكَابَرَتِهِ وإجماع الجماعات عليه ، وشَتَّت أقواماً من صِنْهاجة ، حتى صاروا معه . ووَآلَى بُلْقَيْنَ شقيقَ باديس — رحمهما الله — ؛ وكان من أهل البأس والنجدة ، غير أَنَّهُ لم يكن له معرفةٌ بسياسة المُلْك . ولما رأى بعضُ أصحابه موالاةَ بُلْقَيْنَ وسَعْيَهُ له في ظاهر الأمر ، لَامَهُ على

ذلك ، وقال له : « إن كنتَ لا تَسْعَى لنفسك ، ويكون من سَعْيِكَ لَتَفِرَّكَ ما نَرَى^(١) ؛ فبادِيسُ أَحَقُّ بِذلك ، الذى هو الأكبر والأَسعد ، وله الرِياسة ! » فكان جوابُهُ لقائل ذلك : « ليس سَعْيِي لِبُلُقَيْنِ إِيثارًا مَنَّى لَهُ على نفسى ، غَيْرَ أَنَّهُ صَحِيحُ النِّيَّةِ ، غَيْرُ حَازِقٍ بِمَكَايِدِ المَلِكَةِ ؛ وهو شَقِيقُ الذى أَطْلُبُ ، ولن أَجِدَ لَطَلْبِهِ أَقْدَرَ على ضَرِّهِ من أخيه ! فَإِنَّمَا أَنَا أَصِيدُ بِهِ ! فلو اتَّسَقَت لى الأمور ، وَتَهَيَّأَ قَتْلُ بادِيسَ على يَدَى أخيه ، كان أَمْرُ بُلُقَيْنِ من بَعْدِهِ هَيَّئًا ، وَخَلَعُهُ مُمَكِّنًا ! »

فكان أَبَدًا يَحْضُهُ على قَتْلِ أخيه ، وَيُرِيهِ السَّعْيَ لَهُ . وكان الأَخُ فى ذلك مُتَشَبِّهًا فى أمرِهِ مُشْفِقًا على أخيه ، إلى أن تُوُفِّي حَبِيبُ بن ١٠ ما كَسَنَ - رحمه الله .

(١) أصل : « نروا » .

الفصل الثالث

إمارة باديس بن حبوس

(١) من أوليتها إلى موت ابن نقرالة

١٥ — أولية إمارة باديس بن حبوس
وتماظم الوزير اليهودي أبي إبراهيم

دولى الأمر من بعده جدنا باديس — نصر الله وجهه — فحاول
أموراً كباراً ، وشقي* مع كل أمة : صنهاجة يطلبون مكانه مع يدبر ، ١٢ (ب)
وسلاطين الأندلس يرمون بلاده ؛ وهو فى ذلك كله حسن السياسة ، صبور
على الأذية .

وكان أبو إبراهيم اليهودي كاتباً بين يدى أبي العباس كاتب حبوس .
ولما توفى أبو العباس المذكور ، وترك بينين ، أقام حبوس — رحمه الله —
أكبرهم عوضاً من أبيه ، واستعمله مكانه . وكان فى الابن صبوة لا يرتبط
معه إلى خدمة الرئاسة ؛ ففكر به أبو إبراهيم اليهودي ، ولزم خدمة الرئيس ،
١٠ وصار ، متى عاب ولد أبي العباس ، يحضر أبو إبراهيم ؛ فيسأل عنه حبوس ؛
فيقول ، مستندراً فى الظاهر ومطالباً له فى الخن القول : « ولد أبي العباس ،

كما ترى ، صبيٌّ يُؤثِّر الراحة ؛ وأنت جديرٌ بالإغضاء عليه وإقامةِ
عنده . وأنا عبْدُه ، أنوبُ منابَه ؛ فمرّني بما شئتُ : يَهَيِّأْ ذلك ! »
فلم يزل على هذا أبداً حتّى تمكَّن ، وظهرت خدمته وسعْيُه في
ضمِّ الأموال .

٥ وكان مع هذا قد ميّز عن باديس سعادته ودهاءه ؛ فافترض السَّعيَ
له والتخدُّمَ لإرادته ما دَامَ أمْكَنُه ذلك ، في وقت المناوِين له والقائمين
عليه ، للذي قدَّر من أَيْامه معه .

فلما اتَّفَقَ أعداؤُه مع يَدْيَر عليه ، شاركوا في ذلك أبا إبراهيم ،
واجتمعوا في منزله ، يرومون قتلَ باديس وإقامة يَدْيَر ، وَعَدَّهم على الاجتماع
عنده . وتقدَّم إلى باديس ، وأخبره الخبر ، وأتى معه إلى المنزل ، وقال

١٠ له : « ليس الخبر كالعيان ! اسمع بأذنك وَعِ بقلبك ! » وهو بموضع مرتفع
على البيت الذي يرومون فيه عمَلهم ؛ وأبو إبراهيم في ذلك كَلَّه يقول عند
محاوَرتهم كالمخاطب للباري : « يا مَنْ يَرَى ولا يَرَى ! » وهو يعنى بذلك
باديس جدًّا الذي يَرَاهم ولا يَرَوْنَه . فشكر ذلك باديس* لأبي إبراهيم ، ١٣ (١)
وأيقن بشِقَّتِه وأمانته . وصار له خادماً من ذلك النهار ؛ وشاورَه في أكثر
رأيه مع بني عمِّه .

وكان في اليهوديِّ من الكيس والمُدَاراة للناس ما طابَقَ الزمانَ الذي
كانوا فيه والقوم الذين يرومونهم . فاستعمله لذلك استيحاءاً من غيره ، ولَمَّا
كان يَرَى من طَلَبِ بني عمِّه له ، ولأنَّ هذا يهوديٌّ ذِمِّيٌّ ، لا تشرُه
٢٠ نفسه إلى ولاية ، ولا هو أندلسيٌّ ، فيتَّقى منه إدخالَ داخلَةٍ مع غير جنسه
من السلاطين ، ولاحتياجه إلى الأموال التي يطبِّي بها بني عمِّه ، ويحاول بها

أَمَرَ الْمَلِكُ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ بُدٌّ مِنْ مِثْلِهِ أَنْ يَجْمَعَ لَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ مَا يُدْرِكُ
مَعَهَا الْأَمْالَ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ تَسَلُّطٌ عَلَى مُسْلِمٍ فِي حَقٍّ وَلَا بَاطِلٍ ، وَلَئِنْ
الرَّعَايَا أَكْثَرُهُمْ بَنَاتُ الْبَلَدِ ، وَالْعَمَالُ إِنَّمَا كَانُوا يَهُودًا ؛ فَكَانَ يَجْبِي مِنْهُمْ
الْأَمْوَالِ وَيُعْطِيهِ ؛ فَيَلْقَى ظَالِمًا مِنْهُمْ إِلَى ظَلَمَةٍ ، يَأْخُذُ مِنْهُمْ مَا [يَمْلَأُ بِهِ]
بَيْتَ اللَّالِ ؛ وَإِقَامَةُ أَوْدِ الْمَمْلَكَةِ أَوْلَى بِهِ مِنْهُمْ .

١٦ - فِشَلُ الْمُوَارَةِ الَّتِي دَبَّرَهَا يَدَّيْرُ بْنُ حُبَّاسَةَ

ضَدَّ بَادِيسَ

فَلَمَّا وَلِيَ بَادِيسَ ، كَثُرَ عَلَيْهِ الْخِلَافُ وَالْهَرَجُ ، وَاتَّفَقَ رَأْيُهُمْ عَلَى
مَا قَدَّمْنَا عَلَى قَتْلِهِ وَتَوَلَّى يَدَّيْرُ . وَأَعْطَى عَلَى ذَلِكَ أَقْوَامًا ثَقِيلَ وَالصَّكُوكَ
بِالْإِزَالَةِ الْقَوِيَّةِ .

وَكَانَتْ عَادَةُ السُّلْطَانِ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى مَوْضِعٍ يُعْرَفُ بِالرَّمْلَةِ ، وَيَازِئُهَا مُنِيَّةً
كَانَ يَحْكُمُ بِهَا حَبُوسُ أَبِيهِ ؛ وَكَانَ لَهَا بَابَانِ ، [فَاتَّفَقُوا] عَلَى أَنْ يَقِيمُوا
الْمُتَلَقَّبَ ، وَيَقْتُلُوهُ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنْ تِلْكَ الْمُنِيَّةِ ، وَهُمْ قَدْ تَسَلَّحُوا بِالدَّرُوعِ
مِنْ تَحْتِ الثِّيَابِ ، عَازِمِينَ عَلَى الشَّرِّ .

وَكَانَ مِّنْ ارْتُشِيٍّ عَلَى ذَلِكَ شَيْخٌ مِنْ صِنْفِهَا يُعْرَفُ بِفِرْقَانَ ،
أُعْطِيَ خَمْسَمِائَةَ مِثْقَالٍ وَصَكًّا بِقَرْيَةِ قَوْلَجَرٍ مِنْ عَمَلِ السَّطْحِ . فَقَالَ فِي
نَفْسِهِ : « لَمْ أَجِدْ فُرْصَةً نَحْظِي بِهَا عِنْدَ بَادِيسَ أَمْكَنَ * مِنْ هَذِهِ » ١
فَجَعَلَ أَنْ الْقَرَسَ زَادَ بِهِ فِي جَرِيدٍ ، كَأَنَّهُ جَمَحَ ، حَتَّى دَخَلَ الْمُنِيَّةَ ،
وَأَتَى بَادِيسَ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ ؛ فَقَالَ لَهُ مُخْتَلِسًا : « انْجُ بِنَفْسِكَ
وَأَخْرُجْ مِنَ الْبَابِ الْآخَرِ ! فَإِنَّ الْمَلَأَ يَأْتُمُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ! » وَأَرَاهُ الدَّنَانِيرَ ٢٠

التي أعطى على ذلك . فخرج باديس من الباب الآخر ، يحد في السير إلى قصبته ؛ وهم لا يشعرون ، ينتظرونه .

فبينما هم على ذلك ، إذا بعلي بن القروى وأصحابه من وزراء باديس وثقاته قد أقبلوا إليهم ؛ فقالوا لهم : « إنَّ السلطان وردَّ عليه من بعض أنظاره خبرٌ مُقْلِقٌ وجب الانصراف له ؛ فأعذروه في تخلفه عنكم ا ومع هذا ، فإنه لم يخفَ عليه شيء ا » فلما سمع القوم بذلك ، فكلُّ من كان في نفسه خبرٌ هرب على المقام ، وهرب يديز بن حُباسة ، لا يلتفتون على شيء ، يطلبون النجاة بمهجهم .

ثم افتضحت القضايا كلها لباديس من بعد هروبه ؛ ومشى إليه بالنصائح كثيرٌ من بغاه قبل ذلك . وطلع إليه أخوه بُلقين ، وبكى بين يديه ، وسأله العفو عما أدخله فيه الفاسق ابنُ عمه ، وأنه لم يزل به أبداً يروم ذلك منه لولا تلبُّته وشفقته عليه . وإنَّ يديز خرج عن البلدة ، وصار في حيز الأعداء ؛ وكلُّ رئيسٍ قد انتدب إلى فتنة جدنا — رحمه الله — ينحاز هو إليه ، ويصير من أعوانه وعلى أجناده ، يدلُّ بهم البلد ، ويريهـم المخادع ، ويكشف لهم من عورات الجهة ما خفي عنهم ، لا يفتر بالضرب عليه وتهتيك بلاده ؛ وجدنا في هذا لا يأوى معه إلى راحة ، ولا يقرُّ به قرارٌ .

وصنهاجة مع هذا يخطبونه ، حتى إنه وقعت بيد السلطان باديس — رحمه الله — كتبٌ كثيرةٌ من عند صنهاجة إلى يديز ، تضمنت أزيد من

٢٠ مائتي رجلٍ* من الأكابر . فغضب لذلك ، وهم بقتلهم . وشاور أبا إبراهيم (١) في الأمر ؛ فقال له : « أرى من الرأي ألا تؤنَّب أحداً على هذه

الكتب ، ولا تعلمهم أنها صارت إليك ، وأن تأمر الآن بنار تحرقها بها ونظفي أثرها ؛ ورأس العقل مُداراة الناس . فإن عاقبت ، كم عسى [أن] تُعاقب ، وهم أجنادك وأجنحتك ! فاحتلّ للأمر بغير هذا الوجه ! « قبل نصيحته ، واستعان ببعضهم على بعض ، وأفشى فيهم العطايا ؛ وضرب الابن بأبيه والأخ بأخيه .

فكان دأبُ يَدْيَر هكذا أبداً ، لا يقرُّ عن الضرب على بلاده ومعاودة ذلك بلا سامة ولا فترة ، إلى أن أنظره الله به وصار في ثقافه . وذُكر أنه مات مقروعا حتف أنفه . وتأتت الأمور لباديس من بعده ، وصفا له الجوه .

١٧ - انتصار باديس على زهير صاحب المرية

وأولُ فتح أفاء الله عليه هزيمته لزهير الخصى وإلى المرية . وكان له كاتبٌ ، يُعرف بولد عباس ، من أشدَّ الناس حاقةً واستخفافاً ، مُثيراً للشر ، مؤرثاً بين الملوك ؛ وكان الغالب على أمر زهير ، إذ لم يكن زهير يصلح لشئ لغباوته وجهله . وكان قد جمع كلَّ خصى بالأندلس واحتل ؛ فبالغ . وأدركه الطمع في غرناطة ، لما بلغه من موت حبوس بن ماكسن . فأتى حتى نزل على مقربة منها ، بموضع يُعرف بالقونت ، محترقاً لمن ولي غرناطة ، يزعم أنهم أصاغروا وأمرهم مختل بعد حبوس ، لما أراد الله من هلاكه وهلاك جنسيته الخصيان .

وكان جدنا باديس — رحمه الله — قد رأى عند ذلك رؤيا أن الحورَ بفرناطة قد سقط إلى الأرض جميعه ؛ فهاله ذلك ، وخشى أن تكون الوقعة عليه ؛ فأرسل في المُعَبَّر وقصَّ عليه . فقال له المُعَبَّر : « أبشر بهنه

الرُّؤْيَا ! إِنَّ الْحَوْرَ شَبِيهٌ بِالْخَصِيَانِ ، الَّذِي * لَا طَعْمَ لَهُ ، وَلَا أَصْلَ يَتَوَرَّكُ ١٤ (ب)
عليه ؛ وَهُمْ بِهِمْ الْمَرْتَبَةُ . وَلَا شَكَّ فِي سَقُوطِهِمْ وَبَوَارِهِمْ عَلَى يَدَيْكَ !
فَكَانَ ذَلِكَ .

وَقَدَّمَ عَلَى السَّاكِرِ أَخَاهُ بُلْقَيْنَ ؛ وَكَانَ مِنْ أَشْجَعِ النَّاسِ ؛ وَكَانَ
٥ باديس ، عِنْدَ مَوْتِ أَبِيهِ ، قَدْ اخْتَصَمَهُ بِكُلِّ مَا شَاءَ وَفَضَّلَهُ فِي الْمِيرَاثِ عَلَى
نَفْسِهِ إِلَّا النَّاصِ الَّذِي تَحْتَاجُهُ الْمَلِكَةُ . فَلَقِيَ الْعَسْكَرَ لِلْمَرْذُولِ ؛ فَلَمْ تَكُنْ
إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ حَتَّى انْهَزَمَ وَقُتِلَ جَمِيعُ مَنْ كَانَ فِيهِ مِنَ الْخَصِيَانِ ،
وَخَفِيَ زُهَيْرٌ عَنِ الْعَسْكَرِ ؛ فَلَمْ يَوْجَدْ حَيًّا وَلَا مَيِّتًا . وَكَانَتْ تِلْكَ أَوَّلَ
سَعَادَةِ بَادِيسَ ، كَمَا كَانَتْ هَزِيمَةُ الْمُرْتَضَى أَوَّلَ سَعَادَةِ أَبِيهِ ، ثُمَّ افْتَسَحَ
١٠ الْبِلَادَ ، وَصَارَتْ إِلَيْهِ الْأَنْظَارُ الَّتِي تَلِي الْمَرِيَّةَ . وَظَفَرَ بَعْدُوهُ كَاتِبَ زُهَيْرَ ،
وَأَمَرَ بِقَتْلِهِ مَتَاوَلًا لِإِثَارَتِهِ الْفِتْنَةَ ، وَنَقِمَ عَلَيْهِ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً قَبْلَ ذَلِكَ ، مِنْ
أَقَاوِيلَ خَشِينَةٍ وَمُعَامَلَاتٍ قَبِيحَةٍ عَرَفَهُ بِهَا .

وَقَرَّ مُلْكُ بَادِيسَ جَدًّا قَرَارَهُ ، وَطَارَ لَهُ الذِّكْرُ . وَكَانَتْ لَهُ مِنَ الْهَيْبَةِ
فِي النَّاسِ أَنْ لَمْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ أَحَدٌ بَعْدَ تِلْكَ الْقَضِيَّةِ .

١٥ ثُمَّ إِنَّ بُلْقَيْنَ أَخَاهُ لَمْ يَلْبَثْ بَعْدَ تِلْكَ الْوَقِيعَةِ إِلَّا بِسِيرًا حَتَّى مَاتَ
— رَحِمَهُ اللَّهُ — . وَكَبُرَتْ سِنُّ سَيْفِ الدَّوْلَةِ فِي حَالِ الْخِدَاثَةِ ، وَهُوَ أَبُوْنَا .
وَتَرَكَ عُمَهُ بُلْقَيْنَ ابْنًا كَانَ يِنَاوُهُ وَيَخْشَى مِنْهُ ضَرًّا كَثِيرًا ، وَيَتَوَقَّعُ عَلَى نَفْسِهِ
مِنَ الْمَطَالِبَاتِ بَتْلِكَ الْأَخْبَارِ ؛ فَخَرَجَ عَنِ الْبَلَدِ بِجَمِيعِ مَالِهِ وَتَرَكَهَ أَبِيهِ ،
لَمْ يَعْتَرِضْ لَهُ شَيْءٌ .

١٨ - شخصية الأمير بُلقَيْن سَيْف الدولة والد المؤلف

ولم يكن الْمُظَفَّرُ جَدًّا غَيْرَ بُلقَيْنَ أَيْنَا - رحمهم الله - . وكان رفيقاً به ، مشفقاً عليه ، حذراً من أعدائه وبنى عمه أن يُبلغوه من بعده بما بُولِغَ هو به بعد وفاة أبيه ؛ فكان لا يحسُّ من أَحَدٍ دَاخِلَةً وَلَا نَفَاةً إِلَّا ونظر فيه بما يوافق أمره من إِيحَالٍ أَوْ نَقْيٍ أَوْ أَخْذٍ مَالٍ ، لئلاَّ يَبْقَى لابنه مَنْ يُنَاوِئُهُ وَيُذِلُّهُ .

وكان سَيْف الدولة حليماً* رَفِيقاً ، ضداً أبيه في كُلِّ حال ؛ فَإِنَّهُ لم يَجْرُبْ ١٥ من الأمر ، ولا ابْتُلِيَ بما ابْتُلِيَ هو به . وكان يَعِدُّ النَّاسَ بِالْجِيلِ ، ويقول لهم : « أنا أنسيكم طَرِيقَةَ أَبِي ا » ومن استوجب من أبيه القتل أو أذَى ضَرَرٍ ، كان هو الذي يعنى بأمره ، ويتشفع فيه عند الأب ، حتَّى يتخلَّصه . ١٠ فأجمع الناس على محبته خاصَّةً وعامةً للذي يرون من مَكَارِمِهِ ، مع تمكين أبيه له وبَسْطِ يده على الأموال .

١٩ - نشاط يوسف بن نَعْرَالَةَ اليهودي ومؤامراته

وكان في زمانه لِلْمُظَفَّرِ أبيه وَزِيرَانِ ابنا القَرَوِيِّ : أَحَدُهُما على ، والآخر ١٥ عبد الله ، مَنَّ نَشَأَ معه ؛ وكانا حَضِيرَتَيْهِ في المكتب ؛ وكانا قائدَي العسكر ؛ واليهما كان يرجع الرَّأْيُ في أُمُورِ الْفِتَنِ ^(١) . وكان أبو إبراهيم الشَّيْخُ مُؤَذِّنًا لهما ، مستعينًا بهما .

(١) أصل : « الفتون » .

- فلما توفي أبو إبراهيم، وترك ابنته وزير جدنا، ورث لأبيه أموالاً كثيرة، ووصاه بأن يسعى في طلب الوزراء عند استقامة الدولة للرئيس، وعرض عليه الأبواب التي منها يكون حَتَفٌ كل واحد منهم، لِمَا كان بأيديهم من البلاد واستثمارهم بالجبايات. فجعل الخنزير نفسه لذلك. وكان المظفر — رحمه الله — لا يقبل منه مُطالبةٌ لمُسْلِمٍ، ولا عَرْضُهُ لذلك، غير أنه كان يتلطف بالأموال، ويعطى لثقاته وعبيده ما يجعلهم في المطالبة على هواه، وهو ساكت، لا يتكلم بشيء مثل أن يَدُسَّ في طَلَبِ أَحَدٍ على يدي مَوْفَقِ الخصى صاحب المدينة من رِقات باديس؛ وكان متصباً لهذه المشايه؛ فيأتي مَوْفَقُ المذكور بنصيحة إلى السلطان ممن يزعم أنه من أهل الشر؛ فيُرْسَل في اليهودي ويُقال له: «بلغني أمرٌ كذا وكذا». فيريه اليهودي التبرؤ^(١) من ذلك بأن يقول له: «كل ما نُقِلَ إليك كذبٌ: فثَبَّتْ^(١) ا! فيقول له الرئيس: ١٥ (ب) «أخبرني مَنْ لا شك عندي في نصيحته ا! فكان آخر ما يقول له: «ما قطعُ الشرِّ إلّا سياسة ا! وكان لمباهاته ومخترقته، يرى الناس أنه يقدر؛ ولم يكن ذلك منه، إلّا عن تحيّلٍ ومكرٍ.
- ١٥ فلما توفي أبو إبراهيم الشيخ، وكان ابنته في سنّ الصبا، كره توليته جدنا، وقال لعلّ المذكور: «الزِمَ خِدْمَةُ المملَكة؛ فأنت أحقُّ بها ا! فأبى ذلك على. وأطباهُ وَلَدُ أبي إبراهيم بالأموال الجسيمة، وقال: «ليس أرغبُ إلّا أن أكونَ عَبْدَكَ وَرَبِّيتَكَ؛ ولك الأمر؛ وأنا كاتبٌ بين يديك، وأقوم بتفقتك كلها، ولو كان أهْلُكَ عَدَدَ الخصى ا! فطمع على في قوله، وكَلَّمَ السلطان في ذلك، وقال له: «إن أقيمتَ على وَلَدِ

(١) أصل: «التبرؤ».

أبي إبراهيم ناصحك ، فأنا أرجو ذلك لو لَدَى من بعدى ؛ وأنا المُشْرِفُ عليه . « ففعل السلطان ما قال ، وقَدَّمه على العُمَال والجبايات . وكان يعطى لعلَى صدرًا من دولته إلى أن كَبُرَتْ سنُّه .

وأظهر [ولَدَ أبي إبراهيم] للسلطان نصائحَ كثيرةً حَظَى بها عنده ؛ وَتَبَرَّكَ عَلَى عَلَى وغيره ، واستوثق من جانب الرئيس ما لم يَسْأَل به عن عَلَى ولا عن أحَدٍ من خلق الله . وكان فيما قال له : « إِنَّ الذى يأخذ عَلَى أَنْتَ أَوْلَى به ؛ والرجلُ كثيرُ الأولاد والصفَف ، ويذهب مالكُ إن لم تُحِصِنِي وتمضدنى . وهو متى تَمَلَّأ ، طَمِع في مُلكك ! وأنا رجلٌ ذِمِّيٌّ لا هِمَّةَ لى إِلَّا خِدْمَتُكَ وَجَمْعُ الدِراهِم لبيت مالك ! » فوثِقَ الرئيس بقوله ، وقاس عليه بقله ، ومنع منه عليًا وجميعَ الناس . ولما رأى عَلَى تَأَخُّرَهُ وَتَقَدُّمَ اليهودى ، ندم على ما كان منه أَوَّلًا ، وفاته من الأمر ما لم يقدر معه على حيلة عند السلطان ؛ وغَاظَه ذلك وأَكْرَبَهُ .

وكانت مَدِينَةُ وادى آش* بِيَدِهِ ، قد قَدَّمَ عليها أخاه عبدَ الله ؛ وكان (١) ١٦
يأكلُها طعمَةً ، ولا يعطى منها فوق خمسة عشر ألف دينار دَرَاهِم ، وهى ١٥
تُسَاوِى أَرِيد من مائة ألف دينار ثُلُثِيَّة . فدخل عليه اليهودى بهذه المَطالِبَة وقال للسلطان : « اقْبِض وادى آش من عنده ، ولك مَنى فيها أَرِيد من مائة ألف ا » فقال له : « لست أقدر على أخذها منه بهذا الوجه ؛ فتكون مفاسدةً ، وهم متصرفون في خِدْمَتِهَا » . فوجد اليهودى السبيلَ إلى حيلة في نزعها باسمِ سيف الدولة أَيْنَا ، وقال : « لَأَخْذَنَّ البلدة من يد عدوِّ ، فأضعُها في يد سلطان يشكرنى عليها ، ويرى لى ذلك عن تَخَدُّم ونصيحة ! » ٢٠
فقال لأبى : « إِنْه يلزمنى طاعتُكَ ونصيحتُكَ لأكون لك كالذى أنا لأبيك ؛

وأراك كثير الذرية ، تازمك نفقات وتحمّل الرئاسة ؛ ومن النهن أن يكون وزراه واليدك أغنى منك ! وهذه وادي آش ، بنتُ غرناطة ، لا تجمل إلا لك ، وأنا أئتمرها وأجعلك تأخذ فيها مائة ألف ! « ففرح لقوله واليدي — رحمه الله — ، وشكر له رأيه ، ووعدته بالزيادة في مرتبته إن صار الأمرُ إليه .

ثم مضى إلى الوالد ؛ فأخبره الخبر ، وقصّ عليه أمر ابنه ؛ فقال له المظفر : « الآن وجب أخذها من أولاد القروى* . » فأرسل على اللقّام في عليّ وقال له : « إن ابني محتاجٌ إلى المال ، وطلب مني وادي آش . ولو كنت أخذتها منك ومُعطيها لقرينك ، لعزّ عليك ! ولكن يجب لك أن تتسرّع بها لابني . » فلم يكن جواب عليّ إلا أن قال له : « ما صلح للتوّلى على العبدِ حرامٌ ! » فضمّها اليهودى خادماً لأبي فيها ، وشرط عليه أن يعطيه رمتها في أنجم العام ؛ واتفقا على ذلك* . وصارت الودّة متمكّنة بين الابن ١٦ (ب) والوزير مُدّةً طويلةً .

٢٠ — موت الأمير بُلُقَيْن مسموماً

فلما رأى وزراء الدولة وعليّ وأخوه تمكّن اليهودى عند السلطان وعند الابن ، أغاظهم ذلك وأقلّتهم ، وبلغ منهم كلّ مبلغ . وأجمع رأيهم على الدخول بينه وبين أيتنا . وكان أولاد عليّ وعبد الله وزراء لسيف الدولة ونُدماء ، لا يُفارقونه . فعلموا عليه من كلّ وجه بأنفسهم ومع بنينهم ، وقالوا لسيف الدولة : « إن الأموال التي ينفقها اليهودى ويستأثر بها ، أنت أحقّ بها وأولى . وقد أتمكك وأتمل الدولة أجمع ! ولو أنك قتلتها ، لم يقلّ لك أبوك في ذلك شيئاً ! وما عسى أن يصنع بابنه ؟ » أرادوا — الفسقة —

قَتَلَ عَدُوَّهُمْ عَلَى يَدَيِ ابْنِ الرَّئِيسِ ، لِيُخْرِجُوا أَيْدِيَهُمْ مِنَ الْمَسْأَلَةِ : فَإِنْ عَاقَبَ ، عَاقَبَ ابْنَهُ ، إِنْ شَاءَ ، وَحَصَلُوا عَلَى الدَّوْلَةِ دُونَ مِلَامَةِ مِنَ السُّلْطَانِ . فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ أَبَدًا ، يَنْمُونُ بِالْيَهُودِيِّ ، وَيَكْذِبُونَ عَلَيْهِ ، وَيَعْمُضُونَ^(١) إِلَى الْيَهُودِيِّ بِالْكَذْبِ عَلَى لِسَانِهِ ، حَتَّى تَغَيَّرَ أَبُوْنَا عَلَيْهِ وَتَغَيَّرَتْ لَهُ نَفْسُ الْيَهُودِيِّ ، مَعَ قَلَّةِ تِجَارِبِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ لِمُكَايِدِ النَّاسِ . فَعَمِلَ عَلَى قَتْلِهِ ؛ وَكَانَ يَتَحَدَّثُ بِذَلِكَ ، وَيَفْشِي سِرَّهُ إِلَى الْوُزَرَاءِ الرَّافِعِينَ إِلَيْهِ ؛ فَلَا هُوَ يَعِزُّمُ عَلَى قَتْلِهِ ، وَلَا هُوَ يَتَكَبَّرُ بِالْأَمْرِ ، إِلَى أَنْ صَحَّ ذَلِكَ عِنْدَ الْيَهُودِيِّ ، وَاعْتَزَمَ رَأْيُهُ عَلَى أَنْ يَسْبِقَهُ بِالْأَمْرِ ، وَرَأَى عِيَانًا تَغْيِيرَهُ عَلَيْهِ . وَكَانَ أَبُوْنَا ، لَمَّا هُمْ بِقَتْلِهِ ، وَأَعَدَّ لَذَلِكَ صَيْدَهُ ، فَفَكَّرَ فِي سَطْوَةِ أَبِيهِ ؛ فَكَفَّ .

- ١٠ وَكَانَ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ أَخٌ صَغِيرٌ اسْمُهُ مَاكْسَنُ ، عُثْنَا الشَّهِيدُ فِي وَقِيعَةِ بَطْلَانِيُوسَ . فَعَمِلَ الْخَنَازِيرُ رَأْيَهُ مَعَ مَشِيخَةِ الْيَهُودِ ، * وَأَخْبَرَهُمْ بِتَغْيِيرِ سَيْفِ ١٧ الدَّوْلَةِ عَلَيْهِ ؛ فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ وَأَدَهَاهُمْ رَأْيًا : « لَا نَطْمَعُ فِي الْفَلَاحِ بَعْدَ الشَّيْخِ ، وَلَا فِي سَيْفِ الدَّوْلَةِ ! وَلَكِنْ انْظُرْ لِنَفْسِكَ فِيمَنْ تُقِيمُ إِنْ مَاتَ رَئِيسُكَ : أَوْجَدْتَهُ ؟ وَتَحْيَلْ فِي سَقَى سَيْفِ الدَّوْلَةِ . وَهَذَا مَا كَسَنُ أَخُوهُ ١٥ غَمُولٌ ؛ فَإِنْ قَتَلْتَ أَنْتَ هَذَا ، وَوَلَّيْتَ هَذَا ، قَدَّمْتَ عِنْدَهُ يَدًا لَا يَنْسَاكَ عَلَيْهَا ! » فَسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ سَعْيَهُ . وَكَانَ مَتَمَكِّنًا بِذَلِكَ ، لِأَنَّ أَبَانَا كَانَ كَثِيرَ الشَّرْبِ مَعَهُ وَالتَّكْرَارِ عَلَيْهِ فِي مَنْزِلِهِ . فَشَرِبَ يَوْمًا عِنْدَهُ عَلَى عَادَتِهِ ؛ فَلَمْ يَخْرُجْ عَنْهُ حَتَّى قَذَفَ مَا كَانَ فِي جَوْفِهِ ، وَاسْتَلْقَى عَلَى الْأَرْضِ ؛ فَلَمْ يَسْتَطِعْ لِلشَّى إِلَى مَنْزِلِهِ إِلَّا عَنْ مَشَقَّةٍ ؛ وَلَبِثَ يَوْمَيْنِ يَمُودُ بِنَفْسِهِ ، حَتَّى مَاتَ — ٢٠ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ .

(١) أصل : « ريمضوا » .

ولقد سمعتُ كبيراً من خِصيان ياديس يقول : « أُرْسِلَ في سَيْفِ الدولة يوماً وقال لي : « انهضْ إلى أُمّهاتِي وَقُلْ لَهُنَّ^(١) إِنِّي اعْتَزَمْتُ عَلَى قَتْلِ الْيَهُودِيِّ . » يقول الْخَصِيُّ : « قَعَلْتُ لَهُ : « أَنَا لَا أَمْضِي بِهِذِهِ الرِّسَالَةَ ! فَإِنَّ الْخَبَرَ لَا تَحَالَةَ عِنْدَهُ ! لَوْ أَنَّكَ تَرِيدُ قَتْلَهُ ، مَا كَانَ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تُسَمِّعَنِي ذَلِكَ وَلَا أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ! » فَعَلْتُ أَنْ حَالَهُ تَوَوَّلُ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ . »

ومِمَّا أَعَانَ عَلَى الْفَسَادِ قَبْلَ ذَلِكَ أَنَّ أَبَانَا كَانَ مَعَ أُمّهاتِهِ ، اللَّائِي رَبَّيْنِ وَلَدَهُ الْبِعِزَّ أَخَانَا ، عَلَى ضِدِّهِ مِنَ الْأَمْنِ ، لِإِفْرَاقِهِنَّ الْمَالَ عَلَى ابْنِهِ طِفْلاً صَغِيراً وَمَتَّعَهُ هُوَ مِنْهُ . فَاحْتِاجَ إِلَى الْيَهُودِيِّ عَنِ الْمَالَ . وَكَانَ أُمّهاتُهُ يُطَالِبْنَهُ وَيَمْتَنِعْنَهُ عَنْ صَحْبَةِ الْيَهُودِيِّ ، حَتَّى شَعَرَا بِذَلِكَ ؛ وَاتَّفَقَ رَأْيُهُمَا عَلَى مُطَالَبَةِ النِّسَاءِ عِنْدَ الرَّئِيسِ ، وَتَجَرِيْمِهِنَّ بِسَرَقَةِ الْمَالَ وَإِرْسَالِهِ إِلَى الْبِلَادِ . فَلَمَّا وَقَفَ جَدُّنَا عَلَى الْمَقَالَةِ ، وَقَدْ وَقَعَتِ الْمَفَاسِدَةُ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ ابْنِهِنَّ ، صَارَ مَلُومًا مِنَ الْأَبِّ وَالنِّسَاءِ . وَتَحَيَّلَ النِّسَاءُ عَلَى أَنْ يَرَّأْنَ^(٢) أَنْفُسَهُنَّ مِمَّا قَدِّفْنَ^(٣) ١٧ (ب) بِهِ ؛ وَدَعَتِ الضَّرُورَةُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ أَنْ يَتَصَالَحَ مَعَ النِّسَاءِ لِرَجُوعِ أَبِيهِ مَعَهُنَّ ؛ وَرُدَّتِ الْقِصَّةُ فِي رَأْسِ الْيَهُودِيِّ . فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا زَادَهُ غَائِلَةً وَفُجُورًا ، وَجَرَى عَلَى يَدَيْهِ مَا قَدَّرَ اللَّهُ بِهِ لِنِهَايَةِ الْمُدَّةِ .

وَكَانَ فِي أَوَّلِ الْمَفَاسِدَةِ قَدْ احْتَبَسَ لَهُ بِكَثِيرٍ مِنْ جَبَايَةِ وَادِي آش ؛ وَشَكَاهُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ لِأَبِيهِ . فَتَحَيَّلَ الْخَزِيرُ عَلَى أَنْ دَعَا أَبَانَا إِلَى مَنْزِلِهِ لِشَرَابٍ ، حَتَّى سَكَرَ ؛ وَأَمَرَ بِخُرُوجِ بَنِيهِ وَعِيَالِهِ فِي ثِيَابِ الْحَزْنِ . فَهَالَ ٢٠ ذَلِكَ أَبَانَا لِمَا رَأَى مِنْ حَالِهِمْ وَبِكَاثِهِمْ ، إِلَى أَنْ قَالَ لَهُ : « هَلْ مَاتَ عِنْدَكَ

(١) أصل : « لهن » . (٢) أصل : « برين » .

أَحَدُهُ ؟ » فقال له : « مات عندى مالٌ كبيرٌ لا يمتسك عنك إلا بمَطْلٍ الرعيّة ! وهذا يومٌ طيّبٌ : فَأَنْسِ أَهْلِي بِكُتُبِ بَرَاءَةٍ تَبَرِّئُنِي بِهَا إِلَى أَنْ يَرِدَكَ مَالُكَ ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ وَجَسَتْ نَفُوسُهُمْ وَفَزَعُوا . فَأَتِمِّ إِحْسَانَكَ بِكُتُبِ الْبَرَاءَةِ ! » فَافْتَرَصَهُ فِيهَا ، وَكَتَبَهَا ؛ ثُمَّ ذَهَبَ بِهَا إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ لَهُ : « إِنَّمَا يَنْفَقُ مَالُهُ عَلَى الْوُزَرَاءِ وَالشَّرَابِ الْمُدْمِنِ ! وَهَذَا إِبْرَؤُهُ لِي : فَأَيْنَ شَكْوَاهُ ؟ » فَرَجَعَ مُلُومًا مِنَ الْأَبِ زَائِدًا ، وَصَارَ فِي خُسَارَةٍ مَعَ الْوَزِيرِ وَالنِّسَاءِ ، لِمَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ تَمَامِ الْمُدَّةِ . وَاللَّهُ يَنْفَعُهُ بِجَمِيلِ نَيْتِهِ وَصَفَاهُ مَذْهَبِهِ لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ !

٢١ - ما بلغ ابن نَعْرَآلَةَ مِنَ الْمَكَانِ الْأَرْفَعِ

- ١٠ فلما تَوَفَّى أَبُونَا ، وَكَانَتْ مِنْ أَكْبَرِ الرِّزَايَا لِلنَّاسِ ، لِمَا كَانُوا يَرْجُوهُ مِنَ الْعَدْلِ عَلَى يَدَيْهِ ، هَاجَ النَّاسُ بِأَمْرِهِ ، وَهَمُّوا بِقَتْلِ الْيَهُودِيِّ . وَكَانَتْ تِلْكَ مَقْدِمَاتٌ لِهَلَاكِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَوَقَّعُونَ مَعَاذَةَ الرَّئِيسِ . وَزَادَ فِي طَلْبِهِ لِأَوْلَادِ الْقَرَوِيِّ ، وَصَوَّرَ عِنْدَ الْمُظَفَّرِ أَنَّ بَنِيهِ زَيْنُوا لِابْنِهِ الْإِمَامَانَ عَلَى الْحَرِّ حَتَّى هَلَكَ . وَأَدْرَكَتْ لِذَلِكَ أَوْلَادَ الْقَرَوِيِّ مَنَحَةُ عَظِيمَةٌ مِنْ تَفْهِيمٍ عَنْ أَوْطَانِهِمْ ، وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ ، وَقَتَلَ بَعْضَ الْوُزَرَاءِ* الَّذِينَ كَانُوا (١) ١٨ حَوَالِيَّ أَيْنَا لِمَا أَتَاهُمُ بِهِ ؛ وَجَانِيَ الْقَضِيَّةَ لَا يُوبَهُ لَهُ . وَتَبَرَّكَ الْمَلِكُ الْيَهُودِيُّ بَعْدَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ ، وَسَعَى فِي إِقَامَةِ مَا كُنْشَ عَمَّنَا .
- وَكَبُرَتْ عِنْدَ ذَلِكَ سَنٌ جَدًّا ، وَأَخْلَدَ إِلَى الرَّاحَةِ ، وَزَهَدَ فِي طَلَبِ الْبِلَادِ لِكِبَرِ سَنِّهِ وَمَوْتَ ابْنِهِ ، وَأَلْقَى بِمَقَالِيدِهِ إِلَى الْيَهُودِيِّ فِي الْخَلْدَةِ عَنْهُ ؛
- ٢٠ فَتَمَكَّنَ بِمَا شَاءَ مِنَ الْأَمْرِ وَالتَّنْهَى .

٢٢ - استيلاء باديس على مالقة

وإنما كان طلبُ جدِّنا أكثرَهُ وسَعْيُهُ على أخذِ مالقة ؛ فإنه ، متى كان يأخذ شيئاً من معاقِل الأندلس ، يبلغه من المِيزُ بن باديس أنه يقول : « يَخاطِبُنِي صاحبُ غرناطة بأخذ الكُورِ والقرى ! أما أنه لو أخذ مثل قُرْبُبة ومالقة وما أشبههما من القواعد ، كُنَّا نبايع له في ذلك ! » ٥
فعله كلامه يحدِّث في خبرِ مالقة ، ولَّذِي كان يرى من اندبار سلاطينها ، وتوقُّعه على أن يأخذ البلدةَ مَنْ يَدْخُل عليه السَّاحِلَة منها . فلم يزل يماوِدُها مِنيْن^(١) بلا سامة ولا فترة ، حتى حصل عليها .

وبنى قَصَبَتها بنياناً لم يقدر على مثله أحدٌ في زمانه ، وأعدَّها عُدَّةً ١٥
للمِهْمَات ، وجعل فيها جميع ما ورث لابنه ، وزاد عليه ؛ وكان الذي يتوقَّع من كَلْب سلاطين الأندلس واتِّفاقهم عليه لذلك أن يتحصَّن فيها ما استطاع ، وإلا ، فيجوز منها إلى عِدوة بنى عمِّه بأهلِه وذِخائِرِه ومُدُّ أَخَذَها ، حلَّ عن نفسه .

ونازَعَهُ عليها ابنُ عِباد ، وأطاعَهُ أَهْلُها دون القَصَبَة ؛ فوجَّه إليها ١٥
عساكرَه ، وهزمه عليها . ورجعتْ إليه بعد اليأس منها . ولم يُلاقِ سلطانُ على مدينةَ مالاقِي هو على مالقة من طول الفِتْنِ ونفقة الأموال . فلما بلغ منها الناية من آماله ، حلَّ على نفسه ، وتمتَّع بِمُلْكِهِ . ومن ذلك دخلت عليه الدواخِلُ باستقامته إلى الوزراء وولاةِ البلاد ، على حسب ما تُقَصُّه بعد هذا .

(١) أصل : « مِنيْن » .

ولولا ما كان غَرَضُنَا وَصَفَ دولتنا خاصَّةً ، لَذَكَّرْنَا لَمَعًا مِنْ دَوْلِ بَنِي
 تُحْمُودِ فِي مَالَقَةٍ ، واختلالِ أُمُومٍ* واحدًا بعد واحد ، حتى تصيرَ الأُمُرُ إلى جدِّنا ١٨ (ب)
 — رحمه الله — ؛ لكن نقتصر على ذِكْرِ ما نحتاج إلى إيرادِه إن شاء الله .
 قَهْدَنَتِ الحال ، ونَأَتَّتِ السَّعَادَاتُ ، وامتَلَأَتِ بيوتُ الأُمُوالِ سِينِينَ^(١)
 ٥ لا يُسْمَعُ فيها بَقِئَةٌ ، ولا يُرَى معها تشعِيبٌ ، إلى أن اختَلَّتِ الأحوالُ
 بعد ذلك بما كان من نفاق اليهوديِّ — لعنه الله — ، وتَصَيَّرَ وادى آسِ
 وجميع أنظارها لابن صُمَادِح ، واستنَّسَادِ الرُّؤسَاءِ على البلاد ، حتَّى إمَّته
 لم يَبْقَ لَنَا أَكْثَرُ مِنْ غِرْنَاظَةٍ وَالْمُنَكَّبِ وَبَاغُهُ وَقَبْرَةٍ . ولما شاع عند
 الرعايا خبر موت الرئيس الأَجَلِّ — فَإِنَّهُ كَانَ مُحْتَجِّجًا أَبَدًا — خَلَّتِ المَعَاوِلُ
 ١٠ مِنَ الرِّجَالِ ، وافترَصَتْهَا الرعايا بِأَسْبَابٍ نَحْنُ نَذَكُرُهَا^(٢) إن شاء الله بعد هذا .

٢٣ — علاقات باديس ببنی صُمَادِحِ أَصْحَابِ المَرِيَّةِ

وَالأَوَّلَى أَنْ تَقْدِّمَ وَصَفَ ولايةِ ابنِ صُمَادِحِ لِلْمَرِيَّةِ ، وعَضَدَ جدُّنا —
 رحمه الله — لرياسته ، وإثباته له في مُلْكِهِ عند قيام ابن أبي عامر عليه ،
 طالبًا له لخلافه عليه ، وأبَادَى كَرِيمَةً سَلَفَتْ مِنَ المَظْفَرِ قَبْلَهُ ، لم يَسْبِقْهُ
 ١٥ إِلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ جَنَسِهِ ، ولم تَكُنْ مَكافَأَتُهُ على ذلك إِلَّا أَنْ افترَصَ بِلادَهُ
 وَقِيلَ دَوَاخِلُ إِلَى الإِفْرَنْجِ ، يَعِدُّهُمْ بِالْمَالِ الكَثِيرِ . وَأَجَابَهُ مُجَاهِدٌ لِمَا
 أَشَارَ بِهِ عَلَيْهِ ؛ وَعَمِلَتِ الكَلِمَةُ فِي نَفْسِهِ ؛ فَلَمَّا هَمَّ ابْنُ أَبِي عامِرٍ بِالرَّجُوعِ
 عَنْ لُرُقَةٍ يُرِيدُ المَرِيَّةَ ، تَأَخَّرَ عَنْهُ مُجَاهِدٌ ، وَتَيَّيَّنَ لِلنَّصُورِ قَمُودُهُ عَنْهُ
 وَخِذْلَانُهُ إِيَّاهُ ؛ وَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ . فَقَالَ مُجَاهِدٌ مُخَاطِبًا لَهُ وَلأَعْلَامِ قَوَّادِهِ :

(٢) أصل : « ذَاكِرُهَا » .

(١) أصل : « سِينِيَا » .

« يا قوم ، إن كنتم لا تعرفون البرّير ، ولا جرّبتُم حُرُوبَهُمْ ، فأنا ، والله ، أعلمُ بها أفدًاكم أن يكون بوارُكم على أيديهم . وأنتم [ستعلمون] أنّ رِقْنَةَ عشرين سنة خيرٌ من مُلافاة ساعةٍ واحِدَةٍ ؛ فإنّ فيها تتلف الدُّول ، ويتقل الملك ، ويستأصل الجمع . فليكنم بالتأني ! » قال له ابن أبي عامر : « جَبُنْتَ ! ارجِعْ إلى دانيّة ولا تفسد على الجيش ! » فأقلع على القيام مضضبا من قذفه .

وجزع الناس بزوال مُجاهِدٍ عنهم ؛ وأحرك* الإفرنج الطمع ، وطلبوا ١٩ (١) منه ما لا قدرة له به . وانصرف خاسئا .

وجمع المظفرُ رجاله وقال لهم : « كيف تَرَوْنَ هزيمة هذا السِّنْكَر من غير قتال ؟ » فأجابوه أن : « قد وُقِّت ! وأنتم ، ممسّرَ الملوك ، لم تُعْطُوا الولاية على الناس حتى اختاركم الله لها ، وجعل عقولكم أَجَلَ وأنفسَ من عقول الناس ؛ وبذلك فضّلتم من دونكم ! » ورجع المظفرُ غالبًا منصورًا . وصار أبو الأخوص [بن صُمَاحِج] طاعة له ؛ لا يوم شيئًا من كلّ ما بالمرية إلا وصار إليه ، ولا يأمر فيها بأمرٍ إلا وكان مِلْكَ يَدَيْهِ . وبقى الأمرُ على ذلك سنين . ١٥

وكانت قُرْطُبة في ذلك الزمان بمنزلة المَريّة ، إذ كان فيها ابنُ السَّقاء ، لا يتمتع على المظفر من رغبته فيها شيء ؛ إلى أن توفّي أبو الأخوص ، وترك ابنه هذا للتوفّي بالمرية — رحمه الله — عند ظهور الرابطين عليها ، وهو إذ ذاك صغير السن . فأرسل إلى المظفر يرغب إليه أن يكون له في المضد والحماية بالمرية التي كان عليها لأبيه ، وأنه أحسنُ طاعةً وأشدُّ انقيادًا من أبيه ؛ وسأله تجديد العهد معه والاجتماع به . فأجابه المظفر إلى كلّ ٢٠

ما سأل ، ووعدَه بالذِّبِّ عنه على أتمِّ ما كان عليه لأبيه ، واجتمع به .
وجدد معه عقدًا . وثبتتْ رياسته ، وقرَّ حاله قراره ، ودأبًا على ذلك
دَهْرًا طويلاً ، لا يُسمع فيها بفتنة ، ولا يكابد معها تشغيبٌ .

- وكان في ذلك [الوقت] خدامٌ دَوَلَتَا مُتَّفِقِينَ مع اليهوديِّ ، إذ
 ٥ كان وزيرُ السلطان وصاحبُ سرِّه : ففهم صنيعةً له قد استغنى معه ،
 ومنهم عدوُّ له ، مُؤازِرٌ في الظاهر استدفاعاً لشرِّه . فَاتَّسَقَتِ الأمور بذلك ،
 وأعان بعضهم بعضاً على خلعة السلطان ، وأنسوا إلى ثِقَتِهِ بهم وعَضِدِ
 بعضهم لبعض . ولما تهَيَّأت له الأمور ، وتوطَّدت الدولة ، بعد كلِّ ما ذكرنا
 من تلك الفِتَنِ ^(١) وغيرها ، وحصل على مدينة مائة بعد المكابدة واليأس * ١٩ (ر)
 ١٠ منها ، حلَّ عن نفسه ، ومال إلى الراحة التي يستريح إليها للوك ،
 وفوض أمرَه إلى الوزير والخَلْدَمَةِ .

٢٤ - وصول النَّبَايةِ إلى غرناطة .

حظوته ومنافسته لليهوديِّ

- وفي أمكنٍ ما كانت الدولة وأهَّجها ، قصدَه النَّبَايةُ ، عبدٌ كان للمُعْتَصِدِ
 ١٥ ابن عباد - رحمه الله - ؛ وكان من جُمْلَةِ من اتَّفَقَ على غدره مع ابنه
 للشهورِ خَبْرُهُ ؛ فأبى القَدَرُ الذي لم يكن عنه محيصٌ . واعتنى به جماعةٌ
 من كبار العبيد ، وطلبوا له من السلطان العَطَايا ؛ فأجابهم إلى ذلك تَعَمُّناً
 لسرورهم ^(٢) ، كَتَبَ يزيديداً في خِدْمَتِهِ ونصيحتِهِ ؛ وقالوا له : « قَصَدَكَ هذا
 الإنسان عن مفاسدةٍ لغيرِكَ وتعويلٍ عليك ؛ وقد أَمْلَكَ ؛ فما تصنع فيه

(١) أصل : « العتین » . (٢) أصل : « لساتم » .

إِنَّمَا تُسَدِّدُهُ إِلَيْنَا . » ودخل غرناطة في أَسْعَدِ وقت له ، وأشغِبِهِ على الدولة .
وسار في أوَّل أمره مع الخُدَمة بأَجَل سيرة وتواضع لهم ، حتى حددوا
طريقته ، ونفعوه عند السلطان ، إلى أن استعمله في بعض خِدْمته وصرَّفه في
ولاية بعض عسكره . وكان لَطَلَبِ النَّارِ من بني عَبَّاد ، قد اكتفى في فِتْنَةٍ
مَالَّةٍ واستمال أقواماً من الجُند ؛ وكان فيها مُتَصَرِّفاً بين يدي مُقَاتِلِ بْنِ
يُحْيَى قَائِدِهَا . ولم يزل مُقَاتِلُ المَذْكُورُ ، متى خَرَجَتْ مُغِيرَةٌ إلى بَلَدِ ابْنِ
عَبَّاد ، يُعَلِّمُ المُظَفَّرَ بكفاية الناية للذكور فيها ، حتى كاد يجعل له الحسن
كَلَّةً ، إلى أن ورده كتابُ السلطان مشتركاً بينهما ، وصار قائداً معه في
البلدة . وزاد جِدُّهُ ، ونَمَا خَبَرُهُ ، وتَضَاعَفَ إِحْسَانُ المُظَفَّرِ إِلَيْهِ . وكان ،
١٠ متى ما أتى مَالَّةً ، نزل السلطان في داره ، وشرب معه ، مع تنويه به
والتزَيُّدُ له من ذلك مع الأيام .

وكان ، مع تقريب السلطان له مَتَى انفَرَدَ به أو افترَصَه على الخمر ،
يُحَرِّجُ عنده اليهوديَّ ، ويقول له : « قَدْ أَكَلَّ مَالَكَ ، وَتَمَلَّكَ بِأَعْظَمِ
من مَالِكَ ، وَبَنَى شَيْئاً من قَصْرِكَ ! فَاللهُ اللهُ في إِزَاحَتِهِ والتَّجَبُّبِ إلى
المُسلِّينَ بِقَعْدِهِ ! » والمُظَفَّرُ في هَذَا كُلِّهِ يَعِدُّهُ ويقول له : « لَا بُدَّ لِي
١٥ من ذلك ؛ وَأَوَّكَلْتُكَ * على قَتْلِهِ ! » فَرُبَّمَا لَفَظَ بِذَلِكَ بِسَمْعٍ من لَا يُؤْبَهُ

٢٠ (١) له من عبيده والمُتَصَرِّفينَ بين يديه ؛ فيقتلون ذلك على المقام إلى اليهوديَّ
ليَصِلَهُمْ عليها . فلا تزداد نفسُ الخنزير إلا حِمَاقَةً ومُنَافَرَةً ، ويكاد أن
يموت هماً وحشاً ، مع حسده له على اللزلة التي خُصَّ بها دُونَهُ ؛ ورام
٣٠ مطالبته عند السلطان بكلِّ مرام ؛ فلم يقبل منه . فلما رأى أن منزلته
لا تزداد إلا ترفيعاً ، وخاف على نفسه أن يحمل السلطان على هلكته ،

انقطع رجاءه من كل وجهٍ وقال : « إِنَّمَا اسْتَهْزَأُواَنَا بِالنَّاسِ مِنْ أَجْلِ عِزِّ
السلطان ! وَأَمِنَّاهُمْ عَلَى أَنْفُسِنَا بِحِمَايَتِهِ وَعِنَايَتِهِ . وَأَمَّا الْآنَ ، فَقَدْ انْقَطَعَ
الرجاء : لَا سُلْطَانَ نَأْمَنُهُ ^(١) ، وَفَرِينَ سُوءِ يَطْلُبُنَا عَنْدهُ ، وَعَامَّةٌ تَرِيدُ
هَلَاكَنَا ، وَنَحْنُ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ! »

٢٥ — إجلاء الأمير ماكسن بن باديس

وكان [اليهوديُّ] قد ألقى يَدَهُ فِي عِمْنَا مَاكْسَنَ ، رَجَاءً مِنْهُ أَنْ
يُسَدِّدَهُ وَيَأْمُرَهُ بِالْمُدَارَاةِ ، إِلَى أَنْ قَالَ لَهُ مُوَاجَهَةً : « أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا
قَتَلْتَ أَخِي ؟ » فَعَمَلَتْ فِي نَفْسِ الْيَهُودِيِّ . وَكَانَ مَاكْسَنُ مَعَ هَذَا كُلِّهِ
سَيِّئُ الطَّرِيقَةِ ، قَلِيلُ الْبِرِّ ، حَشِينُ الْكَلَامِ ، يَمِيدُ النَّاسَ بِالشَّرِّ ، حَتَّى
كَرِهَهُ أَهْلُ دَوْلَةِ أَبِيهِ وَأَبْغَضُوهُ . وَكَثُرَ عَلَيْهِ الطَّلَبُ عِنْدَ أَبِيهِ .

وَكَانَتْ أُمُّهُ تَتَرَكُّ مَعَامَلَةَ الْوَزِيرِ الَّذِي أَلْقَى يَدَهُ فِيهِ ، وَتَمِيلُ إِلَى خَالِهِ :
يَهُودِيٍّ يُعْرَفُ بِأَبِي الرِّيعِ بْنِ الْمَاطُونِيِّ ، وَكَانَ قَابِضَ الْوَجِيهَةِ ؛ فَخَاطَبَهُ
أَبَدًا ، وَطَلَبُ مِنْهُ مَالًا بِاسْمِ السَّلَفِ . فَغَارَ الْوَزِيرُ لِنَظَرِهِ ، وَعَمَلَ عَلَى طَلْبِهِ
وَطَلَبِ أُمِّهِ وَحَاشِيَتِهِ ، وَافْتَرَى عَلَيْهِمْ عِنْدَ السُّلْطَانِ . وَشَهِدَ لَهُ عَلَى ذَلِكَ
جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ ، فَمَنْ نَقَمُوا عَلَى مَاكْسَنَ قَبْلَ ذَلِكَ مَا قَدَّمْنَا
ذِكْرَهُ . وَأَغْرَى بِهِمْ حَتَّى جَعَلَتْهُ الْأَثَنَةُ مِنْ مَكْرِهِ مَا ثَقُلَ إِلَيْهِ أَنْ يَأْمُرَ
بِقَتْلِ أُمِّهِ وَدَائِيَتِهِ وَبَعْضٍ مِنْ ائِمَّتَيْهِ . وَقَتَلَ الْوَزِيرُ خَالَهُ غَدْرًا* فِي مَنْزِلِهِ ٢٠ (د)
عَلَى الشَّرَابِ خِلَافِهِ عَلَيْهِ فِي هَذَا وَغَيْرِهِ ؛ وَاتَّقَى مِنْهُ نَصِيحَةَ السُّلْطَانِ ،

(١) أصل : « نَأْمَنُهُ » .

- وأعطاه على ذلك مالا جسيما ، لئلا يثرب عليه قتله . فقبل السلطان ذلك منه ، وودَّ أن لو قتلَ كلَّ يومٍ يهوديًا ، فيُغرمَ عليه مالا .
- ثمَّ أمر بعد ذلك بنفى ولده . وكان من آكدِ الأسباب في نفيه أن خرج السلطان يوما لعرّض الأجناد ، وقتَ الفتنه مع ابن صُمادح ؛ فالتدب إليه من شيوخهم من قال له : « ما ينبغي لك أن تُقدّم علينا العبيد وغيرهم ، وتترك مثل هذا الابن ! أرسله معنا ، وتبّعه في كلِّ مُلّةٍ ! »
- يعنى ما كُنْ . فعزَّ ذلك على أبيه ، مع سخطه عليه لما كان يرى منه وقيل إليه عنه ، وخاف أن يكون وراء هذا الكلام فعلٌ بأن يخلوه ويقدموا ابنه . وجزع اليهودى لذلك جزعا شديدا وقال : « ما حسبتُ نفسى في ذلك اليوم إلا مقتولا ! » فأعلم السلطان بهذه الوجوه ؛ وأمر على المقام بنفيه عن البلد ، ووجهه معه من عبيده من يُخرجه عن نظره كُلِّه . ووصى اليهودى — لعنه الله — ذلك ^(١) العبد أن يصلَّ معه إلى موضع سماه بحيث ينبغي أمره ، فيضرب فيه عنقه .
- وكان أخونا المعزُّ قد ربّاه جدّه ، ونال معه الكرائم ، وأحبّوه في حرمة أبيه . واتفق رأى الجميع مع اليهودى على قتل ما كُنْ وتولية المعزِّ ، حذرا على أنفسهم من ما كُنْ أن يثور عليهم ويماقبهم بمحبّتهم في [ابن] أخيه وترّيبتهم له . فكان من ذلك ما أمْلوه .
- وخرج عمنا على أسوأ حال ، مذمورا ، خائفا ، بعضُهم يُشير بقتله ، وبعضُهم يأبى إلا إزاحته عن النّظر كُلِّه ، حتّى صار يبعض الطريق .
- وانحلَّ عن عمومه بهلاك اليهودى ، على ما نذكره بعد هذا .

(١) أصل : « لللك » .

الفصل الرابع

إمارة باديس بن جبوس

(٢) من موت ابن نَعْرَالَةَ إلى نهايتها

٣٦ — مؤامرة الوزير اليهودي ابن نَعْرَالَةَ

ثورة صنهاجة عليه وقتله

وإنَّ الحَنَزِيرَ — لعنه الله — لا رأى طغيان النساء ، وكلُّ فرقة منهنَّ
تُرِيدُ ولايةَ مَنْ تُرَبِّيهِ من أبناء السلطان ، ورأى تغيُّرَ مولاهُ* عليه وإيمانَ ١٢١
الناية في مُطالَبَتِهِ والازدياد في جاهِهِ ، لم يَجِدْ في الأرض مَهْرَبًا ، ولا
وجد إلى التخلُّص سبيلًا ، وشاورَ في ذلك مَشِيخَتَهُ من ذوى الرأى ؛ فقال
بعضهم : « انْجُ بنفسك ، وقَدِّمْ جُلَّ مالِكَ إلى أَىِّ البلاد أَحَبَّبتَ ،
تَسْتَوْظِنُهَا غَنِيًّا أَمِنًا ! » فقال : « ذَلِكَ مُسَكِّنٌ لَوْلا أَنَّ الرَّئيسَ الأَجَلَ ، إنَّ
أُرسل فيَّ إلى صاحب تلك الجملة ، يقول : « ذهب وزيرى بأموالى : إِمَّا أن
تصرفه علىَّ ، وإِمَّا أن أَطانِكَ ! » أترى أَنه يبيع الرئيس عَنِّي ؟ هذا ١٠
ما لا يجوز إلَّا أن أَصيرَ إليه من البلاد بحيث تقع الفتنة بينهما ، ونأمن
على نفسى عند الذى نصير إليه ولا يَمُكِنُهُ إِسْلاعى . وأنا قد وضعتُ في

يده بلادًا ومجدًا كبيرًا ! » فَاتَّقَى رَأْيَهُمْ عَلَى مُخَاطَبَةِ ابْنِ صُمَادِحَ ، وَأَنَّهُ الْأَوَّلَى لَجِبَتْهُ وَقَرَبَهُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِيهِ .

وَأَخْبَرَنِي رَسُولُ ابْنِ صُمَادِحَ ابْنُ أَرْقَمَ ، وَكَانَ قَدْ تَخَيَّرُوهُ لِلرَّسَالَةِ ^(١) حِينَئِذٍ ،

قَالَ : حَضَرْتُ يَوْمًا مَعَ الْمُظَفَّرِ — رَحِمَهُ اللَّهُ — وَقَدْ خَرَجَ إِلَى بَعْضِ مَنَازِلِهِاتِهِ

وَالنَّائِيَةِ مَعَهُ ، وَالْيَهُودِيُّ وَرَاءَهُ ، حَتَّى بَصَرَ النَّائِيَةَ بِحَكِيمٍ كَانَ لِلرَّوْزَرِ ، يَهُودِيًّا ؛

فَأَمَرَ يَأْهِاتِهِ وَإِرْجَالَهُ عَنْ دَابَّتِهِ بِحَضْرَةِ الرَّئِيسِ ، وَتَوَقَّحَ فِي ذَلِكَ ، وَأَبْلَغَ فِي

شَتْمِ الْيَهُودِيِّ ؛ فَاسْتَعْظَمَ الْيَهُودِيُّ ذَلِكَ وَقَالَ لِابْنِ أَرْقَمَ : « حَسْبُكَ هَذِهِ

الْإِهَانَةُ ، وَلَا صَبْرَ عَلَيْهَا ! فَإِنْ كُنْتُمْ تَسْتَطِيعُونَ لِي عَلَى شَيْءٍ ، وَإِلَّا فَلَا بَدْءَ

مِنَ التَّرَامِيِّ عَلَى غَيْرِكُمْ ! » فَقَالَ لَهُ ابْنُ أَرْقَمَ : « أَنْتَ جَدِيرٌ بِالتَّثَبُّتِ فِي هَذَا

الْأَمْرِ ! وَأَيُّ ضَرُورَةٍ دَفَعْتَكَ إِلَيْنَا وَبِيَدِكَ الرِّعَايَا ، وَإِلَيْكَ تُجْبَى الْأُمُورُ ؟

وَالسُّلْطَانُ لَمْ يَغَيِّرْ عَلَيْكَ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ هُمَزَاتِ هَذَا الْمُطَالِبِ ! فَاحْتَلَّ

بِأَنْ تُصَايِرَ الْأُمُورَ إِلَى أَنْ يَمُوتَ الشَّيْخُ ، لَأَسِيًّا أَنَّهُ قَدْ أَسَنَّ ؛ وَتَلَقَّى يَدَكَ

فِي حَفِيدِهِ الْمُعَزِّ ، وَتَبَقَّى حَالُكَ مَعَهُ حَسَبَ مَا كَانَتْ مَعَ جَدِّهِ ؛ وَهُوَ أَقْرَبُ

إِلَى السَّلَامَةِ ! » فَقَالَ لَهُ الْيَهُودِيُّ : « كُنْتُ أَفْعَلُ ذَلِكَ لَوْلَا أَنَّ الْمُعَزَّ صَغِيرُ

السِّنِّ * ، وَلَهُ أُمَّهَاتٌ وَطَبَقَاتٌ جَمَّةٌ مِنَ النِّسَاءِ وَالْحَاشِيَةِ . فَكَيْفَ نَرْجُو مَعَهُمَ ۚ (ب) ١٥

الْفَلَاحُ ؟ وَالْحَالُ إِذْ ذَاكَ تَكُونُ عَلَى أَشَدِّ لَافِتٍ أَهْوَاهِهِمْ . وَقَدْ صَحَّ عِنْدِي

أَنْ الصَّبِيَّ يَحْتَدُّ عَلَى مَا قَالَهُ النَّاسُ مِنْ سَقَى أَبِيهِ . وَقَدْ أَدْرَتُ هَذِهِ الْوُجُوهُ ؛

فَلَمْ يَتَّجِهْ لِي مِنْهَا أَمْتَلُ مِنَ التَّرَامِيِّ عَلَى الْمُعْتَصِمِ ! » فَقَالَ ابْنُ أَرْقَمَ : « دَخَلْتُ

عَلَى الْمُظَفَّرِ ، وَأَلْقَيْتُ إِلَيْهِ مِنَ الْكَلَامِ رُمُوزًا ، وَقُلْتُ لَهُ : « أَيْدِكَ اللَّهُ !

تَبْقَظْ ! فَإِنَّكَ لَمْ تَطْعَنْ فِي السِّنِّ ، وَلَا بَلَفْتَ فِيهِ مَبْلَغًا يُولَدُ عَلَيْكَ الْغَفْلَةُ ۚ ٢٠

عن دَوْلَتِكَ ! » رجاء مَنِ أَنْ يَسْتَفِيهَتِي عن الكلام وَأَقْصَ عَلَيْهِ بَعْضَهُ .
 فلما اليهودى وقال له : « انهضْ إلى ابن أَرْقَمَ وقلْ له : « لأى وجهٍ
 قال لى الآن : تَبْقَظْ ! » واستَفِيهَتْهُ عن ذلك ! » فجاءنى اليهودى وأخبرنى
 بالفضية . فدهشتُ لها ومِتُّ ، ولم أَجِدْ جواباً . فأتتهنى الخنزيرُ ، وخطب
 بأمرى المعتصم وأشار عليه أن يُعَمِدَنى عن الرسالة ويوجِّه فيها من يثقهُ ؛ فسفر
 فيها رَضِيصَةً وأمرَهُ بنسج الأمر معه ، وكيف الحيلة فى تصيُّر الدولة إليه ،
 وغرناطة معدن الجيش ، وفيها من صِنهاجة من لا يجوز هذا الأمر عليهم ؟ وقال
 له : « لا تُدْخِلْ نفسك ولِلْعُتَمِمْ فيما لا يَمُتُّ وتَفْتَضِحُ فيه مع المظفر ،
 وهو صاحب الأموال والقدرة على الفتنة ! وتخرى معه ، وتكون سبياً إلى
 ١٠ هلاك نفسك والفساد عليه ! » فرأى الخنزير من رأيه أن يُخْرِجَ من البلاد
 كلَّ من يتوقَّع قيامه .

وتخيَّرَ من كبار صِنهاجة وغيرهم من العبيد ، الذين يخشى معرفتهم ،
 أقواماً ، وأشار على السلطان بإرسالهم إلى المعاقِلِ المِهْمَةِ ، وصَكَّكَ لهم بها ،
 وقال لهم فى سرِّ الأمر : « أنتم إخوانى ، وقد أُخِيَّاتُمُ معى ، ورأيتُمونى !
 ١٥ وأرى من دولة هذا السلطان ما ينبغى لكم إنكارُهُ بأن يقدِّم عليكم من
 ليس منكم ولا شأنه شأنكم ، وتبقى ولايته عاراً عليكم وشناراً ما بقى الدهرُ ؛
 وقد * نصحت السلطان فى أمره ؛ فلم يقبل مَنِ ، ولا يُقدَّر على مُضَادَّتِهِ ؛ ٢٢)
 والآن أتوقَّعُ على هذه البلاد الشريفة والمعاقِلِ الفارهة أن يليها من قِبَلِ الناية
 مَنْ يشقى به الجميع ، ولا تقدر معهم على إمساك الدولة ، وتكون لهم الصولة
 ٢٠ علينا ، ثمَّ لا مَهْرَبَ إلَّا إلى يديه ، فإذا أَمْسَكْنَا معاقِلَنَا وكان بنو عَمِّكُمْ
 بالحضرة ، يتجسَّروا على تَبْدِيدِكُمْ ، وكان أمره بعد ذلك هيناً ، متى أراد التغيير ،

قتلناه ، ومتى ما سخط السلطانُ على أحدنا وأمر بتفنيه على يديه ، لَجَأُ إلى مَعْقِلِ صاحبه .

قبل القومُ قَوْلَه ، مع شرهِهم إلى ولاية البلاد ، وبادروا إلى ذلك . فأخرج يحيى بن يفران إلى مدينة المنكب ، ومُسْكَنَ بن حبوس المُرَّالِيَّ إلى جِيَّان ، وَمَنْ سِوَاهُم إلى غيرها من القواعد . وزَيْنُ للسلطان أن ذلك من وَجْهِ النَّظَرِ له ، وأنه لا يحصى القواعد إِلَّا كِبَارُ الرجال ، وأن للعزولين قد صَحَّ عنده غفلتهم وتضييعهم ، إذ كان لا يسمع من أحد إلا قوله في هذه المَشَايِه ، لِثِقَتِهِ به .

وكتب [اليهوديُّ] إلى ابن صُمَادِحٍ يُخْبِرُهُ بخروج القومِ القَوَّاءِ من المدينة ، وأنه لم يَبْقَ فيها إِلَّا من لا يُوبَهُ له ، ويحصدهم سَيْفُهُ إذا دَخَلَهَا ، وأنه مَهَيَّيٌّ لِفَتْحِ أبوابها متى جسر وطرقها ؛ وَضِيعُ النَّظَرِ في سائر الحصون غير القواعد ، وأَهْمَلُ ما يَرْتَقِبُونَ به من الرجال والعُدَدِ على وجه الغفلة ، حتى خَلَّتْ .

والمُظَفَّرُ ، في هذا كُلِّه ، لا خَبَرَ عنده إِلَّا الإقبال على الشرب والدَّعة . فلما خَلَّتِ المعاقل ، وصَحَّ عند أهلها ، يَأْهَلُمُ واحتجابِ السلطان عنهم ، أنه قد مات لا حَالَةَ ، تصايحت بعضها لبعض ، وَخَلَّتْ بأقطارها ؛ وافتترصها رجالُ ابن صُمَادِحٍ ، وصاروا فيها حتى لم يَبْقَ منها إِلَّا حِصْنُ قَبْرِيَّةٍ ، على مقربة من غرناطة في طريق وادي آش .

وأرسل اليهوديُّ على اللقَامِ لابن صُمَادِحٍ ، يلحُّ* عليه في الإقبال إلى ٢٢(ب)

٢٠ المدينة ، وأن لا مانعَ يمنعه . فالتوى عن ذلك ابن صُمَادِحٍ ، وجزع من الجسر على مثل غرناطة ، إلى أن اتَّسَعَ اتَّخَرَقُ وتَمَادَى التفاق ؛ وصار

اليهودي مُتَنَفِّلاً من داره إلى القَصْبَةِ حِذْرًا من العامة ، حتى يَمَّ ما أُمِّل ؛
فأنكر ذلك الناسُ ، مع بُنْيَانِهِ لِحِصْنِ الحُمْرَاءِ على أَنَّهُ ، إذا دخل ابن
صُمَايْحِ الْبَلَدِ ، صار هو بأَهْلِهِ إِلَيْهَا ، إلى أن تتوطَّد الحالُ . فَأَنْتِ العامةُ
والخاصَّةُ لمكر اليهود وما اشتهروا به من تغيير الأحوال ، ورأوا من الرُّتَبِ
خِلَافَ ما عهدوه .

وَالَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ مِنْ هَلَاكِهِمْ فِي يَوْمِ السَّبْتِ لِعَشْرِ خَلَوْنٍ مِنْ صَفَرٍ
[من سنة ٤٥٩] ، اسْتَعْمَلَ الْيَهُودِيُّ الشَّرَابَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ أَقْوَامٍ مِنْ
عَبِيدِ الْمُظَفَّرِ ، كَانُوا قَدْ عَاقَدُوهُ وَاتَّفَقُوا مَعَهُ ، وَبَعْضُهُمْ فِي السَّرِّ يَشْنَاهُ ؛
فَأَعْلَمَهُمْ بِأَمْرِ ابْنِ صُمَايْحِ ، وَأَنَّهُ وَارِدٌ عَلَيْهِمْ وَمَسْوُوعٌ لَمْ مِنْ الْقُرَى فَلَانَةَ
وَقُلَانَةَ مِنْ فَخْصِ غِرْنَاطَةِ ؛ فَاتَّذَبَّ إِلَيْهِ أَحَدُهُمْ مِمَّنْ كَانَ يَكْمُنُ بَغْضَهُ ،
وَقَالَ لَهُ : « قَدْ عَلِمْنَا هَذَا ! فَأَخْبِرْنَا عَنْ تَسْوِيغِكَ هَذِهِ الْإِنْزَالَاتِ ،
أَهْوَى مَوْلَانَا حَيٌّ أَوْ مَيِّتٌ ؟ » فَرَدَّ عَلَيْهِ بَعْضُ حَاشِيَةِ الْيَهُودِيِّ ، وَوَجَّهَهُ عَلَى
قَوْلِهِ ؛ فَأَنْفَ ذَلِكَ الْعَبْدُ وَخَرَجَ فَارًّا عَلَى وَجْهِهِ [وَهُوَ] سَكَرَانٌ ، يَصِيحُ بِالنَّاسِ
وَيَقُولُ : « يَا مَعْشَرَ مَنْ سَمِعَ بِالْمُظَفَّرِ قَدْ غَلَرَهُ الْيَهُودِيُّ ! وَهَذَا ابْنُ صُمَايْحِ
دَاخِلٌ فِي الْبَلَدَةِ ! » فَتَسَامَعُ لَذَلِكَ النَّاسُ أَجْعَ خَاصَّتُهُمْ وَعَامَّتُهُمْ ، وَأَتَوْا
عَازِمِينَ عَلَى قَتْلِ الْيَهُودِيِّ . فَتَحَيَّلَ عَلَى الْمُظَفَّرِ حَتَّى أَخْرَجَهُ إِلَيْهِمْ ، وَقَالَ :
« هَذَا سُلْطَانُكُمْ حَيٌّ ! » وَرَامَ الرَّئِيسُ تَسْكِينَهُمْ ؛ فَلَمْ يَقْدِرْ ؛ وَاتَّسَعَ اتَّخَرَقُ
عَلَى الرَّاقِعِ . وَهَرَبَ الْيَهُودِيُّ بِنَفْسِهِ إِلَى دَاخِلِ الْقَصْرِ ، وَاتَّبَعَتْهُ الْعَامَّةُ حَتَّى
ظَفَرُوا بِهِ وَقَتَلُوهُ . وَأَحَالُوا السِّيفَ عَلَى كُلِّ يَهُودِيٍّ بِالْبَلَدَةِ ، وَحَصَلُوا عَلَى
عِظَائِمٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ .

وَاسْتَأْصَدَتْ إِذْ ذَاكَ صِيْنَهَاجَةَ ، وَطَفَرُوا بِمَا صَنَعُوهُ عَلَى الرَّئِيسِ ، مَعَ الْفِتْنَةِ

المُظَفَّرُ* عليه من كل قطر . وكانوا هم الوزراء ومُدَبِّرِي^(١) الدولة ؛ ٢٣ (١)
والمُظَفَّرُ من هذا كله تحت خوفٍ وذلٍّ ، قد حقد عليهم ما صنعوه
بوزيره ، من غير أن يَعْلَمَ بشيء من دواخله ، ولا صدق قولهم عليه ،
وسائر أمره معهم بالدارة والصبر ، إلى أن تفتحت له البلاد ، ورجعت
طاعته إليه بما تَحَنُّنٌ نذكره^(٢) بعد هذا إن شاء الله .

ولما مضى مُسَكِّنٌ إلى جَيَّان ، على ما قدَّمنا ذِكْرَهُ ، أَلْقَى في طريقه
نَحْمًا ما كَسَنَ ، يحمله الصَّيْلُ ؛ فَاسْتَنْقَذَهُ ، ومشى به إلى جَيَّان ، وقال :
« لا فائدة أكبر من هذا : ابن الرئيس يكون معي حُجَّةً على ما أريدُه
من مُلْكِ جَيَّان أو غيرها ؟ وسينقاد إليه الناس ، ونحصل على عظامهم ا »
١٠ كالذي كان . فَوَلَّى جَيَّانَ بِاسْمِهِ ، وصار حاكمها مع بني عمِّه . وحصل
إذذاك من أموال اليهود فيها على ما لا يتحصَّل . وبقي نائراً على أفضل حال .

٢٧ — الحركة الموقفة التي قام بها باديس لانتزاع وادي آش

من أيدي ابن صُمَادِح

وإنَّ المُظَفَّرَ ، لما رأى ما نزل به من كَلْبِ العدوِّ وطَمَعِ الناس فيه ،
١٥ وما حلَّ به من كلِّ وَجْهِ ، جمع الناس وقال لهم : « ما تَرَوْنَ في أمرِ
وادي آش ، وتصيرها إلى ابن صُمَادِح ، واستحواذِهِ على أنظارنا ؟ »
فأجابه قوادُّه ووجهُ رجاله أن : « لا دواء لهذا ، إلَّا أن تبذل الأموال ،
وتترك الدَّعَاة ، وتبشِّر الأمر بنفسك ! » فقال لهم : « مَثَلِي ومَثَلُ ابن
صُمَادِح كَمَثَلِ القُبْعَةِ التي كان يلزأها عَشْرُ إوزة ؛ فأعجبها بيضها ، فقالت :

(١) أصل : « مدبرين » . (٢) أصل : « ذاكره » .

« لأحضنّ هذا البيض ، يكون خيراً من متاعى ! » فلما رامت ذلك ،
 هَجَزَتْ وقَصُرَتْ جَنَاحَاهَا عن التحضين ؛ فلما رجعت إلى متاعها ، وَجَدَتْهَا
 قد فَسَدَتْ . وكذلك ابن صَادِح : تَمَدَّى على بلدى ، وسيخرج عنه
 وعن كثير مما كان قديماً بيده ! « قَوَّيْتُ نفوسُ الناس ، وادَّرعَ الحَزْمُ
 والعزمُ ؛ وتَأَهَّبَ للسَّير ، واجتمعت إليه الأجناد ، [وفرَّق] فيهم العطايا .
 ونازَلَ وادى آش حتى حاصَرَهَا .

وكان في أوَّلِ الفتنَةِ ، للذى * رأى من قيام رعيته وخشى خلاف ٢٣ (ر)
 الجميع ، قد وَجَّهَ لابن ذى النُّون ، صاحبِ طَلَيْطَلَةَ ، يملهُ بما دهمه من
 الأمر ، ويسأله صِلَةَ يده به ، وأَنَّهُ ما انصرف إليه من البلاد أعطاهُ
 منها ما أَحَبَّ واختار ؛ فسارَعَ ابن ذى النون إلى ذلك ، ولحق به ،
 وهو على وادى آش قد حاصَرَهَا وَقَرَّبَ مَرَأَهَا ؛ واجتمع معه إلى أَجَلٍ
 هيئة وأتمَّ رتبة . وفي قَصَبَةِ وادى آش ذلك الوقتَ وزراء صاحبِ العَرِيَّةِ
 وأكابرُ رجاله . فاشتدَّ عليها الحربُ ، وكثُرَ الإِثاقُ ، حتى إِنَّه انتهت
 النفقة عليها ، على ما رأيته مكتوباً بخطِّ يد جدِّى — رحمه الله — سِتَّةَ
 بيوت من اللال دَرَاهِمَ ثُلُثِيَّةً ، البيتُ منها ألفُ دينارٍ ثُلُثِيَّةٍ .
 وصار ذلك مَثَلًا فى الناس لصبره وكثرة إيثاقه .

فلما رأى مَنْ بالقَصَبَةِ من أكابر أهل العَرِيَّةِ ما دهمهم ، وأَنَّهُ لا مَلْجَأَ
 لهم إِلاَّ الحربَ أو السَّيفَ ، ولم يجدوا إلى ذلك سبيلاً ، تَحَيَّلُوا وأرسلوا إلى
 ابن ذى النون ، وهُمُ على الملكة ، يملونه بما هم فيه وقَطَعَ رجالهم عن إمداد
 صاحبهم ، ويسألونه أن يتوسَّطَ أمرهم مع المُظَفَّر ، ويأخذَ لهم التَّقْوَى ،
 ويخرجُهم على سلامة ؛ ووعدوه على ذلك ، إن هو استنقذهم ، أن يُصَيِّرُوا

المرية ملكه . وكان ابن ذى النون من الطمع في غاية لم يفتحه إليها ملك ؛
فطمع في قولم ذلك ، وترامى على جدنا ، ورغب إليه ؛ فأسمعه ، حتى
خرجوا وأخلوا له القصة . وثقفها بحجة رجاله .

واستنجز ابن ذى النون وعده ، وقال : « إن الذى أريد من هذه
البلاد بسطة . » فلم يكن بُدَّ للمظفر من إنجاز وعده ، وأمر بإخلاها له .
وتفتحت للحاجب بلاد كثيرة أربت على التى انصرفت إليه .

وأرسل إليه ابن صمدح بعد ذلك ، يسأله القفو والإغضاء على ما كان
منه ، وأنه لا يتعرض من ذلك شيء لولا اليهودى ، وخوفاً ، إن * أهل (٢٤) (١)
البلاد ، أن يتعدى عليه من يخشى داخلته . وترامى على جدنا وأتاه بنفسه
ليجتمع معه على ذلك ، ويمدّد عقدًا . ففعل وقبل اعتذاره . ويحكى أنه ،
عند اجتماعه به ، كان أول ما خاطبه به : ﴿ يا أبانا ! استغفر لنا
ذنوبنا ! إنا كنّا خاطئين ﴾ (٢) فأجابه المظفر على البديه : ﴿ لا تثريب
عليكم اليوم ! يغفر الله لكم ﴾ (٣) .

٢٨ — الحركة الموقفة التى قام بها باديس لانتزاع مالقة

من يد ابن عبّاد

١٥

ولما صار إلى المظفر جميع بلاده ، وتوطدت له الدولة ، وكان قبل
أخذه لوادى آش قد أخذ مالقة ، وقدمها قبل شغله كله ؛ وكان قائد
عسكره إليها تلك السفارة يحيى بن يفران ؛ وكان الرجل من أكابر تلكاتة

(١) سورة يوسف : ٩٧ .

(٢) سورة يوسف : ٩٢ .

وكان مُطاعاً في قومه ، قد شقى جدُّنا به طول مُدَّة الفتنة . ولما استأَسَدَ صِنْهاجَة ، على ما قدَّمنا ذكره بعد قتل اليهوديِّ ، ترأَّسَ فيهم يحيى المذكور ، ونال من الرئيس كثيراً في ماله وعرضه ؛ ففقد ذلك عليه ؛ وكان عازماً على أنه ، إذا انصرف من فتح مالقة ، أن ينظر في خلمه ، ويشور عليه مع بني عمه . وكان الخبر قد طرأ إلى جدِّنا . ففرض الله تعالى أن مات يحيى المذكور في تلك السفرة مقتولاً في الواقعة . فقال عند ذلك المظفر : « أتدنا في يوم واحد فرحان : أولهما موتُ يحيى ، والأخرى فَتْحُ مالقة ! » ثم نهض على اللقاع إلى وادي آش ؛ ففعل عليها ما وصَّفناه . وكان ابن عباد قد دخل مدينة مالقة المذكورة قبل هذا الفتح ، وامتنعت له القصبة لِمَا كان فيها من كفاة المتأريفة ، وقائدُها ذلك الوقت مخلوفُ ابن ملول ، شيخٌ كبيرٌ من ثقاته ؛ وانتظروا قوَّةَ الرئيس صبراً منهم ، وكثرةً بقياً ، وأتفةً من كشفٍ لحرمة الذين كانوا بالقصبة المذكورة ، إلى أن ورد العسكرُ . وخرج إلى ملاقاتهم من فيها من عسكر ابن عباد ؛ فمِجَّحوا عليهم الظفر ، ودخلوها عنوةً .

- ١٥ وكان حصول ابن عباد عليها لداخلة* أهلها وميلهم إليه ، اختياراً له (٢٤) د علينا ، على إحسان المظفر — رحمه الله — إليهم ، وأنه وجدهم على أسوأ حالة ؛ فأصلح من أحوالهم كثيراً ، وحل فقهاءها ومقرئيهـا على المطايا ، وأنزلهم على أفضل التراتب ، ما كان مشهوراً عنه في الأقطار ، إذ كانوا قبلُ في حال قلَّةٍ وعلى غير رتبة . ثم كافأوه بما فعلوا . وبعد
- ٢٠ ظفروه بهم ، عفا عن ذلك كله ، وزاد في مراتبهم . ولقد اختطَّبَ لابن عباد مُدَّةً كونه فيها ؛ وحكى أنه قيل في الخطبة : « اليوم أكمَلْتُ

لَكُمْ دِينَكُمْ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ۖ
فلم تقطِ السياسة مُعَاقِبَةَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، إِذْ كَانُوا فِيهِ سَوَاءً، وَلَا يَصْحَحُ إِسْكَاءُ
بِلَدَةٍ إِلَّا بِأَهْلِهَا .

قَهْرٌ مُلْكٌ جَدُّنا قَرَارُهُ ، وَجَبَرُ الْأُمُوالِ ، وَزَادَتْ الْحَبَايَاتُ .

٢٩ - الكشف عن أمر فتيانة وفنتها

ولما انصرف من فُتَيَانَةَ^(١)، غزوته تلك الوادي آشِيَّة^(٢)، دعا بقائديهِ [الناية
وعبد الله بن القَرَوِيَّ*]، وكانا على المسكر مُدَّةَ فِتْنَةٍ وادي آش ؛ وامتنحن
على أموالهم أين أُثْقِفَتْ : أَكَانَتْ فِي وَاجِبٍ أَمْ زِيْفَتْ ، لِمَا اسْتَعْظَمَ مِنَ
النَّفَقَةِ ؛ وَجَمَعَ الْقَائِدَيْنِ وَالْكَتَبَةَ ، وَكَشَفَ عَلَى ذَلِكَ غَايَةَ الْكُشْفِ .
وكان الناية من أهلِ التجربة والفكرة في العاقبة ، قد عمل هذا الحساب ،
وأخرج منه نَفْسَهُ : فَتَمَّتْ وَرَدَتْ أُمُوالٌ مِنْ غَرْنَاطَةِ اللَّعْطَاءِ، يَتَحَرَّيْ عَنْهَا،
وَلَا يَقْبِضُ مِنْهَا شَيْئًا ، وَيَقُولُ لِلَّذِي يَأْتِي بِهَا : « أَحْمِلْهَا إِلَى خِيَاءِ الشَّيْخِ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْقَرَوِيَّ* ؛ فَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَصْنَعُ ، وَهُوَ أَسْنُ وَأَدْرَبُ ۖ » فَاحْتَجَّ
النايَةُ بِهَذَا الْفِعْلِ عِنْدَ الْمَظْفَرِ ، وَأَتَى عَلَى ذَلِكَ بِالْبُرْهَانِ ، وَتَبَرَّأَ مِنْهَا .

١٥ وَغَضِبَ الْحَاجِبُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ سَاعَتَئِذٍ ، وَأَمَرَ بِنَفْيِهِ .

وكان أكثرُ الجندِ يَشْتَأُ النَايَةَ عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ ، وَيُوَثِّرُ عَبْدَ اللَّهِ لِتَرْبِيَّتِهِ^(٣)
مَعَهُمْ ؛ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، وَأَذْرَكَهُمْ مِنَ الْأَثَقَةِ أَنْ خَرَجُوا كُلُّهُمْ حُرْمَةً
فِي عَبْدِ اللَّهِ ، وَأَخْلَوْا* عَلَيْهِ لِلْحَلَّةِ . وَزَالَ عَنْهُمْ أَكْبَرُ صِنْهَاجَةٍ أَجْمَعُ ؛ ٢٥ (١)

(١) أصل : « فتيانه » ، وهو تصحيف .

(٢) أصل : « الوادشية » .

(٣) أصل : « لتربيته » .

فلم يصبح الحاجب بِفَنِيَانَةٍ منهم معه أَحَدٌ ؛ وَرَجَوْا أَنْ يَكُونَ يَرْغَبُ إِلَيْهِمْ ، وَيَفْزَعُونَهُ بِتِلْكَ الْفَعْلَةِ . فَأَتَى إِلَيْهِ النَّايَةُ يَرْعِدُ فَرَقًا ، وَأَخْبَرَهُ بِالْقِصَّةِ .
 قَالَ لِلْمُظَفَّرِ فِي نَفْسِهِ : « لَا خَيْرَ لِي فِي رَدِّ هَؤُلَاءِ ! فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَزِيدُهُمْ طَغْيَانًا ، وَتَجَرُّهُمْ الْعَادَةَ ، مَتَى أَحْبَبُوا الْخِلَافَ ، عَلَى أَنْ يَمْتَشُوا هَذِهِ الطَّرِيقَةَ .
 ٥ وَلَا حَاجَةَ بِي إِلَى إِسْكَانِهِمْ ، وَفِي مُضِيِّهِمْ الْغَنِيْمَةُ وَالرَّاحَةُ ! » فَسَكَتَ عَنْهُمْ وَتَرَكَهُمْ عَلَى أَهْوَائِهِمْ ؛ فَصَارُوا فَرَقًا وَأَشْتَاتًا ، مِنْهُمْ مَنْ مَضَى إِلَى جَبَّانٍ يَرِيدُ مُسْكِنًا ابْنَ عَمِّهِمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ انْقَطَعَ إِلَى شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَجَعَ إِلَى غَرْنَاطَةِ عَلَى خِفَاءٍ ، يُرَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الْجَلَّةِ .
 وَأَقْلَعَ الْمُظَفَّرُ عَنْ فَنِيَانَةٍ وَأَتَى غَرْنَاطَةَ ، لَمْ يَنْقُصْهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ،
 ١٠ وَلَا عَدَمُ جُنْدًا . وَاسْتَوَزَرَ النَّايَةَ ، وَبَقِيَ عَلَى الدَّعَةِ وَالتَّمَكُّنِ دَهْرًا طَوِيلًا .

٣٠ — اسْتِيلَاءُ بَادِيسَ عَلَى مَدِينَةِ جَبَّانٍ

وَلَمَّا تَمَكَّنَ مَاكْسَنُ مِنْ جَبَّانٍ ، وَنَارَ مَعَهُ مُسْكِنٌ مَعَ بَنِي عَمِّهِ ، أَقْلَقَ ذَلِكَ جَدَّنًا ؛ وَخَافَ النَّايَةَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْهُمْ ، وَجَزِعَ مِنْ أَنْ يَتَفَقَّ مِّنْ هُنَاكَ مِنْ بَنِي عَمِّهِمْ وَسَائِرِ الْبَرَبَرِ الَّذِينَ بِغَرْنَاطَةِ ، وَيَقْتُلُوهُ ، وَيَسْعَوُا فِي وَلَايَةِ مَاكْسَنَ . وَلَمْ يَزَلِ الْمُظَفَّرُ — رَحِمَهُ اللَّهُ — لُمْفَانَتَهُ وَجْهًا ، وَإِنْ مُسَايَرَتَهُ وَمُدَارَاتِهِ أَوْلَى ، وَإِنْ فِي فِتْنَتِهِ مِنَ الْعَارِ وَسُوءِ الْقَالَةِ أَنْ يُقَالَ : « رَجَعَ الْمُظَفَّرُ يُكَابِدُ فِتْنَةَ ابْنِهِ ، وَإِنْ أَعْيَاهُ أَمْرٌ عَجِزٌ ! » فَتَرَكَهُ عَلَى حَالِهِ ، وَرَأَى أَنَّ السُّعَى عَلَيْهِ بِالْمُدَاخَلَةِ أَوْلَى . وَالنَّايَةُ ، فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، يَجِدُّ وَيَجْتَهِدُ ، خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ ، وَيَبْذُلُ الْأَمْوَالَ لِلتَّغَارِبَةِ ، وَيُرْسِلُ مِنْهُمْ إِلَى قَصَبَةِ جَبَّانٍ مُتَخَيِّسِينَ مَنَ يُدَاخِلُهُمْ .
 ٢٠

وكان مُسَكِّنٌ قد أَخْلَلَ عَمَّنَا مَا كُنَّ ، واستبدَّ بالرأى ، وجع الأموال
 دونه ؛ وصار له مَا كُنَّ بمنزلة* البازي الذي يُصَيِّد به ، وما كُنَّ لا يقدر ٢٥ (ب)
 على أكثر من الصبر ، إذ لا فِئَة غيرهم ، وقع بترك الحال لاستنقاذه له
 من الموت ، ورأى إقرارَ روحه في جسده غنيمةً ، فَضَلَّ عن طلب ما سوى
 ذلك . فلم يَزَلْ أبداً يُدْخِل عليه بالأموال ، حتَّى استال جميع مَغَارِبَة ٥
 القَصَبَة . وكان ، مُدَّة كونه بِجَيَّان ، يُخَاطِبُه أقوامٌ من صِنْهَاجَة في حُبَّتِه ،
 ويقولون بذلك في المحافل والمجالس سرّاً وجهرًا ، ويرَوْن ولايته خيرًا من
 تولية العبيد عليهم واليهود ومن أشبههم ؛ قد سَمَوْا من ذلك ، وأُشْرَبُوا
 الْمُظْفَر من الشَّنَّان والبغضاء ما لو استطاعوا ، لَخَلَعُوهُ . لكنَّ السَّعَادَة واللُّدَّة
 لم يقطع عليها قَاطِعٌ ! والرئيس من هذا كُلِّه تحت أمرٍ عظيم ، والناية ١٠
 متوقِّعٌ للقتل مساءً وصباحًا ، تكثرُ عليه الأراحيف مع الساعات ، إلى أن
 نجت تلك المُدَاخَلَة : فقام المَغَارِبَة بالقَصَبَة على مَا كُنَّ ، وخرج منها
 فارًّا بنفسه ، هو وجميع من معه ؛ وهرب مُسَكِّنٌ ، لا يلوى على شيء ،
 يطلبون النجاة بمشاشة أنفسهم ؛ ووقع فيهم البهتُ ، إذ لم يدروا من حيث
 أتوا لَمَّا سمعوا النداء بالليل : « لَا طَاعَة إِلَّا لِلْمُظْفَر ! » وعجَّلَ الحاجبُ ١٥
 بِثِقَافِ جَيَّان ، واستراح من تلك الفِئَة .

وقد حُكِيَ عن الْمُظْفَر — رحمه الله — أَنَّهُ لَمَّا تَهَيَّأَتْ له هذه
 السَّعَادَة ، رأى النَايَة مهمومًا . فسأله^(١) في ذلك ؛ فقال : « اهْتَمَمْتُ
 لخلاص هذه الشَّرِذِمَة بأرواحهم . ولسنا نأمن شُرَّهم في البلاد ! » ومن
 ٢٠ تَوَرَّيَ حَتَّى لَا يُلْبَسَ هَرَاكِيس ! » واسمُ وَلَدِك كبيرٌ ! » فأجابه الْمُظْفَرُ أَن

(١) أصل : « فقال له في ذلك » .

قال : « الذى حلَّ بهم أشدُّ من القتل ، لخلاصهم ^(١) عن أوطانهم وكشفهم فى انقلاصهم بأهاليهم إلى من يتولَّى خِدْمَتَهُمْ وَيُرَكِّبُهُمْ وَيُنْزِلُهُمْ . ولِلوْتِ دونَ هذا راحةٌ ! »

فقصد ما كَسَنَ إلى طَلَيْطَلَة ، وصار بها عند ابن ذى النون * مُكْرَمًا ،
 ٥ على حال الجُنْدِيَّة . وتَقَلَّبَ مُسَكِّنٌ فى البلاد ، يخدم الجُنْدِيَّة . وصاروا أبَديَّة .

٣١ - استيلاء الناية على ييَاسة

/ وزاد جَاهُ الناية بقرناطة ، وأَحْمَلَ صِنْهاجَةَ ، وأظهر لهم البغض لثناصهم
 كان بَزْعَمَةُ على اليهودىَّ وعلى الحاجب فى ابنه ؛ واستنصَحَ بنى بَرْزال
 وأَحْسَنَ إليهم ، وقرَّبهم من نفسه ، وَهُمْ كانوا أولياءه ^(٢) وأنصاره ، وبثَّ
 ١٠ فيهم العطايا . وأَخْلَدَ السلطانُ إلى الراحة .

ثمَّ إنَّه ، لما قُوِّضَ له الأَمْر ، رأى أن يجعل لنفسه ذِكْرًا وثناءً يُوَثِّرُ
 عنه ، فى غزو البلاد ومُداخلة بعضها . فانتدب إلى مدينة ييَاسة ،
 وقال لِلْمُظَفَّرِ : « إنَّ مُداخلةَ بعض أهلها عندى ا » وكانت إذ ذاك لوَلَدَ
 مُجَاهِد . فقال له الحاجب : « لا تتعرَّضَ إليها ، وَتَحْنُ فى دَعَةٍ ! وكأنى
 ١٥ والله أَرى تُنفق عليها الأموال ، وتُهْلِكُ الرجال ، ولا تُحْصِلُ على فائدة ! »
 فألحَّ عليه وزَيْنُ له الأَمْر ، حتى أجابه إلى ما سأل ، وأمرَهُ بِالسَّيْرِ ، وهَيَّأَ
 معه الجيش ، وأعطاه الأموال . فَرَامَ من ييَاسة أمرًا عظيمًا : كلُّ ذلك
 يتعذَّر من أمرها ما لا يُرْجَى به أَخْذُها ، حتى سَمَّ السلطان النفقة ومنع
 منه للال .

(٢) أصل : « أوليائه » .

(١) أصل : « خلاصهم » .

- وكان في المجلس ممن يُطالبه بذلك رجلٌ كاتبٌ للمظفر يُعرف بابن أضحى ، ويقول للحاجب : « لم تقم ببيعة وعشرة أمثالها ببعض هذه النفقات التي كُنتَ عنها في غنى ! » وكلُّ ذلك يتَّصل بالناية ؛ فيُخرج المغيرة ، ويغم الأغانم ، ويوجهُ بها إلى مولاه ليَجْبُرَ منها بعض نفقاته ؛ فكان ابن أضحى يبيعها بيخسٍ من الثمن ، ويحضر المال بين يديه ، ويقول له : « أين هذا بما أَشَقَّتْ ؟ » فيخرج أخلاق المظفر عليه ؛ فيصبر عليها الناية ؛ واستسلف طعاماً كثيراً من شيوخ جَيَّان . وكان بانياً على أنه ، إن لم يقدر فيها على شيء ، أن يكون ذلك طريقه فاراً ، لا ينصرف إلى غرناطة ، إلى أن استفتحتها بكثرة المؤازبة والملازمة ، وكانت عليه الصولة على مطالبه
- ١٠ بذلك . ودخل * المدينة في عزّة ورفعة وإكرام من السلطان جسيم ، مُهَدِّداً ٢٦ (ب) لمن طالبه ، ومُسْتَطِيلاً بذلك مُعَلِّناً .
- وقدم إلى المظفر يقول له : « لا أدخل البلدَ حتّى تأمرُ بنفى ابن أضحى أو أنصرف من مكاني هذا ! » فرأى الحاجب أن نفي ابن أضحى أوّل من فساد عسكره . فأمر بنفيه ، بعد تغريمه وإهانته . وخرج من ذلك الوقت ساعياً على الدولة ومُطالباً لها إلى زمان ولايتنا ، حتّى أنظرنا الله به ، على ما يأتي ذكره بعد هذا .
- ١٥

٣٢ — مؤامرة ضدّ الناية ومقتله

- وإنّ وزراء الدولة وكثرة عبيدها ، لما بصروا بما فعل الناية ، والزيادة في أمره وجاهاه ، وأنّه هو الحاكمُ دون السلطان ، حتّى قالوا إنّ طامعٌ بالرياسة والقيام مع بنى برزّال ، وشنع ذلك عليه ، أدركتهم منه أنفة
- ٢٠

عظيمة وحسدٌ شنيعٌ . فاتفق رأيهم أجمع ، أعني ولاية البلاد : منهم ولدُ القاضي ، صاحبُ باغِه وابنُ يعيش ، صاحبُ قَبْرَةٍ ، وواصلٌ ، صاحبُ وادي آش ، والقاضي ابنُ الحسنِ النَّبَاهِي بِمَالَقَه ، أنه متى قدِم إحدى هذه الجهات ، قُتِلَ فيها ، وأُرْسِلَ في ما كَسَنَ — وقُدِّمَ — أراد والله أم لم يُرِدْ .

ثمَّ إنَّ النفر المذكور عملوا رأيهم ، وفكروا في العاقبة ، ورأوا أن يقتله واصلٌ العليجُ بوادي آش ؛ [فيكون ذلك] أَسْرَ لقتله وأبعد للظنِّ بهم : فإن عاقبَ عاقبَ غلامه وتبرَّأوا من ذلك . فوَعِدَ واصلٌ المذكور على ذلك بالوزارة مكانه ، وضمنوا له توظيفهم للأمر عند السلطان ، حتى تهياً ذلك في دماغ العليج ، واستعدَّ لقتله ، إلى أن حدث بوادي آش أمرٌ لم يكن مُبْدًى للسلطان أن يرسل وزيره فيه ، من تحصيل أموال والكشف على أحوال . فنهض في آنحس وقتٍ وأُثِرَ قَدَرٌ . وكان واصلٌ هذا المذكور من أكبر صنائع الناية ، وممن أطبأه بإحسانه ، وشرفه عند السلطان ، ورفضه من الخفيض . ففشأ الأثرُ عند الناس قبل ذلك أن واصلًا عازمٌ على قتل الناية .

وحكى لى إنسانٌ من البربر ، قال : « نصحتُه بذلك وحذرتُه أن لا ينهض إليه ، وأن مثله لا ينزل في داره ؛ فكان من جوابه : « تريدون أن تنزعوا الرِّيبَ من أنفسكم وتردوها على أصدق الناس إلى ؟ » فلما توجهَ إلى وادي آش ، ونزل في منزل واصل ، أظهر له إكرامًا وتبجُّلاً لم يكن عليه قَبْلَ ، حتى اطمأنَّ ، وانصرف عنه أعوانه . ولما دخل الليل في جَنِّه ، أتاه واصلٌ برمحٍ ، وهو سكران ؛ فضربه ضربةً أنفذه بها ، حتى أثرت الضربة في الحائط ؛ وقطع رأسه وطوَّفه صبيحة الليلة [بأرقة مدية وادي آش

وَمُنَادٍ ينادى [: « هذا جزاء من طلب ما لا يعنيه ! »

- فورد الخبرُ فجأةً بغرناطة ، وبُهِتَ له الناس ؛ ولم يدْرِ أحدٌ من حيث أُتِيَ ، ففهم من يقول : « السلطان دسَّ إليه ، إذ لا يمكن لتلك العليج أن يتعدَّى ! » وبلغ ذلك من السلطان مبلغاً عظيماً ، وعلم أن هذا من اتفاق عليه ؛ ودخل منه في بحر طامس ، حتى أسهر ليله وامتنع من لذته . وأظهر للناس تجلُّداً ، وهدَّده الجند ، وأرسل إلى واصل بالأمان ، يأمره بالتقدم عليه ، ويشكره فيما فعل ، سياسةً منه وتوطيداً إلى أن يستبرئ كيفية الحال ، وينظر لها على مهل . فزاد بذلك العليج حاقةً ، وقال مُعلنًا : « لم أَدْخِلْ يدي في هذه القضية وحدي ، حتى يساعدني عليها من لا يُنال بهم عن أحدٍ ! »
- ١٠ وأتى مُشترطاً للوزارة . وكَلَّمَ وَلَدُ القاضي المظفر في أمره وقال له : « إنَّ هذا العبد ، وإن جنى عليك في قتل وزيرك ، فإنما فعل حُبًّا منه فيك ورغبةً في قُرْبك ؛ وهو أحقُّ من ذاك إذ هو تربيئتك ! » وجعل [أهل] الدولة يعتنون به ويسألون العفو له . فأحسَّ السلطانُ ذلك في نفسه ، وأيقنَ أنَّ هذه النِّصبة لم تكن إلاَّ عن اتفاقٍ عليه ، وحسب نفسه مخلوعاً لا محالة . فأنه ، ساعةً
- ١٥ ما قُتِلَ الناية ، أُرْسِلَ عن ما كَسَنَ إلى طليطلة ، ووجهٌ* إليه بخاتم الناية ٢٧ (ب) كَتَبَ يتحقق قتله ، وقيل له : « ليس بغرناطة عليك مختلفٌ ولا من يصدُّك ! » إلاَّ أنه لم يتجاسر حتى يَرَى إلى ما تؤوِّل الأحوال . فكظم الحاجب هذا في نفسه ، واحترق له قلبه ؛ ودارى جميعهم ، وصوَّبَ فلَّ واصلٍ ، وقال : « هذه نارٌ موقدةٌ ليس يتقدنى منها إلا إطفاءُها والنظر لها على سعةٍ ! »
- ٢٠ وأمرَ بتقديم واصلٍ على الخليل .

٣٣ - استدعاء الأمير باديس ولده ما كسن ورجوعه إلى الحضرة

واتفق رأى الجميع ، مع بعض أهل قصره من النساء ، أن يُدخَلَ عليه ابنه ، ويُخلَعَ من أجله على كلِّ حال . فلما رأى المظفر اتفاقهم عليه ، وأحسنَ بهذه المصائب ، ولم يَزَ لنفسه مع من يستريح ، أرسل في أبي الريح النصراني ، وكان فيما مضى كاتبَ حشم ، قد عرف خدمة اليهودى وتصرّف معه ؛ فأرسل عنه سرّاً ؛ وأتت كُتُبُه قبل ذلك ، فراجعَ عنها بخطِّ يده . فكان ذلك زيادةً في الشرِّ وخيالِ الدولة . فلما أحسنَ بهذا ولَدُ القاضى صاحبُ باغِه ، شافَةَ المظفرَ في الأمر وقال له : « إن كنتَ تعزم على أبي الريح ، فنحنُ لا نبقى معك ، ولا ياتوى أحدٌ حوائيك ! » فأجابه : « ألا أتقَى اللهُ منكم أحداً ! » وضيّع الحزم في هذا ، لا سيما أنه قد عَلِمَ أن بيده مدينة لا يملك منها معه شيئاً ؛ فَعَمِلَتْ في نفس صاحب باغِه وأهل الدولة ، وتغيّرت الأُفُس ، وكثر الإرجاف . واتفق مع صاحب قَبْرَةِ ، وكان صديقه قديماً ، إلى أن ورد أبو الريح .

فاستراح إليه المظفر على المقام ، وأعلمه بما حلَّ به . وأثناء اللذَّكُورُ من دَانِيَةِ ، إذ كان بها من وقت قتل اليهودى . فقال له أبو الريح : « قد أيقنتُ أنهم أرسلوا عن ابنك ، ولا يختلف عليه . ولا قدرة بك على مُكابرة العاتية والخاصّة ! فالرأي في ذلك والحيلة أن تتلافى الأمر ، وتوجّه في ابنك ، وتكتبَ إليه بخطِّ يدك بالغو عنه وإيثارك له على كلِّ والٍ لم يصالح لك ، وأنتك مقدّمهُ* لولايتك ومورثُهُ مُلكك . فإنك ، إن فعلتَ ، هَدَنْتَ قلوبَ هذا العالم ٢٨) وتَقَمَّنْتَ مسرّهم^(١) . فإذا وصل ولدك بين يديك ، كنتَ في أمره بالخيار ،

(١) أصل : « سارهم » .

وتخذمت قصته على سعة : فكابدته ، وهو معك ، خير من مكابدة شره مع بعده ! ولست تأمن مكره حيث ما توجه ! »

فرضى المظفر ذلك من قوله ، وأرسل على المقام عنه قتيها كبيرا من قتيهاه يؤمنه ويوطئه ، ويشره بمذهب أبيه واستخلافه له ، وأنه ليس في الدولة من بنيهِ من يُرجى لهذا الأمر سواه ، وكتب إلى ابن ذى النون يرغب في تسريحه إليه . فسر بذلك جميع الناس ، وانصرفت نفوسهم عما كانت عليه ، وطفئ العالم في محبة ما كسن ، ورجوا الخير معه ، إلى أن ورد في أنحس طالع وأنكد جد .

فأنسه أبوه ، وبذل له الأموال ، وجعل يوصيه بوصايا لم تنفعه ، أراد بذلك ضره وانصراف نفوس الناس عنه . فأول ما أمره به بالشدة والفظاعة ، وبقض إليه صنهاجة ، وقال له : « أنت تعلم ما شقيت أنا بهم بعد حبوس ! فصل عليهم ليهابوك ، وليس في الدولة غيرك إلا بنى أخيك : فهم أطفال صغارا » وكان ما كسن من السفه وعجز الرأي وقلة الفطنة بحيث لم يخف على أحد . فزاد على ذلك أضعافا مضاعفة . ووافق سوء طبعه مقالة أبيه : فتحكم الشر فيه ، ولم يقدم شيئا على شتم الناس والاستهزاء بهم ؛ ومن العجب أنه كان أبغض العالم فيمن أحبه وسعى فيه ؛ فجعل يبلغ من أعراضهم وتكليفهم ما لا يطيقون وما انصرفت نفوس العالم فيه إلى البغضة ، وتبين لهم من قلة عقله ؛ وأجمع * الكل على ألا خير فيه يُرتجى .

٢٨ (ب)

وكانت بنت عمه أم الملو طامعة بزواجه ؛ وكانت مطاعة في قومها : قد استمات أكثر نساء الجند ؛ فأول ما ابتدأ بتهجينها وشتمها ، وأنها فيما يزعم لا تصلح له . فزاد ذلك في نحسه والسنى بكل وجه عليه . وكانت كريمة

٢٠

المُظَفَّرُ الساعية في خبره يعد سعيها في قتل أمه ، قد أغارت من أن يكون ما كَسَنَ يزوج بنت عمه ، جذراً منها أن تجعل منها حاشيةً وتمنع حرمة .
واتقى من ذلك واصلُ وامرأته ؛ فقال^(١) لها : « أيُّ فائدة لك في زواج أم العُلُو؟
لكنَّ الأولى بِكَ أن تعطيه صبيّةً من تربيّتك ، تكونين^(٢) من أجلها حاكّةً
٥ على داره ! » ففعلت ذلك وأخرجتها إليه بأموال ، وصوّرت عند السلطان
أنها تُوفيت ، لئلا يطلبها في قصره ، باسمِ أخرى ماتت عندها .

وشقّ على بنت عمه ذلك كلّهُ ، ورَجَعَتْ تسعى عليه مع نساء البربر ،
وتدخل بين امرأة واصل المذكور ، وبين كريمة الحاجب ، وتقول لها : « إذا
أردتِ الانفراد بما كَسَنَ ، فما حمل امرأة العِلج على السكنى معه ؟ » فمِنَعَتْ
١٠ الدخول إلى داره ؛ فأنفّت لذلك . وكان مع ذلك زوجها واصلُ يُوَثِّرُ عليها
صبيّةً كانت لها ، ويُوذِيها من أجلها . فاجتمع على المرأة الغيرةُ والأنفةُ لما
طُرِدَتْ عن دار ما كَسَنَ ؛ فلم تلبث أن مضت إلى أبي الربيع النصراني :
وقالت له : « أنا أمةُ المُظَفَّرِ : فليَنظُرْ من نفسه ! فإنَّ الاتِّفاقَ عليه على وجه
كذا وكذا ! » ويَنفَتُ جميع ما راموا من غدره . فأتى أبو الربيع إلى
١٥ الحاجب مسروراً ، وقال له : « أنظُرْ كيف تبتدى سعادتك في تشتيت هؤلاء
القوم ! أخبرتني امرأة واصل بكذا وكذا ! ألم أقلْ لك^(٣) ؟ »

(١) أصل « فقالوا » . (٢) أصل : « تكون » .

(٣) إلى هنا انتهى ما هو موجود في نسخة « مذكرات عبد الله » الوحيدة من تاريخ دولة باديس

ابن حبوس جد المؤلف .

الفصل الخامس

إمارة عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس مؤلف هذا الكتاب

(١) مشاكل الأندلس الخارجية وحال الجزيرة

عند ابتداء إمارة عبد الله .

٣٤ — رفض مطالب ألفونس السادس واشترائه

مع ابن عمّار

[..... وأما] * ألفونس ، لما تيقن هذه الفتن ، عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ ٢٩ (١)

من أكبر سعادته وأعظم فرصه في طلب الأموال . فَأَرْسَلَ إلينا رسوله :

أَوَّلَ مُدَاخَلَةٍ نَشَأَتْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ؛ فَأَتَى بَاطِرُ شَوْلِسَ يَطْلُبُ مِنَّا ضَرِيئَتَهُ .

فَأَبَيْنَا عَلَيْهِ ، وَاجْتَمَعَ رَأْيُنَا عَلَى أَنَّ لَا نَفْعَ ، وَأَنَّ ضَرَرَ الْأَفُونُسُ لَا يُخْشَى

وَعَيْرُنَا أَمَانَتَنَا ، نَعْنَى بِذَلِكَ ابْنُ ذِي الثَّوْنِ . وَلَمْ نَقْصُ أَنْ أَحَدًا يُعَاقِدُهُ

عَلَى مُسْلِمٍ . فَانْصَرَفَ عَنَّا دُونَ حَقٍّ .

وَإِنَّ ابْنَ عَمَّارٍ اتَّهَزَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ ؛ وَكَانَ مُنْتَظِرًا لَهُ يَبَاقُهُ ، مُرْتَقِبًا

لِمَا يَصْنَعُ مَعَنَا . فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَمْ يَتِمَّ لَهُ عَمَلٌ ، أَلْقَى يَدَهُ فِيهِ عَلَى الْقَامِ ١٠

وَقَالَ لَهُ : « إِنْ كُنْتُمْ ^(١) مُنْعَتُمْ عَشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ (وهي التي سأل عن

ضَرِيئَتِهِ) ، فَتَحْنُ نَعْطِيَكُمْ خَمْسِينَ أَلْفًا ، عَلَى أَنْ تُعَاقِدَكُمْ عَلَى غَرْنَاطَةِ :

(١) أصل : « إِنْ كَانَ مِنْكُمْ » .

تعطونا القاعدة ، ولكم ما فيها من الأموال ! » فعاقدوه على ذلك . واتفق رأيهم على أن يبنوا على غرناطة مَقِيلًا يَضِيقُ عليها حتى تلقى يدُها . وكان ابن أضحى ، للذكور قبل هذا — هو المخرجُ على يدى الناية — قد انحاش إليهم ، يدلُّ بهم على عَوَرات البلدة ، ويريهـم أشدَّ ما يكون عليها من المَوَاضِعِ إن بُنِيَ ، ويجعل فيه ندباً للضرب والتضييق . فأراهم حِصْنَ بَلَيْش .

وأكرى ابنُ عمار من عسكر أَلْفُونش ما قوى به على البنيان بأعداد من الأموال جسيمة ، يسوِّفهم فيها تارات ، ويمدُّهم ويُخادِعهم ، حتى تمَّ البنيان . وجعل المَعْتَمِدُ يُحاوِلُ ذلك بنفسه ، ويبرز أبدأ على مقربة من غرناطة مدَّة كَوْنِهِ ، طمعاً فى أن يقومَ معه أهلُ البلدة . فلما تمَّ بُنيانُه ، قواه بالندب ، واتَّخذ فيه جميع الأتوات ، وأمرهم بالتضييق . وكانت الحالُ شديدةً ، ونَسِيَ به أمرُ القلعة .

وعند انصراف المَعْتَمِدِ عنه وعساكر الرُّوم ، عَـبَّينا عسكراً كثيراً ، ونَهَضْنَا إليه ؛ فلم نقدر فيه على شئ . واقطع رجاء الناس من دولتنا ، لاجتماع المطالبين عليها مع الروم . وَنَدِمْنَا على التفريط أَوْلاً فى مُعَاقَدَتِهِ حَسَبَ ما سأل . وكان من أحسن شئ* على السلاطين أَخْذُ مَقِيلٍ بالسيف ؛ ٢٩ (ب) فَإِنَّهُ ، متى اعترض ، لم يَسْتَطِعْ على دخوله لمنعته وما عُدَّ فيه ، ولا على إحصاره ، حتى ينفد ما فيه لقوَّة تَأْتِيهِ ، فيَقْلَعُ عنه إلّا من كان أقوى . ولم نَكُنْ نَحْنُ إلّا مُتَسَكِّفِينَ فى ذلك : متى ما أعطى أَحَدُنَا لعسكر ٢٠ مالا ، وأراد الآخرُ نَقْضَهُ ، أَرْزَى عليه وأراحهُ منه .

فكانت بَلَيْش قد أُنسدت ، وضَيِّقَت على فَحْصِ غرناطة ؛ ولم يَكْفِ

ما حلَّ من أجلها حتى جعلنا القروش أن نُقرم ما فاته منا ، تباعةً
وتذنيباً لرخصنا إياه ، واستدفاعاً لما يُتقى من تماديهِ على الطلب . وابنُ
ذى النون فى هذا يتوسَّط له بالأمر ، ويسعى فى تصيير المال إليه ، يرضيه
بذلك وينتظرُ فسادَ مملكتنا ، فيفتريها هو أو يأخذَ منها حصته .
٥ فكان — على ما قدّمنا ذكره — عدواً فى الباطن ، صديقاً فى الظاهر .
وهو مع ذلك لا يزال يُدْخِلُ قُرْطُبةً ، ويسعى جهده فيها ، إلى أن قدّر
اللهُ ، وافتترسها غدرًا بمداخلة من بعض أهلها ممن لا خطرَ له . واستشهد
فيها ابنه عبّاد [بن المعتد] وقائده ابنُ مرتين .
فلما انقضت بقرطبة هذه الدائرة ، وسمع بالخبر أهلُ بيليش ، أخذوها
١٠ على اللقاص ؛ ودخلها رجالنا ، وصارت فى ملكنا مُشيدةً مَنيّةً . فنظرنا منها
بالذى نصنع بقصبة غرناطة . وتروّجُ نخفها من حيث لم يُحتسب .

٣٥ — المهادنة بين عبد الله وابن صُباح صاحب التريّة

وكان قائده مدينة بسطة ابنُ ملحان ، رجُلٌ معجبٌ ، قد شَرِهَتْ
نفسه إلى ربِّ الملوك . وكان المُظفر — رحمه الله — قد فوّض إليه أمرَ
١٥ البلدة عوضاً من أبيه . فلما صارت لنا الدولة ، وكثر فيها آراءُ الوزراء ،
جعل كلُّ واحدٍ منهم يطلبه بمال ، ويسأله مُتأخفات : فن لم يعطِ ،
طالبه وأداه ، مع صغر سنّا ؛ فلم يجدْ سبيلاً إلى الدفاع عن نفسه ،
ولا شكوى لمن يذبُّ عنه ويحميه . فتراعى على ابن صُباح وقبله ؛
وصارت البلدةُ إليه ؛ وعلمَ أنّه لا يُفانن طولَ مدّة الفتنه مع ابن عبّاد .
٢٠ ثمَّ إنّه غدر* حصنَ شيلش ؛ ونحن ، فى ذلك كلّهُ ، لا نفتقر عن مُخازاته ٣٠ (١)

بالإضرار ببلده . وصار إلينا مع حصن شنت أقلج من معاقله ما وقعت
المفاوضة به من شيلش . وصالحناه مهادنة وانجراراً للحال ، حتى نرى
ما نصنع مع ابن عبّاد .

٣٣ — مهاجمة ألفونشُ السادس على غرناطة

واضطرار عبدالله إلى المهادنة معه .

٥

وبقي ابنُ عمّار مرتهناً بما جعل على نفسه للنصراني من كراه بليش
في تبعات كثيرة وجرايات جسيمة يُقَطِّعُها له ، ويَبْدُهُ بها . وأدخلَ سلطانه
من ذلك في تشبيب ، لأنه كان لا يريد أن يجعله يخلد إلى راحةٍ ليكن
يحتاج إليه في تلك الفتنة لا يقرُّ عن إدخال ضررٍ على المسلمين . ومتى
١٠ ما كان المقتصد يسعى في تهدين الأمر ، ونروم معه الصلح ، أو تنشأ
مهادنة ، لا ينأى في نقضها وإشعال نار الفتنة .

فعاد ثانية إلى النصراني ألفونشُ ، وزين له أمر غرناطة ، وصوّرنا
عنده في صورةٍ من لا يقدر على شيء من أجل الضعف وسن الصبا ،
وأنه ضامن له أموال غرناطة لتصير إليه بأمرها ، على أن يعاقده ،
١٥ إذ تمكن من البلدة ، أن يجعلها ملكه ، وله ما بقي من أموالنا . وألقي
يدَه في ألفونشُ ، عازماً عليه في الإقبال إليها ، وأعطى على ذلك أموالاً
جسيمة ، ووعده بخمسين ألف مثقال إذا تمت القضية ، سيعطيها زائدة على
ما يجِدُ ، لمساعدته على السير .

فأدرك الرومي من ذلك طمع كبير ، وقال : « هذه نصبة لست
٢٠ أخلو فيها من فائدة ، وإن لم تحصل البلدة ! وأى فائدة لي في إعطاء

بلقة من واحدٍ لآخرٍ إِلَّا تَقْوِيَّتُهُ عَلَى نَفْسِي ؟ وَكَلَّمَا أَكْثَرَ الثَّوَارُ ، وَوَقَعَ
 بَيْنَهُمُ التَّنَافُسُ ، كَانَ لِي أَفْتَدَا « فَأَتَى عَلَى نَيْبَةٍ أَخَذَ مَالِ الْفَرِيقَيْنِ ،
 يَكْسِرُ رُؤُوسَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ . وَلَا كَانَ أَيْضًا فِي أَمَلِهِ أَنْ يَأْخُذَ الْبِلَادَ
 لِنَفْسِهِ ؛ فَإِنَّهُ عَمِلَ فِي ذَلِكَ حَسَابًا أَنْ قَالَ : « إِنَّا مِنْ غَيْرِ الْعِلَّةِ ؛ وَكُلُّ
 ٥ النَّاسِ يَشْتَأِي ؛ فَبِأَيِّ وَجْهِ أَطْعَمَ فِي أَخْذِهَا ؟ إِنْ كَانَ مِنْ بَابِ الطَّاعَةِ ،
 فَأَمْرٌ لَا يُمْكِنُ ؛ وَإِنْ كَانَ مِنْ وَجْهِ الْقِتَالِ ، فَيَهْلِكُ فِيهَا رِجَالِي * وَتَذْهَبُ ٣٠ (ب)
 أَمْوَالِي ، وَتَكُونُ الْخُسَارَةُ عَلَى أَكْثَرِ مِمَّا نَرْجُوهُ إِنْ صَارَتْ إِلَيَّ .
 وَلَوْ صَارَتْ ، لَمْ تَتَمَسَّكَ إِلَّا بِأَهْلِهَا ؛ ثُمَّ لَا يُوَثِّقُونَ ! وَلَا مِنَ الْمُتَمَكِّنِ
 أَنْ تَسْتَبِيحَ أَهْلَهَا وَتُعَمِّرَهَا بِأَهْلِ مِلَّتِي ! وَلَكِنْ الرَّأْيَ ، كُلَّ الرَّأْيِ ،
 ١٠ تَهْدِيدُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، وَأَخْذُ أَمْوَالِهِمْ أَبَدًا ، حَتَّى تَرُقَّ وَتَضَعُ ؛ ثُمَّ
 هِيَ تَلْقَى بِيَدِهَا إِذَا ضَعُفَتْ ، وَتَأْتِي عَفْوًا ، كَالَّذِي جَرَى بَطْلِيْطَلَةَ إِنَّمَا
 كَانَ مِنْ قَرَرِ أَهْلِهَا وَتَشْتَتِهِمْ ، مَعَ انْدِبَارِ سُلْطَانِهَا ، وَصَارَتْ إِلَى بِلَا
 مَشَقَّةٍ ! »

وَكُنَّا نَحْنُ نَعْلَمُ هَذَا مِنْ مَذْهَبِهِ ، عَلَى مَا كَانَ يُخْبِرُ بِهِ وَزَرَائِدُهُ . وَلَقَدْ
 ١٥ قَالَ ذَلِكَ شِشْلَانْدُ فِي حَالِ هَذِهِ السَّفَرَةِ ، وَشَافَهُنَا بِذَلِكَ ، وَقَالَ : « إِنَّمَا
 كَانَتْ الْأَنْدَلُسُ لِلرُّومِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ، حَتَّى غَلِبَهُمُ الْعَرَبُ ، وَالْحَقُّوْمُ
 بِالْمُحْسِ الْبِقَاعِ : جَلِيْقِيَّةٌ ؛ فَهُمْ الْآنَ عِنْدَ التَّمَكُّنِ ، طَامِعِينَ بِأَخْذِ ظِلَامَاتِهِمْ !
 فَلَا يَصْحُحُ ذَلِكَ إِلَّا بِضَعْفِ الْحَالِ وَالْمُطَاوَلَةِ ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مَالٌ
 وَلَا رِجَالٌ ، أَخَذْنَاهَا بِلَا تَكَلُّفٍ ! »

٢٠ فَكَانَ الْجَمِيعُ يُسَايِرُ الْأُمُورَ ، وَيُدَافِعُ الْأَيَّامَ ، وَيَقُولُ : « مِنْ هُنَا
 إِلَى أَنْ تَمَّ الْأَمْوَالُ وَتَهْلِكَ الرِّعَايَا بِرَحْمَتِهِمْ ، يَأْتِي اللَّهُ بِالْفَرَجِ وَيَنْصُرُ الْمُسْلِمِينَ ! »

فورد علينا من إقبال ألفونش مع ابن عمار هول عظيم ، وصح
عدنا أنه لم يأت إلا طالباً لملكنا : قد استوثق من ألفونش على ماقدنا
ذكره . ثم أرسل إلينا ينذر بإقباله ، ويأمرنا بالخروج إليه ، يرى أنه
يذهب إلى تجديد العهد والاجتماع بنا ، على ما يفعله مع السلاطين . فلم نشك
أن ذلك للتبئض علينا وإنجاز ما عاقد عليهم . فاجتمع علينا أهل الرأي
والمشورة ، وقالوا : « ما الذي تذهب إليه ؟ هذا عدو قد جاء لطالبك ،
ولا قدرة بك على مناوراته ! وسواء عليك خرّجت أم بقيت ! فإن أنت
بقيت ، حلت بك الداهية العظمى ، ووقعت المفاسدة ، وأصاب مطالبك
سبيلاً إلى العمل ؛ وتكون هذه أشد من الأولى ، وقت رفضنا بطره سولس
والقى ابن عمار يده* فيه حتى بنى علينا بيليش . والآن لم يتروح مُحْتَقناً ٣١ (١)

١٠ حتى نعود إلى ما هو أدهى وأمر ؛ فلو رأت الرعايا بعض خلاف من هذا
الجيش ، لم تُبق ولا تذر لشعفة ما قد دهموا به قبل ، وكان الرجاء ينقطع ،
ويتلف الكل حتى تؤخذ هنا باليد على غير صلح ، فلا يرقب فينا
إلا ولا ذمة ! فالخروج إليه أيسر لأمرين : فإن كانت سلامة ، شكرت
رأيتك ، وثبت ملكك ؛ وإن كانت الأخرى ، كان خروجك عن
أمان ، وصيرت حيزاً في العافية ! فاعزم على لقائهم^(١) ، وقل له قولاً
ليتنا ؛ والله أن يُنفذ قضاءه .

فاستعددنا لذلك جهداً ، واجتمعنا حولنا من نثق به من رجالنا ،
وأخذنا أهبة الحال ، ولقيناه على مقربة من المدينة ، وبالقنا بالضرورة في
٢٠ إكرامه ؛ فأعرض علينا وجهاً بسيطاً وخلقاً حسناً ، ووعدنا أنه يُجاي

(١) أصل : ولقاء .

عنا كما يُجاي عن بلده .

ثم وقعت المعاملة ، ومشت الرُّمْلُ مِنَّا إِلَيْهِ وَمِنْهُ إِلَيْنَا ، يُبَيِّنُ مَا عُوِّدَ عَلَيْهِ وَأَنَّهُ سَيَقَ سَوْقًا ، ويقول : « إِنِّي قَدْ تَشَبَّثْتُ فِي الْأَمْرِ ، وَلَمْ نُجَلِّ حَتَّى نَسْمَعَ مَا عِنْدَكُمْ . فَإِنْ جِئْتُمُونِي وَرَأَيْتُمْ لِقَصْدِي وَجْهًا ، انصرفتُ عَنْكُمْ عَلَى خَيْرٍ ، وَإِلَّا ، فَمَا أَنَا مَعَ مَنْ عَاقَدَنِي ! » وَطَلَبَ خَمْسِينَ أَلْفَ مَنَقَالٍ . ٥

فَشَكَّرُونَا إِلَيْهِ قَلَّةَ الْبِلَادِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَقْدَرُ عَلَيْهِ ، وَفِيهِ مِنَ الْقَطْعِ لَنَا مَا يَقْتَرِصُنَا بِهِ ابْنُ عُبَّادٍ ؛ فَإِنَّهُ ، لَوْ أَخَذَ غِرْنَاطَةَ ، قَوِيَ عُنُصْرُهُ ، « وَلَمْ يَنْطَعِ إِلَيْكَ . فَخَذْنَا مَا نَقْدِرُ إِلَيْهِ ، وَاتْرُكْ رَمَقًا لَا نَسْتَأْصِلُ مِنْ أَجْلِهِ ! وَمَا تَرَكْتُ ، تَجِدُهُ عِنْدَنَا مَتَى مَا طَلَبْتَ ! » قَبْلَ الْمَذَرِ بَعْدَ جُهْدٍ عَظِيمٍ ، وَطَاطَعْنَاهُ لِقَصْدِهِ بِخَمْسَةِ وَعَشْرِينَ أَلْفًا ، نِصْفَ الْعَدَدِ ؛ ثُمَّ أَعَدَدْنَا لَهُ مِنَ ١٠

الْفَرَشِ وَالثِيَابِ وَالْأَنِيَةِ كَثِيرًا ، اسْتَدْفَعْنَا لَشَرِّهِ ؛ وَجَمَعْنَا ذَلِكَ كُلَّهُ فِي خِيَاءٍ كَبِيرٍ ، وَدَعَوْنَاهُ إِلَيْهِ . وَلَمَّا رَأَى الثِّيَابَ اسْتَحْقَرَهَا ؛ وَوَقَعَ الْإِتِّفَاقُ مَعَهُ عَلَى زِيَادَةِ خَمْسَةِ آلَافٍ مِثْقَالٍ لِنَتَمَّ بِهَا ثَلَاثُونَ أَلْفًا ؛ فَأَكَلْنَاهَا لَهُ لَثْلًا يَنْفَسِدُ الْأَكْثَرُ عَنْ * الْأَقْلَى . فَشَكَرَ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَطَابَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ . ١١ (ب)

وَرَجَعَ إِلَى ابْنِ عَمَّارٍ يَقُولُ لَهُ : « كَذَبْتُ لِي فِي قَوْلِكَ إِنَّ غِرْنَاطَةَ فِي ضَعْفٍ ، وَإِنَّ صَاحِبَهَا مِنْ صَغُرِ سَنَةِ لَا يَعْقِلُ ! وَرَأَيْتُ مِنْ رَتْبَتِهَا وَأَحْوَالِهَا مَا خَالَفَ قَوْلَكَ ! » ١٥

فَرَجَعَ ابْنُ عَمَّارٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَنَا عَقْدًا يُوقِفُ عِنْدَهُ ، وَاسْتِمَالَهُ عَلَى اخْتِذِ إِسْطَبَّةٍ مِنْ عِنْدِنَا ؛ وَكَانَتْ مَمْقُولًا عَظِيمًا مِمَّا يَلِي جِهَاتٍ إِثْيِيلِيَّةً ، قَدْ كَانَ أَخَذَهَا قَائِدُنَا كِتَابًا فِي الْفِتْنَةِ . وَسَأَلْنَاهُ تَحْنُ خَبَرِ الْقَلْعَةِ ؛ فَوَقَعَ الْإِتِّفَاقُ عَلَى أَنْ ٢٠ تَكُونَ قَلْعَةُ أُسْطَلِيرٍ عِوَضًا مِنْ إِسْطَبَّةٍ .

وكانت قاشترة ومارتش المتقين الذين على جيان . ومن أجلهما انقطع صاحبها عمنا [ما كسن] ولم تكن جيان معنى إلا بهما . فترامى ابن عمار في أمرهما على الفونش ، ووعدته على مارتش بأموال كآته يشتريها منه . فمزّم علينا فيها للطمع في اللال ، ووعدنا نحن على قاشترة بالمطمر ، وكان ٥ أيضاً حصناً قد اشترك نظره مع نظرينا بيد ابن ذى النون ؛ فصنّ خبره أنه يعطيه لنا عوضاً منها ؛ فدافعنا الأمر جهداً : فلم نقدر على أكثر فعل القوى مع الضعيف ،

ثم إنه عقد العقد بين يديه على ذلك ، وأن لا يتعدى منا أحده على صاحبه ، وذكر فيه ما نعطى كل عام من الضريبة : فجعل علينا عشرة آلاف مثقال في العام ، وطيب لنا الكلام بأن قال : « طمع ابن عمار أن نغدر بك ؛ ومعاذ الله من ذلك أن يشيع في الدنيا أن مثلي كبيراً في الرّوم يقصدك ، وأنت كبير في جنسك ، ثم نغدر بك ا فابق على أمان ! لا أكلّفك إلا الضريبة ، تُوجّه إلى بها في كل عام دون مطّل ؛ وإن تأخرت بها ، أذاك رسول عنها وتزلمك عليه نفقات ؛ فبادر بها ! » ١٥ فقيلنا قوله ، ورأينا إعطاء عشرة آلاف في العام ندفع بها مضرته خيراً من هلاك المسلمين وفساد البلاد ، إذ لم تكن بنا قدرة على ملأاته ومكاييرته ، ولا وجدنا من سلاطين الأندلس عوناً عليه إلا من يسوقه إلينا لهلاكنا . فبقيت الأمور على مصالحة ومهادنة* ورفاهية ، لا يسمع فيها بفتنة . ٣٢ (١)

٣٧ — استيلاء الفونش السادس على طليطلة

٢٠ ومّا هيأه الله أن فقدنا وسائط السوء بعد ذلك بقدر ابن عمار ، وشغله في مرسية ، وبزوال سماجة عنا وأشياعه . وتوفى قبل ذلك ابن

ذى النون عند بلوغه آماله بقرطبة ، وكانت الأندلس قد ارتجت له ، وخافه
الروساء ؛ فلم يلبث بها يسيراً حتى مات : وكذلك الأشياء إذا تمت .
وكان أهل العلم يخبرون بذلك أنه إذا حصل على قرطبة ، فقد تمت أيامه
وإذا تم شيء ، دنا قصصه .

ثم خلع من بعله حفيده ، وقام عليه أهل بلده ، ولجأ إلى الفونس ؛
فصرفه إليها على قهرٍ وغلبة ، إلى أن جعل عليه أموالاً جسيمةً ، أشدها
ما جعل على نفسه في شراء حصن من الفونس على مقربة من طليطلة بمائة
 وخمسين ألف مثقال طيبة وخمسة مئدي من طعام ضيافة لكل ليلة مدة مقامه
عليه : أخذها من أهل بلده حتى ضعفوا . ولزمها الفونس حتى صارت إليه .
وعوض صاحبها ببكسية ؛ ولم يعترض له مالاً ولا أهلاً غير الذهب والفضة .
وكان حفيد ابن ذي النون ، في أقل ولايته ، لم يقدم شيئاً على الصدر
بوزير جدّه [ابن] الحديدى لسعاية البغاة أعدائه ؛ وسوّلت له نفسه أن
قتله لا يصح إلا على يدي قوم قد سجنهم جدّه على بصيرة ؛ فأطلقهم
وسلطهم عليه ؛ ولما تمكنوا منه ، كان كلهم عليه أشد ، وصاروا طالين للنار
وكانوا أقوى الأسباب في فساد ملكه ، وهم بنو اللوارنكى ، وبنو معيث ،
ومن الحماش إليهم . وكان قديراً على قتلهم دونهم ؛ لكن العجز وضعف
الرأى عمياً عليه وجه الصواب .

٣٨ — استيلاء ابن هود على دانية . بعض أخبار بني هود

وحصل أيضاً ابن هود على مدينة دانية بغلة صاحبها عن الرجال وحبه
٢٠ في الأموال ، مع مداخلات أوتى بها من قبل وزير ابن الرئولة ، الخارج

عنه إلى مَرْقُطَةَ ؛ فعمل عليه مع ابن هود حتى أتاه على غفلة ، ودخل
 المدينة بلا مشقة ، وحصل منها على عظام من الأموال بوفرها . وكان * ٣٢ (ب)
 عنده وَلَدٌ مُجَاهِدٌ صَالِحٌ دَارِيَّةٌ مَكْرَمًا حتى مات .

وَإِنَّ ابْنَ هُودَ ، لَمَّا حصل على دَارِيَّةٍ ، انفسد طبعه ، وأدركته الرغبة
 ٥ في البلاد ، وزال عما كان عليه من جهاد الرُّومِ ، وطَمِعَ في بَلَنْسِيَّةٍ عند
 ذلك ، وأعطى عليها أموالاً جسيمةً لأَلْفُونُشَ ؛ وَالْفُونُشُ في هذا كَلَمَةً ، على ما قدّمنا
 ذكره ، يأخذ الأموال ، ولا يَحَقِّقُ لأحد أن يهاوِده على أخذِ بلدٍ . فتوفى
 ابن هود في إثر أخذه لدَارِيَّةٍ وبلوغِ آماله منها . وقد كان ابن الخياط
 الْمُنْجَمُ ذكر ذلك كَلَمَةً ؛ ولقد قرأته في بعض كُتُبِهِ قَبْلَ أن ينتهي ، حتى
 ١٠ رأيتُه عيانًا .

وكانت قضيته في دَارِيَّةٍ كقضية ابن ذى النون بِقُرْطَبَةٍ : فَإِنَّ ابْنَ
 هُودَ اهتزت له الأندلس عند حصوله على دَارِيَّةٍ ؛ وجزع جميعُ الرُّوساءِ
 لأخذه لما دون قتال ولا زمان ، وأعدَّ كلُّ أحدٍ عُدَدَهُ مُتَأَهِّبًا لشره ، إلى
 أن أراح الله منه ، وقبضه على فِتْنَةٍ واقتبالِ أَمَلٍ .

ثُمَّ قَامَ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ الْمُؤْتَمِنُ ؛ فلم يلبث إِلَّا يسيراً حتى مات . وشعر
 ١٥ الْمُؤْتَمِنُ لابن الرُّيُولَةِ وزيرِ أبيه بأعمال فاسدة مع أَلْفُونُشَ ، ليتخذه له خدمة
 ابن عَمَّارَ ، فيرأس لملك عنده على أهل زمانه خِذْلَانًا وطغيانًا ؛ فأمر بقتله .
 وتوفى الْمُؤْتَمِنُ ، وورثه الْمُسْتَعِينُ حَقِيدُهُ هذا الوالى الآن .

وكان الْمُؤْتَمِنُ رجلاً عالماً ، قد طالع الكُتُبَ ، مع ما كان عنده من
 ٢٠ الآثار ؛ فرأى مَوْتَهُ قريباً . فكان لا يسرُّ بالملكة ، ويزهد في كثير من
 الدنيا . ولقد أخبرني بعضُ من حضر بجلسته من أعلام جُنْدِهِ أَنَّهُ كان

يُريهم ذخائره التي لم يجتمع مثلها عند ملكٍ ؛ فَيَهْتَنُونَهُ عَلَيْهَا ؛ فيقول لهم :
« ما أصنعُ بها ، والدَّدةُ يسيرةٌ ، ولا أدخلُ منها قبري إلا بكفنٍ ! »
فكان يكدر قوله ذلك عليهم ، حتى مات .

وكان مُنذِرُ أخوه بدانيةً ، إلا أنَّ أباهُ الشيخَ لم يُمكنه من مالٍ ،
ه حذراً منه أن يخالف على أخيه لحدّته وشدّةِ بأسه . فلما توفّي المُقتدِرُ ،
اضطربت الفِتنةُ بينهما . وكان مُنذِرُ منهما* يتَضَعَّضُ لَهُ وَيَتَكَافَى بِهِ ، ٣٣ (١)
لِمَا كَانَ مِنْ إِحْسَانِهِ لِلأَجْنَادِ وَمَوَاسَاتِهِ لَهُمْ ، إِلَى أَنْ توفّيَ بعد أخيه ؛
وقام ابنُ له صغيرٌ بعلمه ، يُدَبِّرُ مُلْكَهُ وَزِيرُهُ .

٣٩ — ثورة ابن عمار على المُعتدِ بِمُرسِيّة

إلى أن أخرجته منها ابنُ رَشِيق .

١٠

أعماله بعد ذلك ومهلكه الشنيع

وصار ابن عمار في حَيِّزِ الإِخْلَافِ عَلَى المُعتدِ ؛ وَجَعَلَهُ يَطْلُبُ مُرسِيّةً ،
واعتراهُ عليها مشقّات ونفقات أموال . وَجَرَى مِنْ أَسْرِ ابْنِ المُعتدِ عَلَيْهَا
ما قد شهر . وطال مكثه على مُرسِيّة ، يُحزَّبُ عَلَيْهَا الأَحْزَابُ وَيَنفَقُ
الأموال ، يُرى سُلْطَانَهُ أَنَّ السَّعْيَ لَهُ ؛ وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ يَجِدُّ لِنَفْسِهِ ،
لَكِنِّي يَتَّخِذُهَا مَعْقِلًا يَرَأْسُ فِيهِ ، كَالَّذِي صَنَعَ . وَلَقَدْ كَانَ يَقُولُ أَهْلُ
الْعِلْمِ بِالْآثَارِ وَالتَّائِيْدِ : « إِنَّ مُلْكَ بَنِي عِمَادٍ يَتَنَاهَى حَتَّى يَبْلُغُوا إِلَى تُدْمِيرِ ،
وَمِنْ ثَمَّ يَتَمُّ هَلَاكُهُمْ . وَكَانَ النَّاسُ إِذْ ذَلِكَ يَتَوَقَّعُونَ عَلَيْهِ الْفَسَادَ عِنْدَ مُحَاوَلَةِ
ابْنِ عِمَارٍ لِأَمْرِهَا ؛ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا بَعْدَهُ بِحِينَ ، عِنْدَ بُلُوغِ الْكِتَابِ أَجَلُهُ .

وصار ابن عمار بِمُرسِيّةٍ بِأَقْبَحِ طَرِيقَةٍ مِنَ الاسْتِخْفَافِ بِالنَّاسِ ، وَاسْتِعْمَالِ

٢٠

للعاصي ، والإيمان على الخمر ، حتى أبغضه أهلها . وكان للمعتد طاعة في معصية ؛ واشتهر بأخذ عريضه وهجوه بما قد تزهه الله عنه ، فقل الأوغاد والأرذال .

وقدم إلى مرسية ابن رشيقي ؛ فكان يطويها وينشرها ؛ وشبك عليه المعازل بقرابته ، وأخذ لنفسه صنائع مدة غفلة ابن عمار عنه وإقباله على راحته ، إلى أن خرج عن مرسية ، يريد لنفسه في رسالة النصراني لخدم أمر الأنظار التي تجاوره في الشرق ، وعسى يضعها في يديه ، مثل شنت مرية ، ويستقي في إصلاح ما أفسد عليه ابن رشيقي ؛ فإنه لم يجد إليه سبيلا لكتابه عليه . ولما نهض إلى الفونش ، فأول ما سمى في تضيير طليطلة إليه بمداخلة أهلها ، ليكونوا حاكين أنفسهم ، ويؤثروا الجزية

لنصراني دون رئيس . وأتى طليطلة ، وابن ذي النون فيها باسم الرسالة ، ٣٣ (ب) ووافق على ذلك ، ونحلة الفونش عليها ، في حين صرف حاجيها إليها بعد خلع أهلها له ، لينفي له بوعده ، ثم يعكس عليه القصة ، فيقتل . فشر لذلك ، وغلب حفيد ابن ذي النون القثة القائمة عليه . فقر منهم ١٥ من خلع إلى الفونش ؛ وفر ابن عمار .

ولما لم تم له خدمة الفونش في ذلك ، نهض إلى صاحب سرقطة ، وتقدم له خبر شقورة (وبها ظفر به ، وووجه به إلى المعتد) . فلما ثبت أنه استقر عند ابن هود ، غدره فيها — أعنى مرسية — ابن رشيقي ، مع استأثنه لأهل البلدة ؛ واستحسنوا ولايته . ولم تكن لابن عمار بعد ذلك رجعة إلى مرسية ، وصار خادما عند ابن هود صاحب سرقطة . ٢٠ ولما احتل بذلك القطر ، أضرمه نارا ، وأهاج فيه فتنة ؛ وصار سفيرا

لِلْإِفْرَنْجِ . وَأَمْرُهُ ابْنُ هُودَ ، وَقَرَّبَهُ ، رَجَاءَ مِنْهُ أَنْ يَنَالُ عَلَى يَدَيْهِ مَا نَالَ الْمُعْتَمِدُ ، لِذَلِكَ قَامَ لَهُ عِنْدَهُ مِنَ الطَّارُوسِ بِسَعَادَةِ صَاحِبِهِ ، لَا بِأَعْمَالِهِ . وَكَانَتِ الْعِدَاوَةُ الْوَاقِعَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُعْتَمِدِ عَلَى يَدَيِ الرَّشِيدِ ابْنِهِ ؛ فَإِنَّهُ ، بِفُسُوقِهِ ، كَانَ يَتَكَبَّرُ عَلَى أَوْلَادِهِ ، وَيَضَيِّقُ عَلَيْهِمْ ، وَيُسِيءُ الصَّنِيعَةَ ٥ مع من يجب عليه إكرامه من قرابة سلطانه ؛ والمُعْتَمِدُ ، فِي هَذَا كَلَهُ ، يَصْبِرُ لَهُ ، وَلَئِنَّهُ كَانَ قَدْ اسْتَمَالَ النَّصَارَى ، وَانْدَخَلَ مَعَهُمْ بِحِيلَةٍ : فَتَقَى مَا دُمَ أَمْرُهُ مِنْ قِبَلِهِمْ ، وَجَهَهُ إِلَيْهِمْ ؛ فَيَنْجَلِي مِنْ أَمْرِهِمْ مَا يَضَيِّقُ الصَّدْرُ بِهِ ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ بِأَمْوَالِ رَتْبِهِ وَسَعَادَةِ أَيَّامِهِ ، وَهُوَ بِجَهْلِهِ يَمْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَتَهَيَّأُ إِلَّا بِسَبَبِهِ ، وَيَرُدُّ الْحَسَّ كَأَنَّهُ إِلَى نَفْسِهِ . وَكَانَتِ هَذِهِ الْمَعَانِي مِمَّا أَحْنَقَ عَلَيْهِ الْمُعْتَمِدُ ، حَتَّى عَقِبَ عَلَيْهِ بِمَا كَانَ جَدِيرًا بِهِ ، وَأَمْسَكَهُ اللَّهُ مِنْهُ ، ١٠ وَجَازَاهُ بِمَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهُ مُبْدًى ، وَلَا رَأَى لغيره أَهْلًا . وَكَانَتِ شَقُورَةُ قَدْ أَخْلَاهَا الْمُعْتَمِدُ ، وَبَنَى صَاحِبُهَا — عَيْدٌ مِنْ عَيْدِ سِرَاجِ الدَّوْلَةِ — أَنْ يَضَعَهَا فِي يَدَيْهِ ؛ فَلَمَّا صَارَ* ابْنُ عِمَارٍ إِلَى سَرَقُوسْطَةِ ، نَهَضَ إِلَى الْعَبْدِ الْمَذْكُورِ ، ٣٤ (١) عَسَاةَ يَرْجِعُ إِلَى طَاعَةِ ابْنِ هُودَ ؛ فَتَمَقَّقَهُ وَأَرْسَلَ بِهِ إِلَى الْمُعْتَمِدِ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ قَتَلَهُ شَرًّا قَتْلًا . ١٥

وإِنَّ ابْنَ رَشِيقٍ بَعْدَ ذَلِكَ سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ الْخِلَافَ عَلَى الْمُعْتَمِدِ ، وَاحْتَجَّ بِأَنْ قَالَ : « لَمْ يُقَدِّمْنِي إِلَى مُرْسِيَّةٍ ! » وَزَعَمَ أَنَّ أَهْلَ الْبَلَدِ اخْتَارُوهُ ، وَأَنَّ مُقَدِّمَهُ إِنَّمَا كَانَ ابْنُ عِمَارٍ مَتَى ذَهَبَ عَنْهَا . وَسَدَّ كُرَّ مِنْ أَمْرِهِ بَعْدَ هَذَا ، عِنْدَ ذِكْرِ أَحْوَالِ الْمُرَابِطِينَ — أَعَزَّمَهُ اللَّهُ — وَقَصَدَهُمْ ٢٠ إِلَى لَيْسِيطَ ، مَا انْقَضَى مِنْ خَبَرِهِ عَلَيْهَا مِمَّا هُوَ مَشْهُورٌ .

٤٠ - عقد الصلح بين عبد الله وبين المعتمد صاحب إشبيلية

لَيْسَ كُلُّ النَّاسِ عَليمٌ سرِّ الْأَمْرِ كَالَّذِي نَصِفُهُ نَحْنُ . والدليلُ على ما قَدَّمناه ذِكْرَهُ من ارتباطِ الْمُعْتَمِدِ إلى الْخَيْرِ وإِشارِهِ للصلح بزوال هذا الفاسق ابن عمار عن دولته ، لم يُرَ بعده فِتْنَةٌ فيما بَيْنَنا وَبَيْنَهُ ؛ وَحَقُّ معنا في كُلِّ أَمْرٍ ، كَالَّذِي قَعَلْنَا نَحْنُ معه . وَجَدَدْنَا العَدَّ على ما ارتضىناه من مُعَاوَضَاتٍ ، سِوَى ما كان قَدِيمًا يده ، ممَّا خرج عَنَّا في أَيَّامِ الْمُظَفَّرِ ، وَأَخَذَتِ الْفِتْنَةُ عَلَيْهِ حَقَّهَا ، ولم يوجَد في طَلَبِ ذلك خَيْرٌ ، ولا إلى غير المصالحة سبيلٌ ،

١٠ قَرَّرَتِ الْأَحْوالُ قَرَارَهَا ، وَتَهَيَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بِمُلْكِهِ إِلَّا ما كان من سَيْفِ بَرَّائِي يَعْتَرِضُ بِلادَنَا من الرُّومِ ؛ فَكان الرُّزْمُ فيه واحداً والمشاركة سواء ؛ وإن كُنَّا لا نَقْدِرُ على ذلك بالإمداد بَعْضُنا لِبَعْضٍ لضعفِ الحالِ ، فَكُنَّا تشارِكُ بِالْمُدَاخَلَةِ وإِعمالِ الرَّأْيِ والتحذيرِ من أَمْرٍ عسى أن يكون خفي عن الآخر وما أشبه ذلك .

٢١ - المؤلف يتحدث عن منهجه في كتابة مذكراته

١٥ وإذا أَتَيْنَا على ذِكْرِ جُمْلَةٍ من أحوالِ الْأَنْدَلُسِ الْحَادِثَةِ فيها ، المشهور خبرُها حسبما استفاض ، وَتَرَكْنَا وَصْفَ الاختلافات ، إذ يوجد الحقُّ في طرفٍ واحدٍ ، ولم يكن منها ما طَوَّلَعَ بِالمُشاهدةِ ولا بِالْمَعَايِنَةِ أَكْثَرَ من إِشَاعَةِ خَبَرٍ ، ذَكَّرْنَا منه ما يَنْقاسُ في العقل ، وَحَدَفْنَا منه الإكثارَ والمشتبهات . وإِنِّه ، متى أَتَيْنَا على ذِكْرِ خَبَرٍ حادِثٍ في دَوْلَتنا ممَّا حاوَلْناه

أو شاهدناه* أَطَبَّنَا فِي وَصْفِهِ ، وَقَتَلْنَاهُ عِلْمًا إِلَى آخِرِهِ ، وَأَخْبَرْنَا بِسَرِّهِ ٣٤ (ب)
 عَنْ جَهْرِهِ ، وَبَارَقَ الْأَسْبَابَ فِيهِ . وَالْإِطْنَابُ فِيمَا يَحَاوِلُ الْإِنْسَانُ أُبْلَغُ
 وَأُنْعَتُ مِنْ وَصْفٍ لِلشَّاهِدَةِ لغير ما يُخَصُّهُ ، كَمَا أَنَّ وَصْفَ الْمَشَاهِدَةِ ، وَإِنْ
 كَانَ لَا نَعْنِيهِ ، أُبْلَغُ مِنْ ذِكْرِ الْمُسْتَفَاضِ الَّذِي لَمْ يُوقَفْ عَلَى حَقِيقَتِهِ ؛ فَإِنَّمَا
 يُذَكَّرُ مِنْهُ مَا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ ، ثُمَّ يَخْتَرِي وَاضِعُهُ عَلَى أَنْ يَضَعَ فِيهِ مِنْ عَقْلِهِ
 ٥ دُونَ الْأَغْلَبِ عَلَيْهِ عِنْدَ الْعَامَةِ ؛ فَيَصِيرُ مُكَذِّبًا .

ولهذا ما اختصرنا من الكائنات المشهورة بالأندلس كثيراً من الأخبار
 عنها ، واقصرنا على الإطناب فيما يخصنا منها ، مما حاولناه أو رأيناه عياناً .
 والحقيقة من الخبر عونٌ كبيرٌ على ما يروى الإنسان من صفةٍ في منظوم
 ١٠ أو منشورٍ ، كالمادح أو النامٍ ؛ فإنه ، إذا وجد إلى المقال سبيلاً ، أطنبَ
 وأبْلَغَ ، وَإِنْ كَانَتْ بَعْضُ زِيَادَةٍ ، فَإِنَّهَا لَا تَمُكِّنُ إِلَّا فِي الْأَغْلَبِ وَالْأَكْثَرِ ،
 وَيَكُونُ فِي ذِكْرِ الْأَمْرَيْنِ مُصَدِّقًا لِمَعْرِفَةِ النَّاسِ بِهِ ؛ وَلِأَنَّ كِتَابَنَا لَمْ يَكُنْ
 مَبْنِيًّا إِلَّا عَلَى وَصْفِ تَمَلُّكِنَا خَاصَّةً ، « وَالْحَدِيثُ ذَوْشُجُون » ؛ فَلَا بُدَّ
 مِنْ ذِكْرِ جُمْلٍ مِنْ غَيْرِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى وَصْفِهِ أَوْ ضَرْبٍ مَثَلٍ بِهِ ،
 ١٥ تَزِينًا لِلْكَلَامِ وَإِقَامَةً لِلْبُرْهَانِ وَدَوْرَانًا عَلَى الْحَقِيقَةِ .

الفصل السادس

إمارة عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب
(٢) مشاكل غرناطة الداخلية إلى قدوم المرابطين

٤٢ - عزل الوزير سِماجة

ثمَّ إجلالُه واستقلال عبد الله في الأمر

وإنه ، لما تهدت لنا الأحوال وقرَّ مُلْكنا قَرَارَه بِمُصَالَحَةِ الْمُعْتَمِدِ ،
وَمُعَاقَدَةِ الرُّومِ عَلَى الْمُهَادَنَةِ ، وَتَوَطُّبِ النَّفْسِ عَلَى مَا نَعْطِيهِ ^(١) فِي الْعَامِ ،
انصرف نَظَرُنَا إِلَى إِصْلَاحِ أَمْرِ بِلَادِنَا ، وَالنَّفْثِ عَلَى رَعِيَّتِنَا ، وَالكَشْفِ
عَلَى الْعَمَالِ إِنْ كَانُوا عَادِلِينَ أَوْ ظَالِمِينَ . وَلَمَّا شَعَرَ بِذَلِكَ خَدَمَتُنَا وَمَنْ كَانَ
لَهُ مَذْهَبٌ فِي نَصِيحَتِنَا ، اتدب جميعهم إلى الإعلام بما عنده والتنبيه على
ما خفي عنَّا زَمَانِ تِلْكَ الْفِتْنَةِ ؛ فَكُنَّا لَا نَقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمْ عَلَى الْآخِرِ إِلَّا بَعْدَ
رُويَةٍ وَهَجُومٍ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، حَذَرًا أَنْ يَكُونَ مَقَالُ أَحَدِهِمْ حَسَدًا لِلْآخِرِ
أَوْ طَلَبًا لَا يُتَّقَى اللَّهُ فِيهِ . ١٠

وكان سِماجة ، وزيرُ دَوْلَتِنَا الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرَهُ ، قَدْ شَعَرَ بِذَلِكَ وَأَحْسَهُ
مِنْهَا ؛ فَاعْتَمَدَ لِلْأَمْرِ* وَعَمِلَ فِي نَفْسِهِ ، وَشَكَاهُ إِلَى إِخْوَانِهِ ؛ وَكَانَ فِيهَا قَالَ ٣٥ (١)
لَهُمْ : « إِنَّمَا كُنَّا نَطْمَعُ بِالتَّحْكُمِ عَلَى هَذَا الرَّئِيسِ وَالتَّمَكُّنِ مِنْ دَوْلَتِهِ مَدَّةً

(١) أصل : « نطموه » .

- أَيَّامَ صَبُوتِهِ ، يَعْنِي صَغَرَ سَنَّهُ . وَأَمَّا الْآنَ ، فَلَسْنَا نَجِدُ سَبِيلًا إِلَى رَدِّهِ
 عَنْ دَوْلَتِهِ ، لَا بَقِيَّةَ تَحْمِينَا ، وَلَا بَصْعَرِ سَنٍ نَجِدُ بِهِ السَّبِيلَ إِلَى صَرْفِهِ عِنْدَ
 الْعَامَّةِ وَتَسْفِيهِ رَأْيِهِ ، لَا سِيَّامًا إِذْ كَانَ رَأْيُهُ النَّظَرُ مِنْ دَوْلَتِهِ وَالبَحْثُ عَنْهَا .
 فَقِيلَ لَهُ : « لَسْتُ ^(١) نَجِدُ سَبِيلًا إِلَى أَكْثَرِ مِنَ الْمُدَارَاةِ لَهُ ، وَالْإِتْيَانِ لِمَرْغُوبِهِ ،
 وَقَلَّةِ الْخِلَافِ عَلَيْهِ لِثَلَا يَتِمَّكَنْ عَدُوُّكَ مِنْكَ ، وَيَشْتَفِيَ حَاسِدُكَ عَلَيْكَ . فَهُوَ ،
 إِذَا وَجَدَ مِنْكَ الَّذِي يَرْغَبُ ، لَمْ يَلَيْثَ أَنْ يُعْمِلَ النَّظَرَ وَالْخِدْمَةَ وَيُقَوِّضَ
 الْأَمْرَ إِلَيْكَ ! ثُمَّ أَنْتَ بِالْخِيَارِ عِنْدَ عَقْلَتِهِ وَإِقْبَالِهِ عَلَى رَاحَتِهِ ! وَعَلَيْكَ
 بِإِشْعَالِهِ بِالنِّسَاءِ ، وَجَعْلٍ لَهُ ابْتِيَاعِ الرِّقِيقِ ! وَلَسْنَا نَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ يَشْنَأُكَ مِنْ
 تَحْجِيرِكَ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّهُ نَظُنُّ بِهِ مَا يُظَنُّ بِهِمْ كَانَ فِي سَنِهِ ! »
 ١٠ فَعَمِلَ ذَلِكَ . وَكَانَتْ هَذِهِ الْفَتْرَةُ الَّتِي دَبَّرَهَا مِنْ سَعَادَتِنَا وَتَمَكُّنِنَا مِنْ
 آمَالِنَا فِي الَّذِي ذَهَبْنَا إِلَيْهِ مِنَ الْإِسْتِبْدَادِ بِمُلْكِنَا ؛ فَإِنَّهُ شَبَّكَ عَلَيْنَا التَّعَاقِلَ
 بِبَنَى عَمِّهِ ، وَأَشْدَّهَا عَلَيْنَا مَدِينَةَ الْمُنْكَبِّ . فَجَلَّ يَطْلُقُ لَنَا الْعِنَانُ فِي كُلِّ
 مَا نُرِيدُهُ ، وَاشْتَرَى الرِّقِيقَ ، وَجَعَلْنَا نَخْرُجُ إِلَى النَّزَاهَةِ فِي الْبِلَادِ ، يُرَى
 بِذَلِكَ الْإِنْصَافِ وَالنَّائِي ، إِذْ كَانَ الرَّجُلُ مَتَّعِبًا ، خَائِفًا مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ ،
 ١٥ مَعَ أَنَّهُ كَانَ خَائِفًا مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ كُتُبِ اسْتَعْمَلَهَا عَلَى أَلْسِنَتِنَا
 أَقْوَامٌ مِنْ أَعْدَائِهِ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْ صِنَاهَا جَاءَ بِأَمْرٍ فِيهِ بَقْتُهُ ، وَتَحَنَّنَ بِرَأْيِ
 مِنْهَا ؛ فَظَفَرَ بِالْكُتُبِ ، وَأَنْزَلَ بِنَا التَّهْمَةَ ، وَأَمَرَ بِقَتْلِ أَوْلَئِكَ الْمُسَمِّينَ فِي
 الْكُتُبِ ، وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ أَتَاهُمْ مِنْ كُرَاهِمِ بَادِيسَ — رَحِمَهُ اللَّهُ .
 وَكَانَتْ تِلْكَ اللَّمَانِي مَقَدِّمَاتُ تَعَارِلُهُ لِعَزَلَتِهِ . فَلَمَّا كَانَتْ وَجْهَتَنَا إِلَى
 ٢٠ وَادِي آتَشَ عَنْ اخْتِيَارِهِ ، وَقَدْ كُنْتُ عَمِلْتُ مُعْتَقِدَةً فِي ذَلِكَ كَأَنَّهُ بِالْقِيَاسِ

(١) أصل : « لَيْسَ » .

والتيّز مع بعض الأخبار ، قلتُ في نفسي : « هذا رجلٌ قد اعتاد الأمرُ* ٣٥ (ب) والنفي ، ورأى من يَقْطَعُنا للدولة ما لم يكن يُريده ؛ وليس فعله هذا بهواه ؛ وكلُّ شيء يضطرُّ فيه الإنسان ، فإلَيْهِ لا يؤمن خلافه ، والرجة عنه ، والاستحالة فيه عند الأمن من مكروهه ! فنكون أبداً نكابد منه ما لا يوافق ! وإن فاتتني هذه المرة ، أَكُنْ كَمَنْ نُبِّهَ على أمرٍ وحذر من نفسه ، ثم أوبق نفسه إلى المضرات . وإن أغضينا هذه المرة وعاد إلى ما كان ، ثم تَرَى منه خلافاً ، لم تقدر عليه بشيء ، إذ يكون نظره لنفسه أجود من هذا النظر ، فإنَّ هذا الأمرُ متا جَاءَهُ فجأةً لم يحسبُه ولا ظنَّ به ؛ والفرصُ تُمرُّ مرَّ السحاب ! فإدامنا^(١) نَحْنُ بالخيار عليه ، لا تتربّص حتى يكون هو بالخيار علينا ! » ١٠

فأراد إشاعة عزليته بالحضرة عند إمكان السفر ؛ فلم تزل تلك وجهاً إلّا ونحن خارجون عنها ، ليكون أشنع في الناس وأقطع لئاس الرعايا ، مع أنّي ، إذا حركتُ هذا بالحضرة ، دخلته الصنّاعة ، وكتم عن الناس ، وشغبت امرأته من الدار . فلما وصلنا وادي آش ، جعلتُ من يدوس إلى الرعية أن ترفع بمظالمها ؛ وكان عاملها ابنُ أبي جوش ، صنيعةً سَمَاجَة للذكور ؛ فأمرتُ عند شكواها ١٥ ببقائه . فأنكر الناس ذلك ، وهان عليهم أمره . وجمعتُ الرعايا والوزراء ، وحددتُ لهم حداً يَقِفُونَ عنده إلّا يجعلوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ واسطةً ؛ وأمرته هو بالنزاه ما يخصه نفسه ، وأن لا وزير لدولتي إلّا نفسي ؛ وحددت لكلِّ خادم ما تكون طريقته أن لا يتعدى سواها . فسرَّ بذلك جميع الوزراء ، ٢٠ إذ تساوَتْ أقدامهم ، وانكشف حجابي لهم ، لكي تكون حوائجهم إلى

(١) أصل : « مادام » .

- دون مَنْ هو مِثْلُهُمْ أو دونَهُمْ . واعتبط الرعايا بعزلة الظلّة عنهم . وعزلت كلٌّ من يُتهم بخيانة ، وقدّمتُ عمّالاً إلى الجهات ، أريد تجديد الدولة . وعزلتُ بنى عمّه من الحصون ؛ ولقد كان فريقٌ منهم ، لنا سمعوا بذلك ، يفرّون منها ويتركونها حتّى يوجّه إلى جندّها عن قائدٍ . ولم نلقَ في ذلك * كُلهُ مَشَقَّةٍ . ولم يبقَ إلّا ابن عمِّ له ، صاحبُ المُنْكَبِ ؛ ٣٦ (١)
- فخرج ، إن تركّه ، أن يوجد إليه السبيل بسببه ؛ فأخبرني بالأمر ، وسألني إرسال قائدي إليه ، فزُل . وسأل زَاوِي زوالَ أخيه بَلْبَار عن وادى آش . فكان ذلك كُلهُ على أُنْكَن سعادة وأجود تقدير ، للذي شاء الله من تمام أَيّام وِزارته .
- ١٠ ثمّ أَمْنْتُهُ في نفسه ، وأبقيتُ عليه جميعَ أمواله إلّا الذهب والفضّة ، وسوّغته إنزالاً ينعاش فيه ، وأمرته بلزوم مجلسي وأنه مُكْرَمٌ طول حياتي . قَبْلَ الرجلُ ذلك كُلهُ ، وأطاعنا في كلِّ أمر أَرَدْنَاهُ دون خِلاف ولا إظهار لتقصية ؛ فإنّه كان جزوعاً ، قليلَ الجرأة على العظام ، ولأنّه لم يجد فتّةً تُعينه . ولنقّي بذلك أَمْنْتُهُ في نفسه ، ومضى عليه دَهْرٌ طويلٌ على لزوم المجلس دون خِدمة ، فلم يتركّه .
- ١٥ وخاف منه مَنْ سعى في أمره من أهل الدولة ، وتوقّعوا منه العودة ؛ فلم يزالوا يُعرون به ، وينقلون عنه من قبيح القول ، ويخافون من مغبة أمره ، ما لم ترّ معه وجهاً لإمساكه في البلدة ، احتياطاً على أنفسنا ؛ ورُبّما كدحت بعضُ تلك الأقاويل ، فهلكَ من أجلها . ولا استطاعنا حينئذٍ
- ٢٠ على مُعاقبته لِمَا ارتكب في صدر الدولة من قتل أولئك النساءِ وَمَنْ جرى مجرأهنَّ ، لشركته في ذلك مع سيّواه من شيوخ تلكاتة ؛ فيسوه ظنُّ

الجميع ، وتفسد من سببه الأحوال ؛ فلا يقوم فسادُ المملكة وسوء عاقبة الأمر بما يلزم من إقامة الحدِّ . فرأينا من الصواب أن يرتحل عنا دون تغيير ولا إبلاغ في عقوبة ، استمالاً لأنفس الناس ، وبسْطاً لأموالهم . فخرج بجميع أثاثه وخدمه ودوابه وجميع ثيابه وفروشه ، مشيعاً إلى التمرية . فكان المعتصمُ يُكرمه من أجلنا ، ولا يأسُ أن نصرفه إلى منزلته ، فيقدم ذلك الإكرامُ عنه . وخرَّجت امرأته بجُلِّي كثيرٍ من الجواهر ، حاشى ما خفى عنا من المال ؛* وإنما صار إلينا ما أعطيناه بأيدينا من الذهب والفضة أوَّلَ (ب) ولايتنا ، وقتَ فتَح بيتِ المال ؛ ولم تتحقَّ ما اكتسب منها مدَّة خدمته لنا ، ولا بحشنا عن ذلك .

١٠ ٤٣ — النزاع على الحدود بين مملكة غرناطة ومملكة التمرية .
تعاقب أحداثه وحلُّه

ثمَّ قُمْنَا من بعده في أمور البلاد والرعايا بأحسن قيامٍ وأتمَّة ، وجعلنا الأمان على البحث والتعقب ورفع المظالم إلينا . ودام الأمرُ على ذلك دَهراً طويلاً .

١٥ وإمَّته ، في إثرِ مَضَى سِمَاجَةِ المذكور إلى التمرية ، بلغنا أنه حَقَر الدولة لابن صَادِح وطعمه فيها ، لِمَا كان يَرَى من طمع الرجل الذي قد شهر به — رحمه الله — ؛ فَإِنَّهُ كان كثيرَ الطمع ، قليلَ الجسر ، ضعيفَ المنة . ففعل قَوْلُهُ في نفسه ، وَرَجَا أن ينالَ على يَدَيْهِ فُرْصَةً بِمُدَاخَلَةِ أو إِذْلَالِ على مَوْضِعِ فائدةٍ ، كاللَّي تَهَيَّأَ له مع اليهودي .

٢٠ ووافقَ ذلك أن وَقَعَتْ بين قَائِدَي النِّظَر ما بين فِتْنَانَةٍ وَالْمُنْتَوَرِي

مُشَاجَرَةٌ عَلَى الْجِهَاتِ ؛ وَلَمْ يَنْهَيَا حِيَازَةَ ذَلِكَ النَّظَرِ إِلَّا بِبُنَيَّانِ الْمُتَنَوِّرِي
 المذكور . وَقَدْ كُنْتُ ، عِنْدَ وَجْهِي إِلَى فَنِيَانَةٍ ، أُرْسَلْتُ إِلَيْهِ رَسُولًا يُعَلِّمُهُ
 بِوَرُودِي عَلَيْهِ ، وَسَأَلْتُهُ تِلْكَ الْقُرَى لِلصَّاقِبَةِ لَهَا وَإِنِّهَا أَوْلَى بِذَلِكَ التَّعْقِلِ
 لِقُرْبِهَا ، وَتَطَارَحْتُ عَلَيْهِ فِي الْمَكَارِمَةِ بِهَا ؛ فَكَانَ مِنْ جَوَابِهِ لِلرَّسُولِ :
 ٥ « هَيْهَاتَ ! لَيْسَتْ ^(١) تُمَلَّكَ الْأَقْطَارُ إِلَّا بِالْبُنَيَّانِ وَالسَّيْفِ ! » فَلَمَّا عَلِمْتُ مِنْهُمْ
 ذَلِكَ الْحِصْنَ عَلَى الْعَرِيَّةِ ، وَبَلَّغْنِي مَا كَانَ مِنْ تَطْمِيعِ سِمَاجَةٍ ، وَتَذَكَّرْتُ
 مُرَاجَعَتَهُ عَنِ الْقُرَى ، أَغْضَبْنَا ذَلِكَ وَلَمْ نُؤَخَّرْ أَنْ عَاجَلْنَا بِبُنَيَّانِ ذَلِكَ التَّعْقِلِ .
 فَقَامَ عَلَى الْمَقَامِ بِالْحِدِّ وَالْقُوَّةِ ، وَجَعَلْنَا فِيهِ حُمَاةَ الرِّجَالِ ؛ وَضَاقَتِ الْعَرِيَّةُ
 مِنْ أَجْلِهِ ؛ وَاحْتَبَجَّ إِلَى بُنَيَّانِ مَعَاوِلَ غَيْرِهَا ، تَوَقُّعًا أَنْ نَسْبِقَ إِلَيْهَا ،
 ١٠ فَيَكُونُ عِوَضًا عَنِ الْمُتَنَوِّرِي . فَقَامَ بُنَيَّانُهَا عَلَى سَاقٍ ، وَصَارَتْ كُلُّهَا حَرْزًا
 لِلجِهَاتِ الَّتِي لَنَا ، وَأَقْفَالًا عَلَيْهَا ، وَضَرَرْنَا عَلَى جِهَاتِ الْعَرِيَّةِ . فَعِيلَ بِالْأَمْرِ ،
 وَضَاقَ بِهِ ذُرْعًا ؛ وَكَانَ لَا يُوجِّهُ * عَسْكَرًا إِلَى مَوْضِعٍ إِلَّا هُزِمَ ؛ وَأَسْرَنَّا ^(٢) ٣٧ (١)

كِبَارَ رَجَالِهِ عَلَى طَرَلَبِش .

وَكَانَ عِدَّةُ مَا يُبْنَى عَلَيْهِ سَبْعَةُ حَصُونٍ . وَكُنْتُ مَعَ هَذَا أَمْرٍ ^(٣) أَهْلَهَا
 ١٥ بِالرَّفْقِ وَحَرْزِ جِهَاتِهَا إِلَّا يَتَطَرَّقُ إِلَيْنَا طَالِبُ شَرٍّ . وَإِنِّي إِنَّمَا بَنَيْتُهَا صَوْلَةً
 وَتَهْيِيبًا ، حَتَّى نَصَالِحَ الرَّجُلَ عَلَى مَا يَتَّعَ بِمَوَاقِفَتِنَا ، وَيَعْرِفَ أَقْدَارَنَا .
 وَإِنَّهُ ، لَمَّا ظَهَرَ مِنْ كَلْبِ الرُّومِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ مَا ظَهَرَ ، وَرَأَيْتُ نَفْسِي
 ظَافِرَةً مَتَى رُمْتُ مَعَ ابْنِ صَمَادِحَ فِتْنَةً ، وَتَبَيَّنَ لِي ضَعْفُهُ عَنِ الْمُنَاطَرَةِ ،
 صَرَفْتُ نَفْسِي عَنِ التَّمَادِي وَالْإِلْحَاحِ ، وَقُلْتُ : « أَنَا فِي مِثْلِ هَذَا مُدْرِكٌ ! »
 ٢٠ لَا يَفُوتُ مِنَ الْأَمْرِ مَتَى أَرَدْتَاهُ شَيْءٌ . وَحَسَبْنَا مَا قَدْ ظَهَرَ إِلَيْنَا ؛ فَلَا يُبَاهَى

(١) أصل : « ليس » . (٢) أصل : « ناسر » .

أُولَى ، وإصلاحُ الأمر مع الجار — وجارٌ ضعيفٌ يُبْقَى عليه — خَيْرٌ من هَيْئَتِنَا قَوِيٍّ لا يُرام ! ولقد كان المُظَفَّرُ على بَصِيرَةٍ من إِيَابَتِهِ لدَوْلَتِهِ وإِبْقَائِهِ عليه ؛ ولنا فيه أُسْوَةٌ وَقْدُودَةٌ ! »

فصَالَحْتُ الرَّجُلَ ، وَأَمَرْتُ بِهِدْمَ تِلْكَ الْحِصُونِ ؛ وَنُشِرَتِ لِلرَّيَّةِ مِنْ كَفَنِ . وَتَمَكَّنَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَدَنَا ، وَصَارَ أَصْدَقَ النَّاسِ لَنَا :
ولا خَيْرَ في حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكْدَرَا
فَلَمْ تَزَلْ مُتَعَاقِدِينَ مُتَشَارِكِينَ فِي الْحَلُوِّ وَالْمُرِّ إِلَى انْصِرَامِ الْأَجَلِ ،

٤٤ — تَوْجِيهِ عَسْكَرٍ ضِدَّ تَمِيمِ بْنِ بُلُقَيْنِ صَاحِبِ مَالِقَةِ
وَأَخِي الْمَوْلَفِ ، وَنَصْرِهِ إِيَّاهُ

١٠ ثُمَّ لَمْ نَلْبِثْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى جَاءَنَا مِنْ أَخِينَا تَمِيمٍ خِمَةٌ لَمْ نَحْتَسِبْهَا
بَعْدَ أَنْ رَأَى ظَهْرَنَا ، وَصُلَحْنَا مَعَ سَلَاطِينِ الْأَنْدَلُسِ ، وَمَا صَنَعْنَاهُ بِجِهَاتِ
الرَّيَّةِ ، لَمْ يَفِرْقَ بَيْنَ هَذِهِ الْحَالَةِ وَالْحَالَةِ الْأُولَى ، لِفَرَارَةِ الصَّبَا وَقَتِ اصْطِكَاكِ
الْفَتَنِ وَالشُّغْلِ الشَّاعِلِ . فَحَسِبَ الزَّمَانَ كُلَّهُ وَاحِدًا . وَلَمَّا سَكَبَتْ عَنْهُ قَبْلُ ،
لِهَذِهِ الْعِلَّةِ عَلَى مَا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ مِنْ بَدَأِ أَمْرِهِ ، تَمَادَى عَلَى تِلْكَ الْأَفْئَالِ . فَأَرْسَلَ
قَطَانَهُ إِلَى حَرْبِ الْمُتَكَبِّ وَشَاطِطِ ، وَخَوِيلَةً فِي إِثْرِهَا لِلضَّرْبِ عَلَى النَّظَرِ
لِلْمُصَاقِبِ لَهَا . وَأَتَانِي أَهْلُ تِلْكَ الْجِهَاتِ شَاكِينَ بِالْأَمْرِ ؛ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي :

« هَذَا إِنْسَانٌ لَمْ يُبَصِّرْهُ الدَّهْرُ ، وَلَا حَكَمَتُهُ التَّجَارِبُ : وَمَتَى تَرَكْنَاهُ * عَلَى ٣٧ (ب)
هَذَا ذَاتَبَا ، وَلَمْ نُوَدِّبْهُ عَلَيْهَا ، تَمَادَى شَرُّهُ ، وَحَسِبَ أَنَّ ذَلِكَ لِهَيْئَتِهِ ؛ فَازْدَادَ ،
وَلَا تَنْفَعُ فِيهِ مَوْعِظَةٌ وَلَا قِيلٌ ! » فَلَمْ نَجِدْ بُدًّا مِنْ تَأْدِيبِهِ وَزَجْرِهِ ، فَإِنَّ الشَّيْءَ تَمْحَرُّهُ
٢٠ وَقَدْ يَنْبَغِي ! وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ الْإِغْضَاءُ لِمَعَانٍ تَوَقَّعْتُ ، وَانْتَظَرْتُ بِهِ لِحَسَنِ الْعَوْدَةِ

وروية البصيرة . فإذا قد يَتَسَنَّا من هذا وأَمِنَّا ما يُشْغِلُنَا عنه ، فَتَرَكُهُ على هذه الضلالة من العجز والخرق ! »

وَوَافَقَ ذلك الزمان اشتغالُ الْمُعْتَمِدِ بأمرِ الْفُونَشُ ؛ فَإِنَّهُ نَازَلَ إِشْبِيلِيَةَ لتباعات تسبب بها ؛ وضائق الحال من أجله . فَاتَّفَقَ الأمرُ وتهَيَّأتِ الأسبابُ على حين غفلة وانتهازِ فُرْصَةٍ . فَهَضَمْنَا بأنفسنا إلى ذلك القطر ؛ فَوَاللهِ ! ما سمع بنا أهلُ حصونه ، ولم تتداركْ بالخروجِ صبيحة ذلك اليوم ، حتى وَرَدَ علينا عن حصنِ الْقَصْرِ بِمَجْمَعِ صَالِحَةٍ أَنَّهُ صارَ في مِلْكِنَا وطَاعَتِنَا رَعِيَّتُهُ ؛ وهو حصنٌ أَوَّلُ من يطوع وآخرُ من يعصى لدَوَى الغلبة والظهور ؛ فاستبشرنا بذلك ، وصِرْنَا إلى الْحَمَّةِ ، نزوم منها أمرَ ذلك النَّظَرِ . فَأَعْلِمْتُ بِصَخْرَةٍ دُوِمَسَ (ولا معنى لِرِيَّةٍ إِلَّا بها ، وهي موسطة البلد) ، وقد اجتمع فيها جلُّ عساكرِ مَالَقَةٍ مع قُوَادِ صَاحِبِهَا ؛ فلو انْتَزَعَتْ تلك الشوكة ، كان أمرُ غيرها يسيراً هَيِّنًا . فَاسْتَعَدَدْنَا لِقَاتِلَهَا ، وضارَبْنَاهُمْ في أَوَّلِ النَّزْوِعِ عليها . فَجَزَعَ مَنْ فيها من الجُنْدِ ، وأرسلوا إلينا تلك الليلةَ يطلبون الأمان ، ويخرجون بخيلهم سائمين في مَهْجِهِمْ . فَأَجَبْتُهُمْ إلى ذلك ، عسى أن نكون نستميل غيرَها بهذه الأيادي ؛ وأُخْلُوا الصَّخْرَةَ ، وصار فيها جُنْدُنَا .

وانتقلنا عنهم إلى حصنٍ كان صاحبُ مَالَقَةٍ قد بناه لقطع الطريق بيننا وبينه أَوَّلَ قِيَامِهِ ، على ما رسمناه ؛ فلم يكن إِلَّا ساعةَ قَلْمُونَا عليه وتخاذلَ مَنْ فيه ، ودُخِلَ قَسْرًا ، وهو حصنٌ أَشَدُّ نَجْدٍ . ثُمَّ نَهَضْنَا إلى مَرِيَّةَ بَلَّسَ ؛ فَأَلْقَتْ يدها . وأردتُ التماسي إلى بَزْلِيَانَةٍ .

٢٠ وكان كِتَابُ * بنِ نَمِيمٍ صاحبِ أَرْجُدُونَةِ ، قَائِدُنَا ، قد استغْلَقَ (١) ٣٨ في تلك الجهة ، وزعم أَنَّهُ لا يتعرَّضُ إلينا . فَلَمَّا رَأَى ظَهْرَنَا في هذه المَعَاوِلِ ،

خاف أن يصفو الجو ويصرف البال إليه ، فرام أن لا نصل إلى بزيانة
وحذر من ذلك . وكان وراءنا حصنٌ مُنت ماس ، رأيتُ أنه لا تتمكّن
لنا مُنازلةٌ مألقةٌ إلا بالراحة منه ؛ فإنه يمنع الليرة إلى الصلّات . فانصرفنا
من بزيانة نريد مُنت ماس المذكورة ، وأظهرنا لكباب الأخذ برأيه ؛
فسرّ بذلك .

ولما نهضتُ إلى مُنت ماس ، رأيتُ معقلاً عظيماً ، قد اجتمعت به جميع
الرعايا ؛ فعرّضنا عليهم الطاعة ؛ فأبوا ، خيفةً منهم أن نكون غداً نُهالِح
أخانا ويُقابِلهم ؛ فأمنّاهم من ذلك . واجتمع فيه كلُّ فاسقٍ من أهل الشرِّ ،
وأعرّضنا عليهم الحرب بأنفسنا ، وتركناهم على ذلك ، ورتبنا عليهم الرُتب
وانصرفنا إلى غرناطة . وفي انصرافنا ، طاعتُ لنا غيرُها من العقيل ، مثل
أيرُش وصخرة حبيب . وكُنّا في أوّل وجهتنا قد أخذنا رِييئةً بالسيف
قسراً ؛ وطاعت لنا جُطُرُون ؛ وهما قصبتنا مألقة . وطارت في تلك المدة عن
يده عشرون معقلاً . وانصرفنا إلى مُنت ماس ثانية ؛ ويئسوا من تركهم ،
وطاع أهلها ؛ وهتفتنا ؛ وهدمنا من الحصون ما نستغنى عن إمساكها
بغيره ؛ وأمنّت الجهة وبجحتُ عن فوائدها ، وصار ذلك مُقيداً ؛ وأوسقنا
أهلها خيراً .

ولما رأى أخونا مادمه من الأمر ، وقيام رعيته عليه ، خاف على نفسه
من أهل البلد ، مع تَبَرِيزنا نحنُ عن مألقة في حين أخذِ مُنت ماس . واشتغل
بعض الناس بقتال انحازوا إليه دون مَوْضِعِنَا ، وتبعهم أكثرُ عسكرنا ،
فاتهر أهلُ مألقة الفرصة ، لما رأوه من قلةٍ مَنْ في المَوْكَب معنا ، وخرجوا
على باب فُنَنَالَة ، وحملوا على * العسكر حملةً اختلط فيها الفريقان . ولما رأيتُ ٣٨ (ب)

يفرار مَنْ معنا واختلاطهم بِجُنْدِ مَالِقة ، أَسْكَنَّا على العَلَامَات ، وَأَمَرْنَا بضرب
الطبل بعد تولّيه ، حتى اجتمع إلينا بعضُ الناس لَمَّا رأوا ثبوت العَلَامَات .
ثُمَّ كانت لنا عليهم الكَرْة ، بعد أن أُسِرَ بعضُ رجالنا ؛ فَأَقْدَوْهم ، وهزَمُوا
عَسْكَرَ مَالِقة ؛ وكان بها من جُنْدِ البربرِ نحو ثلاثمائة فارسٍ أُنْجَاد ، إِلَّا أَنَّ
الحزم دَاخَلَهُم ، ونَزَعَ إلينا أَكْثَرَهُم . ٥

ولَمَّا رأى بعضُ من معنا تلكَ الهَزَّةَ ، أشار علينا بالانصراف ، وخوَّفَنَا من
تَقْوِيَةِ ابنِ عَبَّاد أن تَدْخُلَهَا ما لا يُمكن ؛ فَقُلْتُ : « إِنَّ الانصراف على
هذه الحالةَ صِغْرٌ ! وسيشيع في الجِيَّةِ كُلِّها أَنَّ رجوعَنَا لم يكن إِلَّا عن هزيمة !
فَالأَوْلَى أن نَكْسِرَ يَوْمَيْنِ نُبَرِّزُ فيها كُلَّ يومٍ في الموضع الذي التَّخَمْتُ فيه
الْخَيْلُ ، نُريهِم : إن كانت بِكم قُدرة ، فَعَاوِدُوا ما فَعَلْتُمْ ! » وَثَقَّتْ العسْكَرُ
لثَلَا يَطِيشُ منه أَحَدٌ . فكان ذلك . وأَقْلَعْنَا بِعِزَّةٍ حتى وصلْنَا نَظَرَنَا على
أَتَمِّ ما يُمكن . ولو رَفَعْنَا أَوَّلَ تلكَ الوَهلة ، خَلَّتْ جَمِيعُ المَعاقِلِ التي طاعت
لنا ، وَكَانَتْ ما صَنَعْنَا شَيْئًا .

فَبَقِيَتْ الحال ضَيْقَةً على مَالِقة . وأرسل إلينا أَخونا ، يستعطف ويسأل
العَفْوَ وإقالة العَثرة . فدَبَّرْنَا أَمْرَهُ في أَنْفُسِنَا ، وعَمَلْنَا فيه رَأْيًا سَدِيدًا ،
وعَلِمْنَا ما هو عليه من الحَرَصِ والشرِّ والحدَّةِ ، وَأَنَّ صَرْفَ المَعاقِلِ إليه
تَقْوِيَةٌ لشرِّه ، وَأَنَّهُ ، إن عَاوَدَ بما كان عليه ، لم تقدر له على شيء ،
ولا تطوع بَدَها رعيته إن أَرَدْنَاهم بَعْدُ ، لَمَّا يَرَوْنَ من إِسلامنا لهم
إليه ، وخافوا أن يُعاقِبَهُم ، مع ما كانوا ينتمون عليه من سوءِ الطريقةِ
مَعَهُم ، يُعَلِنون بذلك ؛ وأَخَذُوا مِنَّا مِيثاقًا غليظًا أَلَّا نُسَلِّمَهُم إليه ، وعَاهَدْنَاهم
على ذلك بِأَيِّمانٍ مغلظة . وظهر من أَقوالِهِم أَنَّهُم ، متى رُدُّوا إليه ، لم

يحيبوا* ، وأدخلوا الداخلة ، وصيروها إلى رئيس غَيْرنا . فخَفِنَا من هذه ٣٩ (١)
الوجه ما يجب أن يتوقع .

ثم لم نَرَ وَجْهًا في الإلحاح عليه ؛ فَرُبَّمَا أَخْرَقَ ، وصَيَّرَهَا إلى سِوَانَا ،
كالذي صنع ما كَسَنَ عُنَّا بَجِيَان ؛ فتكون مُصِيبَةً للبلدة ، وعَارًا عَظِيمًا ،
من تَوَلَّيجِ أَخِينَا وشَقِيقِنَا إلى غَيْرِنَا ، وتَقَرِّيبِهِ في البلاد ، وأُمَّهُ في قيد الحياة ؛
ولو لم تَكُنْ ، فأَبَقَيْنَا عليه ، وقد أَذْبَنَاهُ^(١) بما كَفَى ، ووسَعْنَا عليه في
النَّظَرِ مِمَّا لم تَبْقَ فيه من الرعيَّة ، وكان مُهِمًّا عليه ؛ وأَخَانِنَا له رِيْبَةً
وَجُطْرُون ؛ فَإِنَّ رَعِيَّتَهَا نصارى ، وَهُمْ بَيْنَ النَّظَرَيْنِ ، لا يقدرُونَ على نفاق
مع أَحَد ؛ وأَعْطَيْنَاهُ قَرْيَ يَتَسَّعُ فيها لِمُرَافِقِهِ . وَبَقِيَتْ يَدُهُ حُصُونُ الْغَرْبِيَّةِ
مِثْلَ قَرْطَلَمَةَ ، وَمِيشَشَ ، وَحَمَارِشَ ؛ وأَعْطَيْنَاهُ قَامَرَةَ ، بَلَدَ الزَّرْعِ ، لِيَتَسَّعَ
فيها لِلحَرْثِ . وَحَرَمْنَاهُ غَيْرَهَا ، التي يتوقع من أَهْلِهَا ومنه : إن استأسَدَ
بِهَا ، لم يُوَثِّمَنَّ شَرَّهُ .

وَبَقِيَتْ حَالُهُ فِي أَفْضَلِ الْأَحْوَالِ ، مَارَضِيَتْ بِهِ الْوَالِدَةُ وَحَدَّهُ جَمِيعُ
النَّاسِ ، صَلَوةً لِلرَّحْمِ ، وَعَفْوًا عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ ، وَتَأْدِيبًا لِمَا يَخْشَى عَاقِبَتَهُ . وَقَرَّ
حَالُهُ قَرَارَهُ ، وَنَفْسُهُ فِي هَذَا عَلَيْنَا حَاقِدَةٌ ، تَبْلُغُنَا عَنْهُ أَقَاوِيلَ سَيِّئَةٍ ؛
وَمَنْ لَا نَمْرُجَ عَلَيْهَا وَقَوْلُ : « إِضْرَارُهُ بِالْقَوْلِ خَيْرٌ مِنْ إِضْرَارِهِ بِالْفِعْلِ ،
لَوْ صَرَفْنَا إِلَيْهِ الْمَعَالِيلَ ! وَعَلِمْنَا أَنَّهُ فِي عَافِيَةٍ وَنِعْمَةٍ طَائِلَةٌ مِمَّا عِنْدَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ
الَّتِي تَرَكَ جَدُّهُ بِمَالَقَةٍ ، لَمْ يَحْجُجْ قَطُّ إِلَى نَفَقَةٍ دِرْهَمٍ مِنْهَا ، وَلَا نَالَتَهُ فِتْنَةٌ ،
وَلَا بَلَغَهُ مَكْرُوهٌ ؛ وَكُنَّا نَحْنُ أَمَانَتُهُ نُقَاتِلُ عَنْهُ الْعَرَبَ وَالْمَجَمَّ ، وَنُعْطِي عَنْهُ
الْجِزْيَةَ ، وَهُوَ فِي دَعَاةٍ ؛ فَإِذَا كَانَ يَدُهُ فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ لِقَلَّةِ تَمَوُّنِهِ وَاحْتِيَاجِهِ

(١) أصل : « دَبْنَاهُ » .

إلى نفسه في التَّمَوْن^(١) والنِّفَقَات ؛ فَإِنَّ هَذَا كَثِيرٌ ، وَهُوَ تَحْتَ نِعْمَةٍ ! «
 فطابت أَنْفُسُنَا عَلَى ذَلِكَ . وَكَفَّ هُوَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا كَانَ يَرْتَكِبُ مِنَ الْقَتْلِ
 وَالظُّلْمِ ، حَتَّى أَنَّهُ لَا يَرِدُنِي مِنْ عِنْدِهِ رَسُولٌ مِنْ أَهْلِ بَلَدِهِ أَوْ جُنْدِهِ * ٣٩ (ب)
 إِلَّا وَيُوصِي أَنْ نَشُدَّ يَدِي عَلَيْهِ ، وَيَقُولُ لِي : « بِتَأْدِيرِكَ لَهُ فَلَحْنَا وَكَفَّ
 عَنَّا ، وَإِنَّهُ ، مَتَى يَأْمَنُ مِنْكَ أَمْرًا ، طَعَنِي عَلَيْنَا ، وَشَقِينَا بِهِ . وَمَا فِي الدُّنْيَا
 أَشْعَرُ مِنْكَ فِي إِمْسَاكِ تِلْكَ الْمُعَاوِلِ عَنْهُ ؛ فَإِنَّكَ كُنْتَ بَعْدَ هَذَا لَا تَلْجِمُهُ
 أَبَدًا ! » فَخَرَجَتِ الْأُمُورُ خَيْرَ خَيْرٍ ، وَأَمَّا جِهَتُهُ بِسِتْرِهِ فِي مَكَانِهِ ، وَلَمْ
 نَفْجَعْ فِيهِ أُمَّه .

٤٥ — ذَكَرَ ثَوْرَةَ كُبَّابِ بْنِ تَيْمِيتٍ وَثَوْرَةَ بَنِي تَاقِنُوتٍ

وَنَهَايَتُهُمَا

١٠

وَإِنَّ كُبَّابَ بْنَ تَيْمِيتٍ ، قَائِدُنَا بِأَرْجُذُونَةَ وَأَنْتَقِيرَةَ ، لَمَّا رَأَى ظَهْرَنَا
 عَلَى مَالِقَةَ ، أَكْبَرَهُ ذَلِكَ وَشَقَّ عَلَيْهِ ، وَعَلِمَ أَنَّ الْأَمْرَ مَنْجِزٌ إِلَيْهِ ، إِذْ
 كَانَ قَدْ أَضْمَرَ نِفَاقًا وَطَاعَةً فِي مَعْصِيَةٍ ، لَمَّا تَأَسَّسَ لَهُ هُنَاكَ فِي حِينِ الْفِتْنَةِ
 مِنْ ضَمِّ الْأَطْعِمَةِ ، وَالِاسْتِحْوَاذِ عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ بِقَطْعِهِ السَّبِيلِ ، وَانْقِطَاعِ
 أَهْلِ الشَّرِّ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ قَطْرِ . وَكَانَ أَمْرُهُ مِنْ ذُنُوبٍ سِمَاجَةٍ عِنْدَنَا ،
 الَّتِي سَوَّغَهُ الْبَلَدُ ، وَجَعَلَهُ مِلْكًا فِي يَدِهِ وَيَدَى بَنِي عَمِّهِ ، حَتَّى شَقِيَ بِهِ .
 وَلَمَّا تَمَّ صَلُحُنَا مَعَ الْمُعْتَمِدِ بْنِ عَبَّادٍ ، خَالَفَنَا فِيهِ ، وَجَعَلَ يُفْسِدُ وَبَنَقُضُ
 مَا أَبْرَمْنَاهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا يَقْرُءُ عَنِ الضَّرْبِ . فَجَعَلَتْ أَقْدَمُ إِلَيْهِ الْمَرْءَ بَعْدَ
 الْمَرْءِ ، وَأَنْذَرَهُ عَاقِبَةَ اتِّبَاعِ هَوَاهُ ، وَأَقُولُ لَهُ : « إِنَّ لِلْمُصَالِحَةِ وَقْتًا يَنْبَغِي

(١) أَمْل : « الْفَتُون » .

للمرء حفظها ؛ فإذا أفسدتها ، فانت من المطالبين لي ! » فلا يزدجر مع هذا كله ، ولا ينفع فيه وعظ ، لإعجابه وتحمقه . وكانت كُتُبُ الْمُعْتَمِدِ أبداً ترد بالشكوى منه ؛ فأضمر لنا من كفه غائلة . وكانت من سعادتنا أنه لم يحمل المعاملة مع أحد القرين .

- ٥ فلما طال الشكوى به ، قلت لرسول المعتد : « لا أستطيع على عزل كُتُبِ إلّا بالمجاهدة في مُفاسدته ؛ فإن استوتقنا منكم أن يترامى عليكم ولا تقبلوه ، فنحن ضامنون لمرلته ! » فارتبط معي على أن لا تُقبل له رجعة ولا يُقال له عثرة . فألحختُ على كُتُبِ في أن ينزل عن التعليلين ، نقةً مني بما رُبطته مع المعتد ، فزاد طغيانه ، وخاطب على المقام إلى ابن عباد ، * يرغب في تصير الحصون إليه . فأرسل إلى المعتد بكتابه ،
- ١٠ وحضني على شد اليد عليه والراحة منه ؛ ففعلت ذلك . وهذا مما تقدم ذكره من إنصاف المعتد لنا وقلة خلافه علينا منذ فارق ابن عمار ، كالذي أجعلنا نحن معه في أمر بياسة ، وقت نفاق أهلها وأرسلت كتابهم إليه . وإن كُتُباً قبل ذلك ، لما رأى صنيعنا بمالقة ، على ما قدمناه ، نظر
- ١٥ — في زعمه — لنفسه وقال : « هذا ما صنع بأخيه ! وطاعت له الرعايا ! فكيف بمن هو عبد من عبيده ؟ » وأحسن ذلك في نفسه ابن تافنوت ، صاحب مدينتنا ؛ وكان امرء سوء ، كثير الطغيان ، بعيداً من الخير ، مؤثراً للشر ، وكان له أخ بمحسن بجرشة ، قد سوغه أيضاً سِمَاجة إقليم نيمش كله ، وطال مكثه في الحصن سبعة أعوام ؛ فسوّلت له نفسه ، مثل ما أضمر
- ٢٠ كُتُبِ من النفاق ؛ فتعاقدوا جميعاً وتحالفا أن لا ينزل أحدهما إلّا بعزلة الآخر .

فشعرتُ للأمر ؛ فأولُ ما ابتدأتُ به النَّظَرُ في أمر ابنِ تاقنوت ، إذ كان أهمَّ علينا من أجل مدينتنا التي كانت يده ، وجريشة يده أخيه . ورأيتُ معاقدةَ المعتَمِدِ عليه أكَّدَ ، إذ علمتُ من حَقِّه على كِبَابِ أنه لا يقبلُ له معذرة . فمأملتُ على ذلك أيضاً بأحسنِ مُعاملة ، وتسرحُ بمسكركه قُوَّةَ إن احتيجَ إليه لحرب جريشة ، وشاركك غايةَ المشاركة في التوسُّطِ بَيْنِنَا وبَيْنَهُ ؛ وأرسلُ إليه رسوله ، يقولُ له : « إن كنتَ جَزَعْتَ من رئيسك ، فاتركْ حصنه ! وأضمنْ لك عنه الحال الصالحة والأمان والإحسان ، وإن كنتَ لا تثقُ بهذا كله ، فاتركْ إليَّ بعد أن أعطيك عهدَ الله وميثاقه ألا أسلمك إليه أبداً ! » فما كان جوابه إلا أن قال : ١٠ « وما تضمنون بالحِصْنِ ؟ » قال : « أُصيرُهُ إلى صاحبه ! » فأبى وقال : « إنَّما أريد أن أجعلَ المعقلَ بيد من يُذيقه الشرَّ ويتولَّى فِتْنَتَهُ ! »

فأتاني ابنُ* الأصبَحِيِّ رسولُ المعتَمِدِ ، التوسُّطَ لخبره ؛ فقال لي : ٤٠ (ب) « اغزَمْ على مُنازلة الرجل ! فليس فيه إلى الخير طريقٌ ؛ وهو متأهبٌ للشرِّ ، لا يقنعه إلا الإصرارُ بك ! » وكان في هذا كله يقطع السُّبُلَ ، ويُخيفُ الناسَ ، ويقتلُ أهلَ الرِّقِّ ، ويُطْلِعُ أموالهم إلى الحِصْنِ ، ما كان أشهرَ في الناس من الشمس ، حتى لا يتجرأ أحدٌ أن يمتاز بشيء من تلك الجهات .

فاستخَرْتُ اللهَ على منازلته ، ومكثتُ عليه ستَّةَ أشهر ، لا نبأ لي عما تنفق عليه من الأموال ، إلى أن رَقَّتْ حاله ؛ وأنا في هذا كله أقدِّمُ إليه وأبلى العذرَ عنده ، وأخوه في ثقافي . وأمرتُ أخاه بأن : « اكتبْ إليه أني متى أخذته على غيرِ عهدي ، برَّختُ بقتله ؛ وإن كان نزل على الأمان قبل ٢٠ (٧)

أخذه ، ولو بساعة ، لم يتوقع مئتي شيئاً I « فوالله I ما ترد عليه هذه الكتب إلا ويزداد طغياناً وشتاً وحقاً ، حتى يسر الله أخذه ، ودخل الحصن ، وكفى الله شرهم ، وطهرهم من البلاد ، وأراح منهم العباد .

وشاورت كبار البلدة وقهاءها في خبرهم ؛ فخيروني في الذي حضه الله عليه من قوله تعالى (١) : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْمُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ الآية . فرأيتهم مستوجبين للصلب ، وأنه أذهى وأمر من أن يقتلوا من الأرض . فإن شرهم لا يؤمن . وكثيراً ما كان المسلمون مرتقبين لما حل بهم I ووالله I ما صرفت وجهي لأحد خاصة وعامة من أهل بلادى إلا ووصف لي من أفعالهم القبيحة ما وترواها جميع الناس . ولقد كان يوم قتلهم للناس عيداً كبيراً من سرورهم وابتهاجهم بالراحة من شرهم .

وإن كذاب بن تميت المذكور ، لما رأى ما صنع بيني تأقنوت ، زاده ذلك حماقة واستيحاشاً ، وخاطب المعتد على ما قدمنا ذكره . فأرسلنا إليه نعرض عليه التخلي عن المعتقلين ؛ فأبى ذلك ، وأعد ، واستعد بالآلة الحرب ، وضم الحراسة وأخاف السبل ، وقطع* الطرق وأتى بما هو (١) ٤١ مشهور من شره . فاستخرت الله على منازلته ، وأمرت بضم الأجناد واجتماع الأنداب لقتاله ؛ فكان ذلك على أنتم ما يمكن . ولما أحسن من نفسه بالضعف ، وأنه لا ملجأ له ولا مهرب إلى أحد بقله إقبال السلاطين عليه ، تراءى علينا ، وسأل العفو ، خوفاً أن يحل به ما حل بيني تأقنوت إذ لم يقبلوا الأمان قبل العلبة ؛ فأعطيته من العفو ما سأل ، ليكون ذلك

قدوة لمن سألَ مِنَّا العَفْوَ بعدَ الإساءة ، فلا يَتَيَّأسُ منَ فعلها ، إن دفعنا إلى مثلها بعدها ؛ وكانت الأولى عِظَةً وشُفْعَةً لمن تَفَرَّ ، ولم يقبل الأمان ، وتمادى على الطغيان .

وَكُنَّا لَا نُقَدِّمُ شَيْئًا وَلَا نُؤَخِّرُهُ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ إِلَّا بَعْدَ رُؤْيَا وَفِكْرَةٍ
 ٥ فِي الْعَاقِبَةِ ، وَنَدْعُو مُشُورَةَ النَّاسِ ؛ فَإِنَّا بَلَوْنَا مِنْهُمْ قَلَّةَ التَّحْقِيقِ ، وَالنُّطْقِ
 عَلَى الْهَوَى : فَإِنَّمَا مَقْتُونٌ بِأَمْرِ يُزَيِّنُهُ وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا كَارِهٌ تَخْلِيهِ أَوْ
 مُطَالِبٌ لِأَحَدٍ ، فَيَجْعَلُنَا نَحِيرَ عَنْ مَا لَا يَطَابِقُ هَوَاهُ ، وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ
 أَهْوَاءَهُمْ ، لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ^(١) . فَلَمَّا بَلَوْنَا مِنَ النَّاسِ هَذِهِ
 الشَّمَائِلَ ، وَأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَحِبُّ أَنْ تَجْرِيَ الْأَحْكَامُ عَلَى اخْتِيَارِهِ ، رَجَعْنَا
 ١٠ إِلَى إِثَارِ اخْتِيَارِنَا ، إِذْ كَانَ نَظَرُنَا لَأَنْفُسِنَا أَرْسَدَ مِنْ نَظَرِ غَيْرِنَا ؛ « وَمَا حَكَ
 ظَهْرُكَ مِثْلُ ظَفَرِكَ » ^(٢) .

وَكُنَّا مَعَ هَذَا نَصْفِي إِلَى قَوْلِ النَّاسِ بِالْأُذُنِ ، لَا بِالْعَقْلِ ؛ فَفَقِيسٌ عَلَيْهِ
 وَنَحْتَرِ مُرَادَهُ ، وَلَا نُزِيهِ اخْتِلَافَ ، فَتُوحِشُهُ ، غَيْرَ أُنِّي أَوْسَعَ لَهُمْ صَدْرِي
 وَبَسَعُ جَهْلَهُمْ حِلْيِي ، وَأَقْضَى بَعْدَ ذَلِكَ مَا أُرِيدُ ، إِذْ لَمْ أَكُنْ عَلَى أَمْرٍ
 ١٥ مُجْبُورًا وَلَا مَقْهُورًا ، إِلَّا مَا قَهَرْتَنِي عَلَيْهِ السِّيَاسَةُ ، وَمَا تُحَمَّدُ لَهُ الْعَاقِبَةُ ، كَمَنْ
 يَتَجَرَّعُ الدَّوَاءَ لِإِبْرَاءِ الدَّاءِ ، وَلَمْ أَكُنْ أَغْتَنِي لِأَحَدٍ فِي الْحَقِّ مِنْ جِهَالَةٍ وَلَا
 غَفْلَةٍ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ مَسَاحَةً وَتَغَافُلًا لِأَمْرٍ مُرَادٍ ، أَوْ مُتَبَاعَةً لِقَوْلٍ فِي
 حِينِهِ تَلَطَّفًا وَقَلَّةَ خِلَافٍ عَلَى قَائِلِهِ ؛ ثُمَّ أَصْرَفَهُ تَارَاتِ * فَالْجَاهِلُ عِنْدَنَا مَنْ ^(ب) ٤١
 إِذَا أَشَارَ بِرَأْيٍ ، ثُمَّ رَأَى أَنَّهُ صُنِعَ ضِدُّهُ ، أَنْ يَمُودَ الْقَوْلَ فِيهِ : فَإِنْ كَانَ

(١) سورة المؤمنون : ٧١ .

(٢) راجع « جميع الأمثال » للبيداني (ط القاهرة ، ١٣١٠) ج ٢ ، ص ١٤٧ .

فَطِنًا ، من التعيُّ التكرار ؛ وإن كان لم يعلم ، فالتذكير به غفلة .
استنقاصٌ لمخدومه ؛ اللَّهُمَّ إِنَّهُ لم يسمع منه الأولى ، فتجربى عن الأخرى
خِلَافَ الرئيسِ عليه الأمرَ قد ظهر له ، وخفر عن القائل ، ولم يُرِدْ
عليه ؛ فيكون في رأيه البركة والخير للفريقين ؛ وهو يلوم على ما لا يد
ويتأذى جهالةً ، وينطق هذرًا ، وتنحرف نيته على غير معنى ؛
ظالمًا لنفسه .

فأودعنا كِتَابًا حِلْمًا ، وأَمَّنَاهُ ، وبقي في جملة الجند تحت إم
والحال ، غَيْرَ أَنِّي لم أَسْتَعْمِلْهُ بعدها في مَعْقِلٍ ، ولا مَكْنُتُهُ من
إذ « لا يبلغ مؤمنٌ من جُحَرِ رَكَّتَيْنِ ^(١) » .

الفصل السابع

إمارة عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

(٣) قدوم المرابطين إلى الأندلس وموقعة الزلاقة ومحاصرة

حصن لِيَّط

٤٦ — مقدمات تدخل المرابطين في شؤون الأندلس

٥ وَبَقِيَ أَحْوَالُنَا عَلَى أَفْضَلِ مَا يُمْكِن ، وَبَلَّغْنَا مِنْ آمَالِنَا غَايَتَهَا ، إِلَى أَنْ حَدَّثَ أَمْرُ الْمُرَابِطِينَ - أَعَزَّهُمُ اللَّهُ - . وَكُنَّا رَأَيْنَا كَلْبَ النُّصْرَانِيِّ عَلَى الْجَزِيرَةِ وَأَخَذَهُ لَطْلِيظَةً ، وَقَلَّةَ رَفَقِهِ ، بَعْدَ مَا كَانَ يَقْنَعُ مِنَّا بِالْجَزِيرَةِ وَصَارَ يَرُومُ أَخْذَ الْقَوَاعِدِ ، وَأَنْ أَخَذَهُ لَطْلِيظَةً لِلضَّعْفِ لِلتَّوَالِي عَلَيْهَا عَامًا بَعْدَ عَامٍ ؛ وَكَذَلِكَ كَانَ مِنْ شَأْنِهِ فِي أَخْذِ الْبِلَادِ ، إِذْ كَانَ مَذْهَبُهُ أَلَّا يُنَازِلَ مَعْقِلًا ، وَلَا يُفَسِدَ أَجْنَادَهُ عَلَى مَدِينَةٍ ، لِبُعْدِ مَرَامِيهَا وَمَنْ فِيهَا مِنْ خَالَفِي مِلَّتِهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ يَأْخُذُ مِنْهَا الْجَزِيرَةَ عَامًا بَعْدَ عَامٍ ، وَيَنْفِ عَلَيْهَا بِمَا شَاءَ مِنْ أَصْنَافِ التَّعَدَّى ، إِلَى أَنْ تَضَعُ وَتُلْقَى بِيَدِهَا كَمَا فَعَلْتُ .

١٠ فَوَقَعَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْأَنْدَلُسِ رَجَاءٌ عَظِيمَةٌ ، وَأَشْرَبَ أَهْمَهَا خَوْفًا وَقَطَعَ رَجَاءَ مِنْ اسْتِطَاعَتِهَا . وَجَرَتْ بَيْنَ الْمُعْتَمِدِ وَالْقُوْنَشِ مُخَالَفَاتٌ كَثِيرَةٌ ، وَسَأَلَهُ

أن يتخلى له معاقِل كان الموتُ عنده أولى من إعطائها. فوجست نفسه منه بالجملة ،
ورام كثره بطوائف المرابطين ، وضربَ بعضهم ببعضٍ للقدَر الذي شاء الله :
إذا لم يكن عونٌ من الله لقاتي فأكثرُ ما ينجني عليه اجتِهادهُ
* وقد كان أخونا صاحبُ مَالقة ، للفتنة التي كانت بيننا وبينه ، قد ٤٧ (١)
داخلهم قبلُ يستغيثُ بهم ، ويرجو الانتقامَ مِنَّا بهم ، وأن يُذركوه
ما فاتَهُ من مملكة جدّه ؛ وظنَّ أنّه ، عند ظهورهم ، يقسم الأموال بيني
وبينته . وكان هذا الخِلافُ كُلُّهُ من سعادة أمير المسلمين ، ورأى من تشّتينا
أنّه لا مشقة تكون عليه في أخذِ بعضنا ببعضٍ متى شاء ، فلم يُجِبهُ الأميرُ
إلى شيء ، ولا كان وقته ، وهو يُلحُ عليه بقلة الدربة .

١٠ ٤٧ — إرسال سفارات أندلسية إلى مراکش . احتلال

المرابطين الجزيرة الخضراء

وقد كان رُسُلُ المُعتمد قبل هذا قد وردت عليه ، تعلمه أن يتأهبَ
للجهاد ، وتعمده بإخلاء الجزيرة الخضراء ، وأنه لا يصلُ إلى سبته إلا ويصحبها
في يديه . فلما وصل متأهباً لذلك ، بمن احتفل به من جيشه ، قدّم رُسُلَهُ إلى
المُعتمد ، منهم عبدُ الملك القاضي . وابنُ الأحسن ؛ فأمنسكهم بإشبيلية مُدَّة ١٥
طويلة ؛ وأميرُ المسلمين في ذلك مُتعلّقٌ لورودهم ؛ فأرسل معهم من شيوخ
إشبيلية من يقول له : « ترَبَّصْ من سبته مُدَّة من ثلاثين يوماً ، إلى أن
نُحلي لك الجزيرة . » فأجابهم إلى هذا ، وسأله خطاً يده وبالتريّص .
فأشعرَ الأميرُ بذلك ، وقيل له : « لم يجعلك ابنُ عباد في هذا الالتواء إلا
لأنّه يُريد أن يرسل إلى ألفونس يعلمه بقدومك ؛ ولعلّه يتأقّى له منه ما يرغب ، ٢٠

ويهدده بك ، ويسأله أن يُعاقده على أن يهبه الجزيرة أعواماً . فإن فعل ، استجاش عسكره على الجزيرة ، ومنعك الجواز ، فأستبقه إليها ! وإن كان النصراني لا يتأني له ، أرسل إليك في الجواز !

ولما انفصل الرُّسلُ عنه بنية التَّربُّص في إخلاء الجزيرة ثلاثين يوماً ،
 ٥ جهَّز عسكراً مُقَدِّماً من نحو خمسمائة فارس ، وأرسلهم في أثرهم ؛ فلم تصل
 الرُّسلُ إلى الجزيرة آخر النهار إلَّا والعسكر في أثرهم قد عَدَوْا ونزلوا بدار
 الصَّناعة . فالتفت القومُ إلى خَيْلٍ قد ضربتَ محلَّتها ، لم يدر متى أقبلت ؛
 ولم يُصْبِحَ لهم إلَّا وطائفةٌ أُخْرى بعدها ، يزيدون ويترادفون ،* حتى انكَل (ب)
 العسكر كُلُّه على الجزيرة مع داوود بن عائشة ، وأحدقوا حوالَيْها يحرسونها .
 ١٠ ونادى داود بالراضى ، وقال له : « وَعَدْتُمونا بالجزيرة ! ونحن نأتِ لأَخْذِ بلدٍ
 ولا ضَرَرٍ بسلطان ! إنَّما أَتَيْنا للجهاد ! فأمَّا أن تُخْلِيها من هنا إلى وقت
 الظُّهر من يومنا هذا ، وإلَّا ، فالذى تقدر عليه ، فأصنع ! »

وخطبَ أميرُ المسلمين ابنُ (١) عبَّاد ، يُعلمه بما صنع ، ويقول له :
 « كَفَيْنَاكَ مِثْلَ الْقَطَائِعِ وَإِرسَالَ الْأَقْوَاتِ لِأَجْنَادِنَا كما وَعَدْتَ ! » فأرسل
 ١٥ الْمُعْتَمِدُ لابنه الرَّاظِي في إخلائها لهم ، وحصل فيها داوود . وأتى الأميرُ
 إليها ، ودخلها ناظراً إليها ؛ ثمَّ انصرف إلى سَبْتَةِ إلى وقت إقباله . وأمر
 داودَ بالتقدُّم إلى إِشْبِيلِيَّة ؛ فاستوفت العساكر على إِشْبِيلِيَّة .

وقد كان رُسُلُنا مضوا مع رُسُلِ الْمُعْتَمِدِ إلى أمير المسلمين ، على اتِّفَاقٍ ضَمَّ بَعْضُنا
 فيه بَعْضاً إلى حقيقة ، وعاقَدنا أمير المسلمين على أن تتصل الأيدي على غَزْوِ الرُّومِ
 ٢٠ بمعرفته ، وألَّا يعرض لأَحَدنا في بلده ، ولا يقبل عليه رعيته بمن يروم الفساد عليه .

٤٨ — تجمع جيوش الأندلسيين برسم الجهاد

وأرسل [أمير المسلمين] ، عند حلوله بإشبيلية ، عن جميع الرؤساء ؛ قائماً ابن صُمَدَح ، فأبى عليه [وبقى] مُتَرَبِّصاً ليرى كيفية الأمر وتخرجه مع الزُوم ؛ واعتذر بكبر السن مع الضعف ، وأرسل ابنه مُعْتَذِراً . وبأذرتنا نحنُ إلى الخروج ، وسررتنا بذلك ، وأعددتنا ما استطعنا عليه للجهاد بأموالنا ورجالنا ؛ وقدّمنا الهدية ٥ إلى أمير المسلمين ، وأمرنا بضرب الطَّبل وما يُستَعَدُّ به للفرح ، عند مُحَاطَبَتِهِ لنا بدخول الجزيرة . وظننّا أن إقباله إلى الأندلس منّة من الله عظمّت لدينا ، لا سيما خاصّة من أجل القرابة ، وللذي شاع من خيرهم ، وإقبالهم على طلب الآخرة ، وحُكْمِهِم بالحق ؛ فنعمل أنفسنا وأموالنا في الجهاد معه ١٠ كل عام : فمن عاش مِنّا كان عزيزاً ، تحت سترٍ وحماية ، ومن مات كان شهيداً . والعجبُ في تلك السفرة من حُسْن النِّيَّات ، وإخلاص ٤٣ (١) الضائر ، كأنّ القلوب إنما جمعت على ذلك .

ولقينا أمير المسلمين في طريقه إلى بَطْلَيْوَس بِجَرِيشَة ، ورأينا من إكرامه لنا وتحفّيه بنا ما زادنا ذلك فيه رغبةً ، لو استطعنا أن ننحله لحومنا ، فضلاً على أموالنا . ولقينا المَتَوَكِّلَ ابنَ الأَفْطَس مُحْتَفِلاً بمسكركه : كل ١٥ يرغب في الجهاد ، قد أعمل جهده ، ووطن على الموت نفسه .

٤٩ — موقعة الزَّلَاقَة وانتصار المسلمين على أَلْفُونش السادس

وتلّوّمنا بَبَطْلَيْوَس أَيْاماً ، حتّى صحَّ عندنا إقبال أَلْفُونش في حفلة ، بروم الملاقاة ، ويطنُّ أنه يهزم الجيش لقلة معرفته به قبل . وساقه القدر

إلى أن توغل في بلاد المسلمين ، وأبعد عن أنظاره ؛ ونحن يازاء المدينة ،
 مترَبِّصون : إن كانت لنا ، فيها ونِعْمَتْ ، وإن لم تكن ، كانت وراءنا
 حرزاً ومَقْلًا نأوى إليها . وأمير المسلمين يُدِيرُ هذا الأمر بِحُسْنِ رَأْيِهِ ،
 ويلتوى ، عسى [أن] تقع المِلاقاة بتلك الناحية ، دون أن يَخُوجَ إلى التوغل في
 بلادهم . وهم ، كما دخلوا الأندلس ، ولا يعرفون مَنْ لَهِمْ أَوْ عَلَيْهِمْ ؛ وَرَجَا
 ٥ بأن يكون الرومي لا يُخْرِجُ إليه أحدٌ ، فَيَنْصَرِفَ طَرِيقَهُ ، وَيَكْفِي اللَّهَ
 الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ، إلى أن تُرِيَهُ الأُورُوجُوهَا . فلا يُسْمَعُ إِلَّا الأَمِيرُ
 مُتَرَبِّصًا لِالْتِيَاثِ طَافَ بِهِ ، وَلَوْلا ذَلِكَ ، لَكَانَ فِي أَرْضِ النصارى مُدَوِّخًا
 لها . والنصراني في هذا كُلِّهِ يَقْرُبُ مُتَعَاطِيًا ، لا يَعْمَلُ حِسَابَ مَنْ يُغْلَبُ ،
 ١٠ إن كانت عليه أن يكون بعيداً من أنظاره ، فَيَسْتَأْصِلُهُ السَيْفُ ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ
 إِلَّا يَأْكُلُهُ الطَّرِيقُ وَبُعْدُ الْمَسَافَةِ .

ثم أُرْسِلَ ، على يَدَيِ ابْنِ الْأَفْطَسِ ، إلى أمير المسلمين ، يقول له :
 « هَا أَنَا قَدْ أَقْبَلْتُ أُرِيدُ مِلَاقَاتَكَ ، وَأَنْتَ تَتَرَبَّصُ وَتَخْتَبِي لِأَصْلِ الْمَدِينَةِ ! »
 فلم يكن بُدٌّ أَنْ يُنْقَلَ إِلَيْهِ ، لِيَكُونَ الْجَيْشُ عَلَى مَقَرِّهِ مِنْهُ . وَتَوَاعَدَا
 ١٥ الْلِقَاءَ فِي يَوْمٍ سَمِّيَاهُ . وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ التَّحَلُّتَيْنِ إِلَّا نَحْوُ ثَلَاثَةِ أُمِّيَالٍ ،
 فَاسْتَاغَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى ذَلِكَ الْوَعْدِ ، * وَحَلَّ النَّاسُ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ؛ وَكَانَتْ ٤٣ (ب)
 خَيْرَةً أَنْ لَوْ رَكِبَتِ الْقَيْثَانُ ، لَمْ تَنْفَصِلْ إِلَّا عَنْ قَعْدِ الْأَكْثَرِ مِنْ عَسْكَرِ
 لِلْمُسْلِمِينَ ، حَسْبَا تُوجِبُهُ الْمَوَاقِفَةُ لِلْقِتَالِ .

فَقَبَّجَاهُمْ عَسْكَرُ الرُّومِيِّ ، وَهُمْ عَلَى غَيْرِ إِعْدَادٍ . وَكَانَ مَخْتَلَسًا : إِنَّمَا لَهُ
 ٢٠ مَا أَلْقَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ ، وَأَلْقَى سُمَّةً فِي الرَّحْلِ ؛ وَمَاتَ مِنْهُمْ خِلَافُ مَنْ
 لَمْ يَكُنْ يَقْدِرُ عَلَى نَفْسِهِ . فَلَمْ تَقَعْ الصَّيْحَةُ عَلَى الْجَيْشِ [إِلَّا] وَرَكَبُوا فِي

طَلَبِهِمْ ؛ وَهُمْ قَدْ كَلُّوا وَتَقَلَّهِمُ السَّلَاحُ مَعَ بُعْدِ الْمَسَافَةِ . فَاتَّقَنَى الْمُسْلِمُونَ
آثَارَهُمْ ، وَرَكِبُوهُمْ بِالسَّيْفِ ؛ وَمَاتَ مِنْ جِيَشِهِمْ خِلَاقٌ ، وَتَبَدَّدُوا فِي الطَّرِيقِ
فَمِنْ بَيْنِ قَتِيلٍ وَمَيِّتٍ مُتَقَلِّلٌ ضَرِيعٌ . وَلَوْ أَنَّ تِلْكَ الْوَقِيعَةَ تَكُونُ عَلَى إِعْدَادِ
مِنْ وَقُوفِ الْفِئَتَيْنِ وَمَنَاطِحَتِهَا فِي الْقَاءِ ، لَفُقِدَ مِنَ الْعَسْكَرَيْنِ الْأَكْثَرُ ،
كَالَّذِي تَوَجَّهَ الرِّتْبَةُ ؛ لَكِنْ اللَّهُ لَطِيفٌ بِمِبَادِهِ ، وَلَمْ يَقْدِرْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا
الْأَقْلَ . وَانصَرَفَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ رَاجِعًا إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ عَلَى حَالِ سَلَامَةٍ وَنَصْرِ .

٥٠ — يَوْسُفُ بْنُ تَاشُفِينٍ يَعْقِدُ مَجْلِسَ رُؤَسَاءِ الْأَنْدَلُسِ

بِمَدِ الْمَرْكَةِ . بَدَأَ الْخِلَافَ بَيْنَ الْمُتَحَالِفِينَ

وَلَمَّا انْقَضَتْ غَزْوَتُهُ تِلْكَ ، جَمَعْنَا فِي مَجْلِسِهِ ، أَعْنَى رُؤَسَاءِ الْأَنْدَلُسِ ،
وَأَمْرَنَا بِالِاتِّفَاقِ وَالِاتِّلَافِ ، وَأَنْ تَكُونَ الْكَلِمَةُ وَاحِدَةً ، وَأَنَّ النَّصَارَى
لَمْ تَقْتَرِصْنَا إِلَّا لِذِي كَانَ مِنْ تَشَتُّنِنَا وَاسْتِعَانَةِ الْبَعْضِ بِهِمْ عَلَى الْبَعْضِ .
فَأَجَابَهُ الْكَلْبُ أَنَّ وَصِيَّتَهُ مَقْبُولَةٌ وَأَنَّ ظَهْرَهُ مِمَّا يَجْمَعُ الْكَلَّ عَلَى الطَّاعَةِ
وَالْجَرَى إِلَى الْحَقِيقَةِ .

وَإِذَا تَدَبَّ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْوَقْتُ أَخُونَا صَاحِبُ مَالَقَةِ ، وَقَالَ مِنْ غَيْرِ رُويَةٍ :
١٥ « إِنَّ أَحْوَالِي قَدْ ضَاقَتْ بِتَعَدِّي أَخِي عَلَى بِلَادِي وَمِيرَاثِ جَدِّي ١ »
يُشِيرُ بِذَلِكَ أَنْ يَأْخُذَ لَهُ الْأَمِيرُ بِحَقِّهِ مِنَّا . فَلَمَّا قَضَى كَلَامَهُ ، قَالَ لَهُ أَمِيرُ
الْمُسْلِمِينَ : « هَلْ لَقِيتَ أَخَاكَ فِي هَذَا الْمَعْنَى ، وَتَرَامَيْتَ عَلَيْهِ قَبْلَ مُخَاطَبَتِكَ
لِي ؟ » فَلَمَّا قَالَ لَهُ : « لَا ١ » رَدَّ عَلَيْهِ : « مَا يَنْبَغِي لَنَا ذَلِكَ إِلَّا
بِرِضَاهُ ١ » وَلَمْ يُمْكِنَّا فِي ذَلِكَ الْحِينِ السَّكُوتَ لِمَا يَلِيزُ مِنْ شُكْرِ الْأَمِيرِ ،
٢٠ وَ[كَانَتْ] فَرَصَةً لِتَبْيَإْنِ الْحِجَّةِ ، وَإِقَامَةِ عَذْرِنَا أَلَّا يَنْتَسِبَ إِلَيْنَا بَعْدُ نَسَبُهُ .

*قلتُ له : « إنَّ أمير المسلمين لم تكن غايته إلا ما هو بسبيله من الجهاد ؛ ٤٤ (١)

وهو لا يرضى أن ينقض ما أخَّكمه آباؤنا من قسمة ما قسموه من بلادهم بين
أبنائهم . وليس منا أحدٌ حصلَ على شيء بقدرته ، إلا بما تهيأ له عند
الله والآباء من بعده ، مع إجماع المسلمين على الرضى بمن تخيروه . وقد كان
الشيخُ جدُّنا — رحمه الله — رتبَ ذلك ، ورأى أن مآلقة لا غنى

بها من غرناطة ؛ فجعل أمرها مصروفًا إلينا من بعده ، كالذى كانت في
حياته . فأنقضت من الأمر ما أبرم ، وقطعتنا ، وأردت الاستبداد على غير
حقيقة ولا أصل . ولو رأى جدُّك في ذلك صلاحًا ، لأعدَّ لك لذلك عُدَّةً

تغنيك عنا ؛ ولما تعديت المرة بعد المرة ، سَمِينا في صرف بعض الحال
إلى ما رتبها عليه الجدُّ ؛ ولم نبلغ في ذلك الغاية التى توجبُ بانحياشك

ونفارك . وهذا ما وقع ؛ فإن شاء أميرُ المسلمين أن يبتنى من جديد ،
وينقض ما رتبَ الشيخُ ، فهو لنا بمنزلة : أمره نافذ ؛ وإن رأى ما فعلَ
من ذلك سدادًا وصلاحًا ، فلائى وجه نكلُّه ما لا يليق به ؟ « فلما
تكلمتُ بهذا ، وقمتُ مُسَاكِنَةً . وأمر الأميرُ بانصرافنا ، ولم يُعِدْ

١٥ في ذلك بَعْدَهَا بَجَلِيسًا إِلَّا فِي سَفَرَةٍ لِيُطِيطَ لِلْمَعُونَةِ .

وأخذ أميرُ المسلمين فى الانصراف إلى بلاده ، وهو قد اطلع عيانًا وسماعًا
من اختلاف كلمتنا ما لم يَرَّ وَجْهًا لبقائنا فى الجزيرة . وأنسَ الجميع ؛ ولم
يتربص فى البلاد إلا يُوحِشَ سلاطينها مما يتوقعونه من انحياش رعيهم إليه ؛
فكلُّ من شكا إليه ذلك الوقت من رعيّة ، يقول له : « لم نأتِ لهذا ؛

٢٠ والسلاطينُ أعلمُ بما يصنعون فى بلادهم ؛ « حتى ازداد بذلك مَحَبَّةً إلى
ما كان عليه فى قلوبنا ، وإليه استنامةً وميلاً . ورجع الكلُّ إلى وطنه .

٥١ - عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس .

حصار حصن لييط .

وبقيت الحال على ذلك : قد أشرب الرُّومُ من تلك الوقعة خَوْفًا وانكسارًا . ولم تزل الحالُ صالحةً إلى سَفَرِ لُيُوط .

وإنَّ الْمُعْتَمِدَ بنَ عَبَّادَ ، لِمَا رَأَى من خِلَافِ ابنِ رَشِيقَ عليه ، وأَنَّهُ أرادَ أنْ يَضَعَ ابنَه الرَاضِيَ بِمُرْسِيَةِ عَوْضًا عنِ الجَزِيرَةِ ، صارَ بِنَفْسِهِ إلى أميرِ السُّلَيمِ ، وجازَ إليه البحرَ ، يريهِ الطَّمَانِينَةَ ، ويحكمُ مَعَهُ ما شاءَ من ٤٤ (ب) عَمَلٍ في مُرْسِيَةِ وَغَيْرِهَا . وَعَظَّمَ لَهُ شَأْنَ لُيُوطَ ، وأَنَّهُ في قَلْبِ البَلَدِ ، وأنَّ لارَاحَةَ السُّلَيمِ إِلَّا بِفَقْدِهِ ؛ وعاقَدَهُ على أنْ يَأْتِيَ عليه بِنَفْسِهِ ورجاله ، لِكَيْ يَتَهَيَّأَ سُلَاطِينُ الأَنْدَلُسِ حَرْبَهُ بِمُدَدِهِمْ وأَجْمَاعِهِمْ ؛ فَيَأْمَنُوا مَن يُقْلِعُهُمْ عَنْهُ .

وَأَتَذُنَّا كُتُبُ الأَمِيرِ ، يَأْمُرُنَا عِنْدَ جَوَازِهِ ، بِالاستعدادِ للقتالِ وما شَاكَلَ ذلكَ . ففَعَلْنَا ، وبَادَرْنَا ، رَغْبَةً في الجهادِ ، وَحُبَّةً فِيهِ ، وإِثَارًا لَهُ ؛ وَخَرَجْنَا إِلَيْهِ ، وَلَقِينَاهُ في حَيِّزٍ من بَلَدِنَا ، بما يُطَابِقُ مِثْلَهُ من الهدايا والتَّحَفِ . وَاجْتَمَعْنَا على السَّيْرِ إلى لُيُوطَ . ١٥

فَنَازَلْنَاهُ على أَمِّ ما يُمْكِنُ من الرِّجالِ والعُدَدِ ، كُلُّ رَئِيسٍ يَقَاتِلُهُ على حَسَبِ مَجْهُودِهِ ، وما تَبْلُغُ اسْتَطَاعَتُهُ وَحِيلَتُهُ ؛ وَهُوَ قد امْتَلَأَ بِرَعِيَّةِ الجِهَةِ ، كُلُّهَا من النصارى ، وَأَعَدُّوا فِيهِ ما يَحْتَاجُ من كُلِّ شَيْءٍ ، يَقِلُّ مَن نَظَرَ على سَعَةِ ؛ وَهُمْ في ذلكَ يَهْدَدُونَ بِمَجِيءِ الْفُؤُوشِ ، وَيَرِيعُونَ الحِيلَةَ بِالتَّخْيِيرِ كُلِّ لَيْلَةٍ ؛ وَالتَّحَالُ عَلَيْهِمْ كُلَّ يَوْمٍ لا يَفْتَرُ ، معِ البُنيانِ في المَواضِعِ ٢٠

المهمة عليهم ، ونصب المجانيق والعرادات ، حتى لم يبق عمل يرام به اقتراض المعاقيل إلا وصنع . وأتى ابن صباوح بفيل أقامه ، وخرق به العادة : أصابه من الحصن قوس نار ، فأحرقه . وفي كل ذلك لا ينبجح عمل ، ولا تظهر فيه للمسلمين فرصة ، لما شاء الله من اختلاف الكلمة . ٥

٥٢ — محاصرة لييط تصور فوزى ملوك الطوائف

في ذلك الحين

وكانت تلك سفرة أخرج الله فيها أضغان سلاطين الأندلس . ورعيهم في ذلك يأتون أفواجا ، شاكين لما وجدوا لمن أسندوا إليه : فالراضي منهم يلتبس الزيادة ، والساخط يرجو الانتقام ؛ وجعلوا في شكوايهم فقهاءهم ١٠ وسائط ، يقصدون نحوم : منهم الفقيه ابن القليعي ، قد صار خياؤه بتلك المتحلة منطيسا لكل صادر ووارد ، يجد بهم السيل إلى الطلب ، للقدّر الذي قدره الله .

ورأى سلاطين الأندلس عند ذلك من تحامق رعاياهم وامتناعهم من مغارم الإقطاع التي كانت عليهم ، مع احتياجهم إلى الإنفاق ، ما قلق به ١٥ وساء الظن من أجله : * جيش يكلفونه كل عام ، ومجاملات تلزم (١) ٤٥ المرابطين كثيرة ، وتخف متواليه ، لو فرط منها في شيء ، لانخرمت عليهم الأحوال ؛ ثم رعايا تمتنع من تأدية ما تقوم به الحال للوصوفة ؛ فلا حيلة إلا بين صبر يؤدي إلى ملامة توجب عقوبة ، أو امتناع يؤدي إلى استئصال ، كالذي جرى . ٢٠

ونسع في هذا كله من أهل جهاتنا تهذداً وعصياناً أنكرناه ، لا تتم به تملكته ، ولا يتهيأ معه قضاء حاجة . ولقد كان القليعي المذكور في تلك المحلة يخاطب إخوانه بحضرتنا ألا يعطونا شيئاً ، ويعدهم بما كان ؛ فلما كان يأتيهم الحفز منا ، يعمدون بنا ، ونحن أخوج ما كنا إليه للإفناق ، لاسيما في تلك المحلة التي عدتتنا فيها الأقوات إلا بالشراء كل يوم . فدخل علينا من ذلك ضرر شنيع .

وطالت تلك المحلة للعبوة ؛ فكأنما مئلق أبان الطيب من الخيث ، وكشف العورات ؛ فلم يزد الرؤساء إلا توحشاً ، ولا الرعية إلا تسلطاً ، ولا الداخلون على مثل هذه النصبه إلا طمعاً ؛ وحق لهم ، مع اختلاف كلمة الرؤساء ، وهم في أسباب الفرق : فن اغتر منهم طالب صاحبه ، وهو المطلوب ، وشغل ذلك مما هو في سبيله ؛ ومن ميز ، انفراد ، لم يجد معيناً حتى توغل في اللجة وأخذته المحلة . وكانت مقدمات سوء ، وزماناً على السلاطين عسيراً ، وسعداً للرأبطين مقتبلاً .

٥٣ - النزاع بين ابن عبّاد وبين ابن رشيق

١٥ وأتى ابن رشيق عند ذلك مفسداً برغمه لما عقده ابن عبّاد مع الأمير ؛ وبذل الأموال للرأبطين ، وسارع إلى قضاء الحاجات . واصطنع إلى الأمير سير - أعزه الله - وعول عليه ؛ فأكرمه الإكرام الشنيع . وألقى ابن عبّاد يده في قرور ، معوّلاً عليه في القضية ، وبذل له أموالاً جسيمة ؛ والمكثير على كل حال يقلب العقل ، وإن شفاً عليه باليسير .
٢٠ وأعطى ابن رشيق الأمان ، وبولغ له في التأنيس ، حتى غره ذلك

وانبسط له ؛ وتآه على ابن عباد ، وأظهر مَعْصِيَتَهُ والانْخِياشَ منه ، قائماً في ذلك بدعوة الأمير ومُسْنِداً إليه ، حتى أفضى ذلك به ، إلى أن أمر أن تكون الخطبة بِمُرْمِيَةٍ على اسم أمير المسلمين دون ابن عباد .

والمُعْتَمِدُ ، * في هذا كله ، يَرَى من الأمر ما يفيظه ويكرهه ويتقطع ٤٥ (ب) منه حشرات ؛ وحقّ له ؛ فلم يَنْمُ عن القضية ؛ وأحكمها مع الفقهاء ، واحتجّ عليه بأحكام السنّة ؛ وكان ممن اصطنع على ذلك ابنُ القُلَيْبِيِّ ، وهو يفخر بالأمر عندنا ، ويقول : « سَيَرَى ابن رَشِيق ما يجلُّ به ! فقد شوَّورنا في أمره . وإن جُلِّلَ لنا بِمَجْلِسٍ لغيره ، فَعَلْنَا به مِثْلَ ذلك ! » وكانت هذه الكلمة بما أَوْحَشْنَا وَغَيَّرَتْ أَنْفُسَنَا عليه ، مع تهديده تلك ١٠ السفارة ، وضرّيه الأمثال ، وحِدَّةِ مَعَانِيهِ ، واستطالته بلسانيه ؛ وأميرُ المسلمين لا يشعر بشيء من ذلك ، ولا نقدر نَحْنُ نشكو به بلا بَيِّنَةٍ ولا إقامة بُرْهَانٍ : فتكون له الحُجَّةُ ، وشَعَّ نَحْنُ في الخزي ، لاسيما بما كان يَنْتَحِلُ من [أهل] العلم .

وإن أمير المسلمين ، لما رأى حالَ ابن عباد مع ابن رَشِيق ، واختلافَ ١٥ ما بينهما ، أعمل في ذلك عَقْلَهُ ، ودبّره برأيه ، وقال : « ما تنبغي لنا مُفاسِدةُ ابن عباد من أجل ابن رَشِيق ، لاحتِياجِنَا إليه فيما نَحْنُ بسبيله ، ونَحْنُ لم نَأْمُرَ الرُّومِيَّ . والأوْكَدُ عَلَيْنَا في هذا الوقت مُدَاراةُ ابن عباد ، حتّى تُرِينَا الأمورَ وَجُوهَهَا ! » فتصفّ على ابن رَشِيق في الذي أظهر من الخلاف على صاحبه ، وقال له : « ما كان يَجِبُ لك أن تُقدِّمَ بدَعْوَى ٢٠ للقيام على رئيسك ، فتوقعَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ الشَّعَاءُ ! » وقال في نفسه : لم يفعل ذلك ابنُ رَشِيق إِنْشَاراً لي ولا سَحَبَةً لِجَهَتِي ! أكثر من اضطرام

النار على صاحبه وإشغاله بي عن نفسه ؛ ولا سيما أن معوته للرؤم بليّط لم تخف على أحد ؛ يعتقد أن يبقاها يثبت في مرسية ! « فكان أبداً يميزهم ويقويهم بما يعجزون عنه ، إبقاء لرمقهم ، وخوفاً من الداخلة عليه بقدومهم . وصح ذلك عند الأمير ، والمُعتمد في هذا كله لا ينأى عنه ، ويستغنى فيه الفقهاء ، لنفاقه بعد دخوله في البيعة له أول أخذِهِ لمرسية . فانفتحت عليه الأسباب ، وصنع له مجلساً أفتوا فيه بإزاحته عن المسلمين ، وإسلامه لسلطانهِ . فاستغاث عند ذلك * بالأمر ؛ فأجابهُ : « إنه لو كان لك عندى حقٌ ، لو هبته لك ، غير أنها أحكام السنّة ، لا أستطيع على إزاحتها عن مراتبها ! » وأمر بتنقيفهِ وإسلامهِ إلى المُعتمد . وقيد في الحديد ، ورأى هواناً عظيماً . وأمرَ للمُعتمد الراضى ابنه أن ينزل في تحتته على المقام ؛ وكأنه لم يكن بالأمس . وأرسل الأمير إلى أهل مرسية يأمرهم بالرجوع إلى صاحبهم والطاعة له ؛ خالف كلٌّ من فيها من ابنه وقرابته ، وثقفوا مدينتهم وجفّوا كلٌّ من مضى إليهم . وامتنعت الحال على ذلك ، بعد وسائل كثيرة تكرّرت بينهم ؛ فلم يقدر معهم على شئ .

٥٤ — رفع الحصار عن لبيط .

١٥

تفرق المحاصرين وإنشاء الخلاف بينهم

وشاخت المَحَلّة ، وطالَ مكثُها ، وملَّ الناسُ إلى أن ورد الخبرُ بقدوم ألفونس إليها ؛ فساءت الظنونُ من أجل ذلك . ورأى أمير المسلمين أن الرجوع عنها والانصرافَ أولى ، لطولِ مكثِ الناسِ وفشلهم ، مع جام القاديين من الرّوم ومع خلاف مرسية ، لئلا يسندوا إلى مبرها ومراقبها

٢٠

- إذ أنهم أرسلوا عن ألقوش وقت خلافتهم . فأخذ في الانصراف .
- ووقت بين المعتد والمعتصم ، صاحب المريّة ، مشاجرات وتباعات باردة في معقل من نظر الجبل وفي أمر شربة ، ما وقع فيه الشكوى إلى الأمير . وانفصلا على غير موافقة : كل ذلك من النحسة المقضية عليهما .
- ومثل ذلك جرى لنا مع أخينا صاحب مالقة ؛ وجعل يكرّر في ذلك ٥ النظر الذي تسلم فيه سفرة بطليوس ؛ وحفز في ذلك بزعمه ، وقال لي بقلة دربتيه : « إنما منع من ذلك السفرة الأولى ذكرى له عند انفصال الأمير ، فلم يدرك ولا أدر كنّا والآن ، فلا بدّ من ذكره على سعة ؛ وإلا ، فالحق بيني وبينك ! » فلم نخف لقوله ، ولا كابرته ، لعلى أن الأمير لا يحفل بشيء من هذا كله . ولما رأى أمير المسلمين كثرة طلبه لنا ، ١٠ أرسل إلينا قروراً ، يقول لنا : « لا يربك شكوى أخيك ؛ فإنّ السلطان لا يسمعه أن يقول له : « اسكت عن طلبك ! » ، ولا يعطيه عليك يدًا ، غير أنّنا نلوى القصة مرحلة * بعد مرحلة ، حتى يقع ١٥ الانفصال . » فشكرته على ذلك . وقال : « إنّ غرناطة عليه آكد من مالقة لاحتياجه إلى الاجتياز عليها في غزواته ، وما أشبه ذلك من المرافق ؛ فقدّم أنت الآن ، وأعدّ جهدك ما يجب من ضيافة السلطان إذا [كان] خطوره عليك ؛ وهو ما ربك على غرناطة في انصرافه ! » فسرّني ذلك ، وتقدّمت إلى وادي آش ، وأعددت له ما كان جديراً به .

الفصل الثامن

إمارة عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

(٤) سياسة عبد الله بعد عودته من لَيْط : إجراءات

دفاعية وسياسية

٥٥ — تشاؤم عبد الله بعد رجوعه من حصار لَيْط . مسلك قَرُور .

٥ ولما وصلت وادي آش ، وقد ظهر إلى قبل في لَيْط من جفاه قَرُور
وتخوفه لي ، وتهديدي على لسان الأمير ، والأمير عند ذلك غافل ، غير أنني
حسبت ذلك من قبله لما رأيت من مكاتته عنده . فأذركني من ذلك رُعبٌ
شديد . وعانيت مع هذا ما حلَّ بابن رَشِيق ، وسيفت وعيد القلبي لي ،
وجفاهه علي ، وإزالة رقبتي عنه ، ما زادني ذلك جرعاً ، لاسيما أن الجزع
والسوداء مُتَمَكِّنَةٌ من نفسي ، وأجدها في طباعي ؛ كدنت أن أموت غماً .
١٠ ولم أر قط قبل ذلك ذللاً ولا كدرأ ؛ فأنكرت الأمور كلها مع السلطان ،
على حسب ما كان يُكرِمني سَفَرَةُ بَطْلِيوس ، ورأيت ضد ذلك كله ؛
وقرُور يُناصبني العداوة ، ويرسل المشاورين إلى هوانى ، ويأمرني في حال
تلك الحرب بأوامر باردة ، يُريدُ بها إذلالى ، ويُظهر إلى فيها التعنيف
١٥ والتسفف .

فلما دخل نظري ، أراد إصلاح ما أفسد معي . فتمليت أن ذلك ليس

لنية صلحت ، بل لحاجة عرّضت ودفعت إليها ضرورة من قبل الاجتياز على .
 ولأجل ذلك ، قال لي على لسان الأمير في خبر أخى ما قال ؛ وتبين لي أنه ،
 لو كان ذلك من عند الأمير ، لم يطلب قرور منى عليها رشوة . فإنه مع
 ذلك لم يخلنى من مؤنتها ، وعمل لي حجة في دفع ضرر أخى عني ،
 ٥ وأخذ منى عليها ألف دينار مرابطية ، لم أنجزاً قط على ذكرها مدة حياته ،
 لئلا يطلبني عند الأمير ؛ ثم لم تنفصل ساعة أن انصرف ، وطلب لربيبه
 خمسمائة دينار ؛ فأعطيتها له ، وكذلك كل ما يطلب بأثرة وتهديد ، مع قلة
 رحمته ورفقه ، * وخشونة لفظه . ثم أعطيته في غرناطة ألف دينار أخرى ٤٧ (١)
 باسم كسوة خيله . وأما الذى صار إليه في سفرة بطليوس ومدة كونه على
 ١٠ لييط مع الرسل ، فأكثر من أن يحصى ؛ وهو في ذلك كله لا يزداد إلا
 نفاراً واستكباراً . ومثل هذه الوسطة تفسد على الرئيس كثيراً ، وتبغض
 إليه جماعة .

[أرسل في] أمير المسلمين ، وأنا يمكناسة ؛ فسألني عما صار إلى قرور
 من قبلي ، فرويت الأمر بأخزم ما يمكن ، وقلت في نفسي : « إن أعلمته
 ١٥ بذلك ، وهو على حال التمكن عنده ، فربما أخرجه كتابي عليه . وتقرّعه به ؛
 ثم اسقره على مرتبته ؛ فيكون حتى على يديه ؛ ولو أنى تأمن مكره ،
 لأعلمته بالخال ، أو ربما يقع الكتاب إلى يد قرور من غير تعمّد ، والغرر
 لا يدخله إلا أهوج ؛ وكثير من الحق يجب تركه ، [وفيه فائدة] بصاحبه ؛
 فلم يسعني أن أقول في جوابي للسلطان إنه لم يصّر إلى [بغير رشوة] ؛
 ٢٠ فيسكذبني ؛ إذ كان يعلم بلا شك أننا لم نخله من ذلك الدفع التي

أعلمني رُسُلِي . وصَحَّ عِنْدِي أَنَّ قَرُورًا حَيْثُ يَصْدُقُنِي ، وَلَا يَقَعُ
قَرُورٌ عِنْدَهُ فِي (١) »

٥٦ — بعض المؤامرات وتخاذُل ابن القُلَيْبِيِّ

[أَمَّا أَخُونَا تَعِيمٌ ، صَاحِبُ مَالَقَةٍ ، * فَإِنَّهُ أَرْسَلَ إِلَى الْقَاضِي ابْنِ سَهْلٍ خَمْسِينَ (٤٧) ر.]
مُنْقَالًا ، يَسْتَعِظُهُ عَلَى الْقِيَامِ عَلَيْنَا بِالْحُجَّةِ مَعَهُ فَرَدَّهَا إِلَيْهِ ابْنُ سَهْلٍ
لِلذِّكْرِ ، وَتَنَزَّهَ عَنْ ذَلِكَ .

وَقَالَ لِي ابْنُ الْقُلَيْبِيِّ : « هَذَا وَقْتُ اقْتِرَاضِكَ لِهَذَا الرَّجُلِ ، بَأَن
تَكْتُبَ إِلَيْهِ ، وَتَعِدَهُ بِالْقَضَاءِ عِنْدَ انْصِرَافِكَ ، وَهُوَ يَسْمَحُ فِي قِصَّةِ أَخِيكَ ،
عَلَى أَنْ تَجْعَلَ مَعَهُ فِي أَحْكَامِهِ . فَإِذَا أَلْصَقْتَنِي بِهِ ، رَأَيْتَ عَجَائِبَ مِنْ
تَأْتِي الْأُمُورَ عَلَى مَرْغُوبِكَ عِنْدَ الرَّابِطَيْنِ وَفِي بِلَادِكَ ؛ فَإِنَّكَ ، لَوْ شِئْتَ أَنْ
تَأْخُذَ مِنْ أَحَدٍ دِرْهَمًا بَغِيرِ النَّامُوسِ ، لَسَمِعْتَ عِنْدَ النَّاسِ ؛ وَإِذَا أَخَذْتَ
أَلْفًا عَلَى وَجْهِ الْحَقِّ ، حَلَّ لَكَ أَخْذُهُ ، وَلَمْ يَسْتَبْشِعْهُ أَحَدٌ . وَلَا أَجِدُ
أَحَدًا [يَنْفَعُ لَكَ] مِثْلَ هَذَا الرَّجُلِ ! » وَلَمْ يُبَارِخْنِي حَتَّى دَفَعْتُ إِلَيْهِ
بِحِطَّةٍ يَدَيَّ رُقْعَةً تَتَضَمَّنُ لَهُ الْقَضَاءَ ، وَمَا يَتَرَتَّبُ لَهُ عَلَيْهِ مِنْ مُسَانَهَةٍ وَمُشَاهَرَةٍ .
وَرَأَيْتُ إِبْجَابَتَهُ إِلَى ذَلِكَ صَلاَحًا بِي وَخَطَأً بِأَخِي ، وَلِمَا تُوجِبُهُ السِّيَاسَةُ مِنْ
مَسَايِرَتِهِ وَمُدَارَاتِهِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ . [وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ] قَدْ حَرَصَ عَلَى
الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَلَا أَرَاهُ يَبْتَدِئُ إِلَّا بِي ، مَا لَمْ وَفِي هَذَا
فَسَادُ مُلْكِي وَخَلْيَ ، وَيَقْدَرُ عَلَى ذَلِكَ (٢) .

(١) خرم نحو نصف صفحة في الأصل .

(٢) خرم نحو نصف صفحة في الأصل .

« . . . * وبك واثقٌ غير أنك قد جعلت لي بقولك هذا من الحرص ٤٨ (أ) على هذا المال ما أريد أن تعلمي بمن يُقبض ! » فإني لا أكاد أن أصدقَه ، لاحتياجي إلى ما نحنُ بسبيله من النفقات ، وإقامة هذا الجيش كل عام . فجعل يُسَمِّي لي أقواماً لا يعشرهم في الخير والفضل ، وقدم ذكرَ صاحبِ الأجناس ابنِ سلمون ، ونسبَ إليه برسم الأجناس ، وغيرهم ممن لم يُبَلَّ منهم إلا الطاعة والنصيحة . فقلتُ في نفسي : « الله أكبر ! ما قصد هذا إلا إلى هذه الحاشية لنا ولآبائنا ، ألا وهو يُريد إفرادنا دونهم ، ليتسكن بما شاء ، ولا تَجِدَ صديقاً نستريح إليه ، مع مائتين من إنفاسه ، وحدةٍ مقاطيعه ، وأغراضه القاتلة ! »

١٠ والمين تُبْصِرُ في عَيْنَي مُحَدِّثِهَا إن كانَ مِنْ حِزْبِهَا أَوْ مِنْ أَعَادِيهَا وجعل يَطْلُبُ بنى السَّيْدَى والكَتَبَةَ وغيرهم ممن قد اصطَفَعْنَاهُ [ونأمن] أمانته ؛ ثم قال لي : « كلُّ ما رأيتَ من السلطان في لَيْيَظ كان مثلي أن يجعل لك مجلساً ولغيرك تسعة وأنت على سعة ، وأفعل شيئاً تبطل به حجته [عليك] (١) »

١٥ « . . . * كُنْتُمْ عَلَيْهَا مِنَ التَّرَقُّبِ وَالْإِنْذَارِ بِالْعِيَالِ نَفْثَةً حَاقِدَةً . ٤٨ (ب) وكان هذا القلبيُّ مخمُولاً في أيام الشيخ جدنا — رحمه الله — ؛ وكان لا يدعه في المدينة ، ويأمره بسكنى ضيعةٍ ، لما كان يرى من شره وقدرته على الدواخل . فلما ظهر أمر المرابطين ، اصطنع إلى مؤمِّل وغيره ، ووسم لي بسمة الخير والقدرة على الكلام ، وأنه لا أحدٌ يقدر على استماله المرابطين على ما هو عليه . فوجهته رسولاً ، وهو في ذلك يعمل لنفسه ، ٢٠

ويسعى في هلاكى في الباطن ، وينتف بذلك ، على ما صحّ عندى ، ويقول :
« والله ! لأبْلِغَنَّ حَفِيدَ بَادِيسِ الطِينَةِ السوداء ، ولأَشُوِّقَهُ إِلَى دِرْهَمٍ يَنْفَقُهُ ،
[وذلك] على صنيعِ جَدِّهِ بى وبغيرى ! »

وأخبرنى أبو بكر بن مُسْكَن أنه [كان كتب] إلى أمير المسلمين في
أول سَفَرِهِ معه ، ولقى في الطريق خَبَرَ دخوله [الأندلس] ، وقال :
« هذا على رَغَمِ أَنْوَافِ الفَسَقَةِ سلاطين الأندلس ! » فقال أبو بكر بن مُسْكَن :
« وَمُخْلَطٌ مَعَهُمْ سُلْطَانُكَ ؟ » فقال : « نَعَمْ ! وهو المُقَدَّمُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ !
..... مات لَتَنْفُذِ الأَقْدَارِ ! » فلما أذن الله بانصرافه تكلم
ابن سَهْلٍ إلى الأمير وقال له : « أَنْتَ عَلَى (١) .

١٠ « * نحن بحال لا يرضى عنا فيه لارعية ولا جند ؛ وفي هذا
الفساد والقطع . فقال لى القليعى : « إِنْ تُعِنْ عَلَيْكَ الْجُنْدَ ، اسْتَنْجَدْتُ
مِنَ الْعِدُوِّ مِنْ يَغْنِيكَ عَنْهُمْ . وَدَعْنِي وَرَأْيِي بَعْدَ إِشْرَاكِى مَعَ ابْنِ سَهْلٍ ،
وَلَا عَلَيْكَ مِنْ حَيْثُ يَقُومُ لَكَ الْمَالُ ! »

فَرَأَيْتُ أَمْرًا مُعْمًى وَمُسْتَأْمَرًا بِهِ دُونِي ، مَعَ مَا كَانَ يَنْطِقُ بِهِ لِسَانُهُ أَبَدًا
١٥ مِنَ الْوَعِيدِ ، وَالتَّهْدِيدِ عِنْدَ أَصْدِقَائِهِ وَمَنْ يَنْقُلُ ذَلِكَ إِلَيَّ عَنْهُ أَنَّهُ يَقُولُ :
« وَاللَّهِ لَا أَبْلِغَنَّ مِنْ حَفِيدِ بَادِيسِ مَا كَانَ يَبْلُغُ جَدُّهُ مِنِّي وَمِنْ غَيْرِي ! »
يسرح بذلك لَقْلَقَةً تَحْفُظُهُ وَإِرْسَالَهُ لِسَانَهُ ، وَلَا حَتِّقَارَهُ لَنَا وَاحْتِيَاجِنَا إِلَيْهِ . فزاد
ذلك الْجُنْدَ قَلَقًا ، وَهُمُورًا بِالِانْتِقَالِ مُجْتَمِعِينَ عَلَى ذَلِكَ .

فَلَمَّا بَصُرْتُ هَذِهِ الْحَالَةَ ، قُلْتُ فِي نَفْسِي : « أَنَا بِسَبِيلٍ ، إِنْ اسْتَفْسَدْتُ
٢٠ إِلَى الْجُنْدِ ، وَهُمْ جَنَاحَايَ ، أَنْ بَقِيْتُ وَحْدِي مَعَ يَرُومٍ خَلْعِي . فَالْأَوَّلَى عَلَى

كلَّ حال أطباؤهم ، واستصلاحُ ما فسد من أنفسهم ؛ وإسقاطُ القلبيّ وحده واجبٌ في رضى عامة عبيدى وأجنادى . « فجمعتهم بمحضره ، وأغلستهم أنى راجعٌ عن ذلك للذهب ، وراذ عليهم إنزالاتهم . فقام الكلُّ على القلبيّ ، وهُمُّوا باختطافه من بين يديّ لولا إمساكى لهم ؛ وخشيتُ مع هذا عليه أن يقتلوه ، فتكون شهرةً وعقوباً ، وينجز الأمر إلى غير المحمود .

فقلتُ لهم : « أنا أكفيكم أمره ! » وأمرتُ بثقافه على أجل الوجوه في بيتٍ بقرب من القصر ؛ وكان تحت برٍّ وإكرام ، وأنا في ذلك أعتذرُ إليه من قيام العامة ، وأعيدُهُ بالانطلاق عند إطفاء النائرة ، كالذى صنعتُ .

فلما توطدت الأحوال وقررت قرارها ، أمرتُ بإخراجه ، وأنهيتُ إليه أن يكفَّ لسانه ، ويدعَ فضولَ القول والعمل إلا فيما يعنيه ويشاكل طريقته . فقال لى : « نعم ! أنا ألزِمَ الرِّوَابِطَ ، وأسلُكُ سبيلَ العافية إن شاء الله ! » فلم يكنْ إلا أن انطلق ، وطار* إلى أمير المسلمين بالشكوى ، ٤٩ (ب) وزاد في الطين بلةً . فقال لى الجند : « لو أنك أمسكتَه ، لم يُهَيِّجْ عليك النارا وستدُمُ عاقبة انطلاقيه ! »

١٥ ٥٧ — سيرة الجند مع الأمير في ذلك الحين . تشييد الحصون

وأراني جميعُ الجند من التأتى والالتقياد والمناخعة ما حسبتُ أنهم يُقاتلون عنى الدَّجَالِ . فسررتُ بهذه الحالة ، واطمأننتُ إليها ، وقلتُ : « هؤلاء أئمة لا يَرَوْنَ بى بديلاً لإنصافى لهم ورغد عيشهم معى ؛ وهم قد رأوا جندَ العدو ، وأن أقلَّ عبيدٍ لهم أغنى من غيرهم ، وأصلحُ حالاً .

٢٠ فلا يمكن استبدال الأذى بالأفضل ! » ثم علمتُ قياسَ للعاربة أهل

الحصون ، وَعَلِمْتُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ ؛ وَلَمْ نَظُنَّ قَطُّ أَنَّ أَحَدَهُمْ يَبِيعُ أَبَايَ . وَإِنَّمَا وَجَسَتْ نَفْسِي مِنَ الرِّعْيَةِ لَطَمِهِمْ فِي حِطِّ الْمَغَارِمِ ، وَلِلَّذِي شَاعَ مِنَ الزَّكَاةِ وَالْمُسْرِ عِنْدَ الرُّبَاطِيِّينَ . قُلْتُ : « إِنَّ بِهَذِهِ الْعِقْبَانَ الَّتِي عَلَى رُؤُوسِهَا ، لَا تَجْتَرِئُ عَلَى شَيْءٍ إِذَا تَتَقَفَتِ الْمَاعِيقُ ، كَانَ أَمْرُ الرِّعْيَةِ يَسِيرًا . وَكَمْ عَسَى يَسْتَطِيعُ الْجَيْشُ الْقَادِمُ عَلَى أَنْ يَنْعَمَ جَمِيعَ الْبِلَادِ ؟ وَمُحَاوَلَةُ مَقْعَلٍ وَاحِدٍ مِنْهَا تَطُولُ ، وَتَتَخَدَّثُ فِي خِلَافِهِ أَخْوَالُ . » ٥

فَصَرَفْتُ وَجْهَ اهْتِبَائِي إِلَى تَشْيِيدِ الْحَصُونِ وَبُنْيَانِهَا ، وَإِعْدَادِ مَا يُصْلِحُهَا لِإِخْصَارِ إِنْ كَانَ . فَلَمْ أَدْعُ وَجْهًا مِنْ وَجْهِ الْحَزْمِ إِلَّا وَفَعَلْتُهُ : مِنْ إِقَامَةِ الْأَجْيَابِ ، وَإِعْدَادِ الْمَطْلَحِينَ ، وَأَنْوَاعِ الْمُدَدِ مِنَ التَّرَاسِ وَالنَّبْلِ وَالرَّعَادَاتِ ، وَجَمِيعِ الْأَقْوَاتِ ؛ وَقَلَعْتُهَا مِنَ الْقُرَى ؛ وَأَعَدَدْتُ لِكُلِّ حِصْنٍ قُوَّتَهُ لِأَزِيدَ مِنَ الْعَامِ . وَفَعَلْتُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْمَدِينَةِ حَضَرَتِي ، مَا اسْتَعْنَيْتُ عَنْ تَحْدِيدِهِ لِاشْتِهَارِهِ . ١٠

وَقُلْتُ : « لَيْسَ مِنَ الْمُتَمَكِّنِ أَنْ يَتَعَرَّضَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ أَحَدًا مِنْ سُلَاطِينِ الْأَنْدَلُسِ إِلَّا بَعْدَ إِبْرَامِهِ لِأَمْرِ الرُّومِيِّ ! وَلَا بُدَّ عِنْدَ مُنَاطَرَتِهِمْ مِنْ فَرَجٍ : إِنْ غَلَبَ الرُّبَاطِيُّ ، لَمْ يَقْتَنَا الدَّخُولُ فِي طَاعَتِهِ ، وَلَا أَسَدَيْنَا إِلَيْهِ مَا تَذُمُّ عَاقِبَتُهُ أَكْثَرَ مِنَ الْإِحْتِيَاظِ عَلَى بِلَادِنَا وَالْمُدَارَاةِ عَلَيْهَا ؛ « فَلَا الْحِمَارُ سَقَطَ ، وَلَا الزُّقُ انْتَحَرَقَ ! » نَحْنُ مُذَرِّكُونَ : لَا يَتَنَبَّيْ تَقْدِيمَ يَدٍ سَيِّئَةٍ إِلَيْهِمْ . * وَإِنْ غَلَبَ الرُّومِيُّ ، كُنَّا مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ ، وَقَدْ نَعْنَا ٥٠) مَا أَبْرَمْنَاهُ مِنْ هَذَا الْبُنْيَانِ وَالتَّشْيِيدِ ، وَانْتِخَاذِ الْمُدَدِ ؛ فَسَيَكُونُ بِذَلِكَ لِلْمُسْلِمِينَ حِمَايَةٌ وَانْجِرَارٌ إِلَى غَدٍ ، إِذَا الْبُنْيَانُ مِنَ الرُّبَاطِ لَا يَنْفَعُ ! » ٢٠ وَلِذَلِكَ أَعَدَدْنَا الْمُنْكَبَّ : إِنْ تَغَلَّبَ الرُّومِيُّ ، فَأَكُونُ عَلَى الْبَحْرِ مَتَصِلًا

- بالمسلمين ، نُدافع منها جُهدنا ، إلى أن نُضطرَّ إلى الجواز وطلَّب السلامة
بمُشاشة أنفسنا ونُتَقِّف من أموالنا . فشيَّدتها لذلك ، كالذي شهر عنا .
والجاهلُ لا يدري ما أوَّلُ هذا ولا آخره ، إلَّا ويخبط [خبط] عشواء :
فكلُّ يتكلَّم على شهوته . ولم نَعْتَقِدْ في أمر المُرابطين — يعلم الله ذلك —
٥ صَدَّهم عن جهادٍ ، ولا تَظَاهَرُوا مع أَحَدٍ عليهم ، ولا أَرَدْتُ مِمَّ شَيْئًا من
مِساءةٍ نُسِبَتْ إلينا ، أَكْثَرَ من أَنِّي جَزَعْتُ الجِزْعَ الشَّدِيدَ مِمَّا تَقْدَمُ
ذِكْرُهُ من تلكِ المِعاي التي أَبْصَرْتُهَا ، وما جرى على ابنِ رَشِيقٍ ، مع
هَلَمِّي لذلك ، وتمكُّنِ السُّوداءِ مِنِّي ، وسوءِ الظَّنِّ مع معاينةِ اليقين .
فقلت : « ما دام تَتَلَقَّى المِثْمَتَانِ ، نخشى حِمْلَةَ السَّيْلِ على هذهِ المدينة :
١٠ فَتَحْصِينُهَا أَوَّلَى ، وَلَنْ يُضِرَّ ذَلِكَ » فَنِي دَعَانِي أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى إِعْطَائِهِ
عَسْكَرٍ أَوْ مَالٍ ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِمَّا يَجِبُ مِنْ مُشَارَكَتِهِ وَإِنْجَادِهِ ، لَمْ
تَتَأَخَّرْ عَنْهُ ، فَتَقِمَّ عَلَى نَفْسِي الْحُجَّةُ ؛ وَتَجَلَّبَ إِلَيَّ الْمَضَرَّةُ إِنْ فَعَلْتُ غَيْرَهُ ؛
غَيْرَ أَنِّي ، مَتَى دَعَانِي إِلَى الْخُرُوجِ إِلَيْهِ بِنَفْسِي ، تَعْتَذِرُ وَنُدَافِعُ ذَلِكَ
جَهْدِي . فَعَسَى [أَنْ] يَتَرَكَنِي وَيَقْبِلَ عَذْرِي ؛ وَمَتَى لَمْ يَقْبَلْ لِي عَذْرًا ، نَعْلَمُ
١٥ أَنَّهُ يُرِيدُ إِخْرَاجَ أَمْرِي إِلَى حُدُودِ الْفَعْلِ ؛ فَهُوَ إِذَا عَلَيَّ مَتَعَسَّفٌ لِكَلَامِ الْأَعْدَاءِ
وَالْكَذِبِ ؛ فَلَا بُدَّ لِي عِنْدَ ذَلِكَ مِنَ الْإِحْتِيَاظِ عَلَى مُهَجَّتِي وَالتَّحْصِينِ عَلَى
نَفْسِي ، وَنَجْعِهِ إِذْ ذَاكَ كَسَاثَرُ مَنْ يُرِيدُ إِخْرَاجِي مِنَ السَّلَاطِينِ ؛ وَلِي مَعَهُ
اللهُ ، إِذَا لَمْ أَنْوِ بِهِ سُوءًا ، وَلَا وَاسَيْتُ عَلَيْهِ أَحَدًا ، وَلَا صَدَدْتُهِ عَنْ
جِهَادِهِ . فَبَأَى شَيْءٌ يَتَسَبَّبُ إِلَيَّ إِلَّا إِنْ شَاءَ التَّذَنُّبُ مَعَ الْقُدْرَةِ ؟ فَلَا
٢٠ طَاقَةَ لِي بِذَلِكَ ، * كَالَّذِي صَنَعَ إِنْسَانٌ دَخَلَ عَلَى بَعْضِ الْمُلُوكِ ، وَقَدْ أَعَدَّ ٥٠ (ب)
لِكَلَامِهِ جَوَابًا ؛ فَلَمَّا خَرَجَ إِلَى الثَّقَافِ ، سُئِلَ عَنْ إِعْدَادِهِ الْجَوَابِ وَزَعَمِهِ

أَنَّ ذَلِكَ نَافِعٌ لَهُ ؛ فَقَالَ : « لِكُلِّ كَلِمَةٍ وَجِدْتُ جَوَابًا إِلَّا لِقَوْلِهِ :
 « خُذُوهُ ! » فَلَمْ أَذِرْ مَا أَقُولُ فِيهَا ؛ فَوَكَّلْتُ الْأَمْرَ إِلَى الْأَقْدَارِ ! »
 وَكُنْتُ ، أَيَّامِي تِلْكَ ، بَيْنَ الرِّجَاءِ وَالْخَوْفِ ، إِلَّا أَنِّي وَاقِعٌ بِكُلِّ
 مِنْ مَعَى مِنْ رَجَالِي وَخَدَمَتِي أَنَّهُمْ لَا يَنْدَرُونِي . فَتَوَيَّتْ نَفْسِي لِذَلِكَ بَعْضَ
 ٥ الْقُوَّةِ ، مَعَ مَا كُنْتُ أَعِدُّهُ .

٥٨ - معاقبة عبد الله مع البرهانش وكيل الفونش السادس

وَلَمَّا حَانَ انْصِرَافُنَا مِنْ لَيْلِيْط ، كَلَّمَنَا أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ فِي عَسْكَرٍ يَتَرُكُهُ
 عِنْدَنَا بِالْأَنْدَلُسِ ، خَوْفًا مِنَ الرُّومِيِّ أَنْ يَكْلِبَ عَلَيْهَا ، وَيَطْلُبَنَا بِثَأْرِ تِلْكَ
 ١٠ السُّفْرَةِ وَغَيْرِهَا ؛ فَلَا يَكُونُ عِنْدَنَا بَيْنَ نُدَافِعُ ؛ فَقَالَ : « أَصْلِحُوا نِيَّاتَكُمْ ،
 تُكْفُوا عَدُوَّكُمْ ! » وَلَمْ يَعْطِنَا عَسْكَرًا . فَأَيَّقْنَا أَنَّ الرُّومِيَّ لَا يَدْعُنَا عَلَى
 هَذِهِ الْفُرْصَةِ دُونَ طَلَبِ . كَالَّذِي كَانَ . فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ احْتَفَلَ وَأَتَى طَالِبًا
 لِلْمَالِ ، مُتَجَنِّيًا عَلَى مَنْ خَالَفَهُ أَنْ يُفْسِدَ بِلَادَهُ . وَعَاقَدَ صَاحِبَ مَرْقُشَةَ
 وَمَنْ يَلِيهِ مِنَ الشَّرْقِ ؛ فِدَافَعُوا شَرَّهُ وَدَفَعُوا إِلَيْهِ مَا سَلَفَ لَهُ عِنْدَهُمْ .
 ١٥ وَبَلَغَنِي الْخَبْرُ ، وَزَادَ ذَلِكَ فِي غَمِّي ، وَعَلِمْتُ أَنِّي فِيهِ كَرَاكِبِ الْأَسَدِ :
 إِنْ أَسَلْتُ الْبَلَدَ ، وَلَا عَسْكَرَ عِنْدِي ، هُنَاكَ ، وَلَمْ يَنْجِبْ لِي فِيهِ دِرْهَمٌ ،
 وَلَمْ أَغْزِرْ مَعَ هَذَا ، وَلَا يَقْرَأُ الْمَطَالِبُ بِأَنْ يَقُولَ عَنِّي إِنِّي ضَيَّعْتُهُ أَوْ
 سَقْتُ إِلَيْهِ الْعَدُوَّ ، كَالَّذِي رَأَيْتُ وَسَمِعْتُ قَبْلُ عَنْ ابْنِ رَشِيْقٍ — وَخُسَارَةُ
 بَلَدِي زَائِدَةٌ — وَلَا نَقِيمُ أَوْدًا بِذَلِكَ لِكُلِّ مَا مُحَاوَلُهُ مِنَ الْغَزْوِ كُلِّ عَامٍ
 ٢٠ وَضِيَافَاتِ الرُّبَاطِيِّينَ ؛ فَتَجْتَمِعُ عَلَى الْخُسَارَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ . وَإِنْ وَاسَيْتُ الْقَوْمَ

وأصلحتُ على نفسي ، قيلَ : « قد عاقَدَ الرُّومِيُّ ! » وَبُشِنَعُ عَلَى مَا لَمْ أَفْعَلْ ، كَالَّذِي كَانَ . فَلَمْ أَنْجُ مِمَّا تَوَقَّعْتُ لِلْقَدَرِ الْمُنْفِضِ .

وكان أَلْبَرْهَانُ زَعِيمَ جِهَاتِ غَرْنَاطَةِ وَالْعَرِيَّةِ ؛ وكان أَلْفُونُشُ قد وكلَهُ أَمْرَ الْجِهَتَيْنِ ، * من إقْدَارِ أَمْرِهِ فيها لفسادٍ على مَنْ تَعَذَّرَ لَهُ عِنْدَهُ ٥١ (١)

شَيْءٌ ، وَلَقَبْضِ مَالٍ وَتَوَسُّطٍ مَا يَنْفَعُهُ فِيهَا . فَأَرْسَلَ إِلَى أَوَّلًا عَنْ نَفْسِهِ ، يُنْذِرُ بِدُخُولِ وَادِي آكْسَ ، وَأَنَّهُ لَا يَرُدُّهُ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا الْفِدَاءُ لَهَا . قُلْتُ

فِي نَفْسِي : « وَمَعَ مَنْ أَتَى رَأْيُهُ ؟ أَيُّ مَقْدَرَةٍ بَنَى عَلَى مُدَافَعَتِهِ ؟ لَا عَسْكَرٌ تَرِكَ لَنَا مُدَافِعُ بِهِ ! فَكَمْ يَأْخُذُ فِي هَذِهِ النَّصْبَةِ مِنْ أَمْرِ

الْمُسْلِمِينَ ! وَكَمْ يَفْسُدُ فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ ! مَا لَا يَعْشُرُ قِيَمَةَ مَا يُعْطَى كَالَّذِي عَهَدْنَاهُ مِنْهُمْ ! اللَّهُمَّ لَوْ كَانَ ، وَنَفَذَ ذَلِكَ ، وَبَلَّغْنَا عَنْ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ ١٠

عِنْدَهُمْ ! أَلَيْسَ مِنَ الصَّلَاحِ إِفْدَاؤُهُمْ ^(١) بِمَا عَزَّ ؟ فَتَحَنُّ جُدْرَانِهِ أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ قَبْلَ رِحْلَتِهِمْ دُونَ فُسَادٍ فِي الْبِلَادِ ! وَتَحَنُّسِيبِ ذَلِكَ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَهُوَ

الْعَالَمُ بِالضَّمَائِرِ ! فَإِنَّا لَوْ فَعَلْنَا ذَلِكَ أَشْرًا وَبَطْرًا ، وَعِنْدَنَا بَيْنَ مُدَافِعٍ ، لَكَانَ فِيهِ الْحُجَّةُ عَلَيْنَا ! »

فاجتمع رأيُنَا على إِرْضَائِهِ بِالْيَسِيرِ ، مَعَ مُعَاقَدَتِهِ أَلَّا يَقْرُبَ لَنَا بِلْدًا بَعْدَ أَخْذِ هَذِهِ الدَّقَّةِ ، فَارْتَبَطَ إِلَى ذَلِكَ . فَلَمَّا حَصَلَتْ عِنْدَهُ ، قَالَ : « هَا أَنَا

قَدْ صَلَّحَ جَانِبِي ! وَالْأَوْكَدُ عَلَيْكُمْ أَمْرُ أَلْفُونُشُ ، الَّذِي هُوَ عَلَى الْحَرَكَةِ عَلَيْكُمْ وَإِلَى غَيْرِكُمْ ؛ فَمَنْ أَنْصَقَهُ نَجَا ، وَمَنْ حَادَ عَنْهُ ، فَسَلَّطَنِي عَلَيْهِ ! إِنَّمَا

أَنَا عَبْدُهُ ، لَا بَدُّ مِنْ إِيْتَانِ مَرْغُوبِهِ ، وَالْوَقُوفِ عِنْدَ أَمْرِهِ . وَلَا يَنْفَعُكَ هَذَا الَّذِي أُعْطِيتُمُونِي إِنْ خَالَقْتُمُوهُ . وَلَيْسَ بِنَافِعٍ إِلَّا فِيمَا يُخَصُّنِي دُونَ رَيْبِي ٢٠

(١) أصل : « أقدم » .

إِنْ حَدَّثَ لِي ضِدَّهُ ! » فَعَلِمْنَا أَنَّ قَوْلَهُ حَقٌّ يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ . فَقُلْنَا : « لَا يُمْكِنُ أَنْ نَوَجِّهَ نَحْنُ إِلَيْهِ وَنَبْدَأَهُ ؛ فَنُوقِظُهُ لِأَكْلِنَا ! وَلَكِنْ ، مَتَى أُرْسِلَ بِأُذْنٍ بِذَلِكَ ، سَنَعْتَذِرُ إِلَيْهِ ؛ فَعَسَى [أَنْ] يَقْبَلَ رَغْبَتَنَا ، وَلَمْ نَفْتَحْ لَهُ بَابًا فِي إعْطَاءِ شَيْءٍ إِلَّا يَزِيدَ طَمَعَهُ ! أَكْثَرُ مِنْ تَلَوَّى الْقَوْلَ ، عَسَى مِنْ هُنَا إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ ، [أَنْ] يَأْتِيَ عَسْكَرٌ يُكْسِرُ بِهِ ؛ فَلَا يَبْأُ بِقَوْلِهِ . وَإِنْ لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ ، لَمْ نَكُنْ نُقَدِّمُ إِلَيْهِ قَبِيحًا ، فَتَشَقَّى عِنْدَ ذَلِكَ . »

وَدَافَعْنَا الْأَمْرَ عِنْدَ الْأَبْرَهَانِشَ ، وَأَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى أَنْ نَعْطِيَهُ ^(١) شَيْئًا ، * وَاعْتَذَرْنَا بِالْمُرَابِطِينَ وَغَيْرِ ذَلِكَ بِمَا لَزِمْنَا مِنَ النِّفَقَاتِ عَلَيْهِمْ . فَسَكَتَ عَنَّا ٥١ (ب) الْخَنْزِيرُ ، وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبِهِ ، كَالَّذِي يُلْزِمُهُ مِنَ التَّخَدُّمِ لَهُ ، وَسَأَلَهُ أَنْ يُوَجِّهَ لِي رَسُولًا يُطْلُبُ جِزْيَتَهُ ؛ فَإِنْ انْصَرَفَ دُونَ شَيْءٍ ، كَانَ هُوَ الْمُتَمَتِّعُ مِنْ جِهَانِهَا .

٥٩ — التَّزَامُ عَبْدَ اللَّهِ عَلَى أَدَاءِ الْجِزْيَةِ لِلْفُؤُنْشِ السَّادِسِ

وَعَقْدُ اتِّفَاقٍ جَدِيدٍ مَعَهُ

وَتَأَهَّبَ الْفُؤُنْشُ إِلَى الْحَرَكَةِ ، وَقَدَّمَ رَسُولَهُ بَيْنَ يَدَيْ حَرَكَتِهِ . فَلَمَّا صَحَّتْ عِنْدَنَا ، أَتَانَا مِنْهَا الْمُقِيمُ الْمُقْعِدُ ، وَلَمْ تَدْرِ أَيْنَ الْخَيْرِ : إِنْ كَانَ فِي رَفْضِ الْبَلَدِ وَتَرْكِ لِيَعْبَثَ فِيهِ ، أَوْ مُدَارَانَةِ بِمَا تَيْسَّرُ . وَوَقَعَتْ مِنْ ذَلِكَ هَيِّئَةً فِي النَّاسِ وَرَجَّةٌ ، حَتَّى بَلَغَ مِنَ الْجَزْعِ أَتْنَا لَمْ نُصَدِّقْ أَنْ يَقْبَلَ مِنَّا الْمَالَ دُونَ الْمُلَازِمَةِ لَنَا ، طَالِبًا لِإِخْرَاجِ لَيْطٍ وَمُعَاوَدَةِ الْمُرَابِطِينَ . وَطَمَعْنَا أَنْ يَقْنَعَ رَسُولُهُ بِالْيَسِيرِ ؛ فَقَالَ لِي : « لَمْ آتِ عَنَ ذَلِكَ كُلِّهِ ،

(١) الْأَصْلُ ، « نَعْطُوهُ » .

إِلَّا أَنْ تَعْطِيَهُ مَا فَاتَهُ عَنْكَ مِنْ حِزْيَةٍ ثَلَاثَةِ أَعْوَامٍ بِثَلَاثِينَ أَلْفًا ! لَا يُنْقِصُ
 مِنْهَا شَيْءٌ ؛ وَإِلَّا ، فَهَا هُوَ مُقْبِلٌ ! وَالَّذِي تَقْدِرُ عَلَيْهِ ، فَأُصْنَعْ ! »
 فَرَوَّيْتُ الْأَمْرَ فِي نَفْسِي ، وَرَأَيْتُ أَنَّ التَّعَاطِيَّ حَاقَّةٌ لَا تَفِيدُ ، وَقُلْتُ :
 « إِنْ أَخَذْتُ هَذِهِ مِنَ الرِّعْيَةِ ، ضَجَّتْ وَشَكَتْ ، وَيَكُونُ مُقَدِّمُهَا
 بِمَرْوَكْشٍ ^(١) شَاكِينَ ، يَقُولُونَ : « أَخَذَ أَمْوَالَنَا وَأَعْطَاهَا لِلنَّصَارَى ! »
 وَلَكِنْ لِهَذَا الْوَقْتُ يَحْتَاجُ الْإِنْسَانُ مَا ادَّخَرَ لِيَصُونَهُ بِهِ بَلَدَهُ وَغَيْرَ ذَلِكَ .
 وَأَنَا جَدِيرٌ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ مِنْ بَيْتِ مَالِي ، بِمَحِثٍ يُسَلِّمُ الْبَلَدَ ، وَبِمَحِثٍ
 تَشْكُرُ الرِّعْيَةَ بِمَدَافَعَةِ عَدُوِّهَا دُونَ تَكْلِيفِهَا شَيْئًا ، وَلَا تَقَّعُ الشُّنَّةُ ! »
 فَفَعَلْتُ ذَلِكَ ، وَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ الثَّلَاثِينَ أَلْفًا ، لَمْ أَرْزَأْ أَحَدًا فِيهَا دِرْهَمًا .
 ١٠ وَرَأَيْتُ مَعَ ذَلِكَ أَنْ أُجَدِّدَ مَعَهُ عَقْدًا إِلَّا يَمْرُضُ لِي بَلَدًا ، وَلَا يَغْدِرُنِي
 بَعْدَهَا ، خَوْفًا أَنْ يَفْتَلِبَ عَلَيَّ ؛ فَأَجَابَ إِلَى التَّعْدُدِ . وَقُلْتُ فِي نَفْسِي :
 « إِذَا لَا بُدَّ مِنْ دَفْعِهَا ، فَبِالتَّعْدُدِ أَوْلَى . فَإِنْ حُوجِّجْنَا إِلَيْهِ ، وَجَدْنَاهُ ،
 وَلَمْ يَضُرَّ ؛ وَإِنْ أَسْتَعْنَيْ عَنْهُ ، كَانَ مَكَانَهُ مُعَمَّرٌ الْفَتَى وَالْبَيْضُ الرِّقَاقُ ، إِنْ
 تَدَارَكَنَا * اللَّهُ بِسَكْرٍ يَدْفَعُهُ ؛ وَالْحَرْبُ خُدْعَةٌ ! » وَإِذَا لَمْ تَغْلِبْ ، ٥٢ (ب)
 ١٥ فَأَخْلِبْ ! »

فَأَجَابَ إِلَى تِلْكَ الْمَعَادَةِ ، حِرْصًا عَلَى اخْتِذِ الْمَالِ ، وَنَحْنُ لَا نَشْكُ أَنَّهُ
 يَقْدِرُ ، كَانْخَاطِرِ لِنَفْسِهِ لِلضَّرُورَةِ الَّتِي لَا سَبِيلَ إِلَى سِوَاهَا . وَقَالَ لِي عِنْدَ
 ذَلِكَ رَسُولُهُ : « يَقُولُ لَكَ الْفُونْشُ : « إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ تُخَلِّطُ مَعَ هَذِهِ

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، عَرَضَ « مَرَاكْشُ » ؛ وَلَيْسَ بِتَصْغِيرٍ ، إِذْ عِبَارَةٌ « مَرْوَكْشُ » كَانَتْ

تَسْتَعْمَلُ دُونَ غَيْرِهَا أَيَّامَ الْمُرَابِطِينَ مُؤَمَّسَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ ؛ وَهِيَ الَّتِي انْتَقَلَتْ إِلَى الْفَتْةِ الْإِسْبَانِيَّةِ دُونَ عِبَارَةِ

« مَرَاكْشُ » ؛ وَاسْمُهَا بِالْأَسْبَانِيَّةِ إِلَى الْيَوْمِ Marruccos .

- لِلْعَاقِدَةِ اسْتِعَانَةً بِهِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ بِلَادِكَ الَّتِي عِنْدَ ابْنِ عَبَّادٍ ، فَهُوَ يَحْدُثُ
لَكَ فِيهَا فِي وَجْهِهِ هَذِهِ . « فَأَجَبْتُهُ : « إِنِّي لَا أَعِينُ عَلَى مُسَلِّمٍ أَحَدًا !
وَإِنَّ الَّذِي دَعَانِي إِلَى هَذِهِ الْعَاقِدَةِ الْمُدَافَعَةُ عَلَى بَلَدِي وَأَهْلِي مِلَّتِي . فَإِنْ
وَقَّيْتُمْ بِذَلِكَ ، فَهُوَ الْمُرَادُ الَّذِي إِلَيْهِ قَصَدْنَا . » وَكَانَ مِنْ نَيْتِهِ أَنْ يَخْلُطَ
الْفِتْنَةُ بَيْنَنَا وَيَنْزِلَ ابْنُ عَبَّادٍ ، لِيَجِدَ بِذَلِكَ السَّبِيلَ إِلَى بِلَادِهِ ، وَيَقْوَى
عَلَيْهَا بِأَمْوَالِنَا ، وَيَتَسَبَّبَ إِلَى طَلَبِ كَثِيرٍ مِنْ أَمْوَالِنَا ، إِذْ كَانَتْ تِلْكَ
الثَّلَاثُونَ أَلْفًا عَلَى وَجْهِ الدِّينِ لِلْمُسَالَةِ فَقَطْ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ اسْتِثْنَاءَ عَمَلٍ .
وَكَانَ مَعَ هَذَا لَا يَتَّقِي يَقُولُنَا ^(١) ، وَيَحْسِبُ ذَلِكَ مِثًا خُدْعَةً . وَقُلْنَا
لَهُ : « إِنَّا مُعْرِضُونَ فِي هَذِهِ الْفَعْلَةِ مَعَكُمْ ، وَنَسْتَدْرِكُنَا تَبَاعُثُهَا عِنْدَ
الرَّابِطِينَ ، وَنَطَالِبُ بِذَلِكَ ! » فَقَالَ ، تَسْمِيلاً لِأَخْذِ مَالِهِ : « مَتَى
أَدْرِكُكُمْ فِي ذَلِكَ مِنْهُ طَلَبٌ ، فَعَلَى اللَّبِّ عَنْ مَدِينَتِكُمْ . » فَأَجَبْنَاهُ :
« بَلْ ، هُوَ يَرَى عِزَّنَا ؛ وَقَبُولُهُ وَعِظْفُهُ أَرْجَى عِنْدَنَا مِنْ مَعُونَتِكُمْ . »
فَانْقَصَلَتْ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ ، وَقَالَ [لِي رَسُولُهُ] : « لَا بُدَّ لَهُ مِنْ
تَدْوِيخِ سَائِرِ الْبِلَادِ مِنْ نَظَرِ ابْنِ عَبَّادٍ وَغَيْرِهِ ، إِنْ لَمْ يَنْطَلِقْ ! » فَقُلْتُ :
« هَذَا أَمْرٌ لَا يَسْأَلُنَا اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ! كُلُّ أَحَدٍ مُسْئُولٌ عَنْ رِعْيَتِهِ !
نَحْنُ قَدْ اخْتَلَنَّا عَلَى مَنْ قَلَّدَنَا اللَّهُ أَمْرَهُ ، وَقَدَّيْنَا أَرْوَاحَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ! وَمَنْ لَهُ
حَاجَةٌ مِنْ سَائِرِ السَّلَاطِينِ يُقَابِلُ أَمْرَكُمْ حَسَبَ مَقْدَرَتِهِ ، إِنْ شَاءَ بِقِدَاءِ
أَوْ قِتَالٍ . لَا تَتَكَلَّمُ نَحْنُ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا ، وَلَا يَنْبَغِي لَنَا ؛ وَلَا أَنْتُمْ
وَأَقِيعُونَ تَحْتَ أَوْامِرِنَا ، فَهَنَّاكُمْ عَنْ * ذَلِكَ . وَنَحْنُ لَمْ نَتَخَلَّصْ مِنْ ٥٢ (ب)
٢٠ التَّحْصِينَ عَلَى مَا يَخْصُنَا إِلَّا بَعْدَ كَدٍّ ؛ وَمَا كَدُّنَا ، فَشَأْنُكُمْ ! وَأَنَا

(١) أصل : « يَتَّقِي قَوْلُنَا » .

بِرِيءٍ ، لا أُنْغِسُ فِي ذَلِكَ يَدًا وَلَا لِسَانًا . »

ولم أجدَ وَجْهًا نرجو به بعضَ الدفاع عن إخواننا المسلمين أكثرَ من
مُخاطَبَةِ الْمُعْتَمِدِ ، نُعلمه بِجَلِيَّةِ حالنا معهم ، وما ذكروه من إبطاء بلاده ،
وَتُنْذِرُهُ بذلك ، لِكَيْ يَقْلَعَ ، وَيُدْرِعَ الحَزْمَ ، وَيُقَدِّمَ لِلأَمْرِ أَهْبَتَهُ .

٦٠ — تهديد يوسف بن تاشفين إلى عبد الله

٥

عبد الله يبرّر مسلكه

ثُمَّ خَاطَبَنَا أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ ، نَحْصُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا وَقَعَ وَمَا دَفَعْتَ الضَّرُورَةَ
إِلَيْهِ ، وَأَنَّ الْحَاضِرَ أَبْصَرَ مِنَ الْغَائِبِ ، وَلَوْ الْحَالُ يَقْتَضِي بِمَطْلِبِهَا ، وَلَوْ بِمِقْدَارِ
وَصُولِ الْخُطَابِ بِمَشُورَتِهِ سَلَامَةً لِلْمُسْلِمِينَ ، لَمْ أَقْدَمْ شَيْئًا فِي ذَلِكَ وَلَا أَخَّرْتُهُ
إِلَّا عَنْ رَأْيِهِ ، كَالَّذِي يُلْزَمُ ؛ غَيْرَ أَنَّ الْخَفَرَ كَانَ أَشَدَّ ، لَمْ أَرَ التَّغْيِيرَ
بِالْمُسْلِمِينَ ، وَإِنَّ الْاِسْتِقَامَ مِنْهُمْ مُذَرِّكٌ بِحَوْلِ اللَّهِ عَلَى يَدَيْهِ . وَلَمْ نَشْكُ فِي
أَنَّ الْجَوَابَ يَرِدُنَا بِالشُّكْرِ عَلَى مَا نَظَرْنَاهُ وَسَدَدْنَاهُ ، لَا سِيَّامَا إِذَا كَانَ
الْفِدَاءُ مِنْ عِنْدِي وَلَا أَكَلْتُ فِيهَا مُسْلِمًا دِرْهَمًا . فَوَرَدَنِي جَوَابُهُ مَعَ
مَا أُمْلِيتُ نَفْسُهُ مِنَ الطَّلَبِ لِي ، وَصَوَّرَتْ عِنْدَهُ الْأُمُورَ عَلَى غَيْرِ حَقَائِقِهَا ،
بِمَا زَادَ فِي جِزْعِي ، يَقُولُ : « أَمَّا مُدَاهَنَتُكَ وَقَوْلُكَ الْبَاطِلَ ، قَدْ عَلِمْنَاهُ !
وَسَنَعْلَمُ عَنْ قَرِيبٍ كَيْفَ تَرْضَى الرِّعْيَةَ ، وَمَا تَصْنَعُ إِذْ زَعَمْتَ أَنَّكَ نَظَرْتَ
لَهَا . وَلَا تُسَوِّفُ : فَإِنَّ هَذَا قَرِيبٌ غَيْرُ بَعِيدٍ ! »

فَلَمْ أَقْنَطْ مَعَ هَذَا ، وَقُلْتُ ، عِنْدَ الْحَقَائِقِ وَتَبْيَانِ مَا وَقَعَ ، عَلَى لِسَانِ
رَسُولٍ : « يَزِيلُ عَنْ بَالِهِ كَلَامَ الْأَعَادَى ! وَهَذَا مِنْ بَنِي الْقَلْبِيعِ »
وَأَبَى بَكْرُ بْنُ مُسَكِّنٍ ! فَإِنَّهُمْ لَا يَنْقَلِبُونَ إِلَّا عَلَى شَهَوَاتِهِمْ ! « وَكَانَ

٢٠

أبو بكر بن مُسَكِّن قد بلغ من طغيانه علىَّ ، وسَبَّو لي ، ورَجَّاهُ^(١) في أن يسهمه أمير المسلمين من البلد ما يكون قرني أو أكثر ؛ فإنه اتَمَى إلى بني زيري ، وجعل يهذي بذلك ويفتخر به ، لا يرى لأحدٍ عليه فضلاً ، ويسعى في نقض ما نبرم من أحوال الدولة ما لا يتمُّ معه مُلكٌ ولا أمرٌ . فجعلتُ الذنب فيه سَوَاءً كما في * القُلَيْمِيَّ ، إذ مقالته لا تطغى ٥٣ (١) ما أشعلَ القُلَيْمِيَّ لو أراد الخيرَ ، كما أن تَرَكَه لا ينقص ولا يفتر عن ذلك . فجعلتُ الهمَّ فيهما مَهْمًا واحدًا .

ولمَّا تشدَّدتُ عليه ، وأمرته بالكفِّ ، أحرق ، وهرب دون نفي ، ومضى قاصداً إلى الرُّابِط ، يفرى فيَّ ، ويسمى عليَّ ، ويكذب ، ويصورُ ١٠ الأمور على غير وجوها . فتكرَّرتُ مُخاطبتي على أمير المسلمين ، نبِّئ له جميع ما وقع ، ونشكو بما دهيت به من هؤلاء الفسقة . وهو ، في ذلك كله ، لا يراجعني إلَّا بالشَّدَّة ، وقبول قولهم عليَّ . فبقيتُ تلك الأيام على أسوأ حال ، لا ندرى أين الخيرة ، ولا كيف التخلص .

وساء ظنُّ المُعْتَمِدِ بي في دخول النصرانيِّ إلى بلاده ، وكفَّه عن بلادنا ؛ واعتقد أن ذلك عن اتفاقٍ ؛ ولو كان عن اتفاقٍ ، لأدَّيتُ عليه ١٥ ما لا فوق الجزية ؛ فليس لهم إلَّا بني الكِرَى غير منطاعين لقول أحدٍ . ولم ياتِ عسكرُ المرابطين إلى إشبيلية إلَّا والبلد قد أفسد .

والله تعالى يعلم أني ما واسيت في تلك النَّصْبَةِ ، ولا يسألني الله عن كلمةٍ طعنتُ فيها على مُسْلِمٍ . فاتَّفقتُ الأفاويل عند أمير المسلمين بكثرة ٢٠ الطلب ؛ ولو أني أريد ذلك ، والانحياسَ إلى النصارى ، كالذي قيل ، لم

يَصِلُ الرُّابِطُونَ إِلَى سَبْتَةَ إِلَّا وَمَدِينَةَ غِرْنَاطَةَ مَمْلُوءَةً مِنْهُمْ ؛ وَكَانَتْ
 أَسْتَطِيعَ عَلَى ذَلِكَ ، وَكَانَتْ لِي فِي الْمَدَّةِ بَرَهَةٌ وَفَسْحَةٌ طَوِيلَةٌ ؛ إِلَّا أَنَّ
 الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّاتِ ، وَتِلْكَ الْقَالَةُ إِنَّمَا كَانَتْ سَبَبًا لِلَّذِي قُدِّرَ ؛ وَلَوْ أَنَّ قَضِيَّتِي
 تُسْتَوْضَحُ ، كَوُجِدَ فِيهَا مَا لَا مَطْعَنَ فِيهِ ، وَلَا مَقَالُ يُنْتَهَى ، وَلَا إِسْرَارَ فِي
 مَثِيلٍ عَلَى مُسْلِمٍ ، وَلَا إِدْخَالَ دَاخِلَةٍ . وَكَيْفَ يَصِحُّ هَذَا قَبْلَنَا ، وَأَوَّلُ
 سَيْفٍ سُلِّ عَلَى الرُّومِ إِنَّمَا كَانَ مِنْ قَبْلِنَا ، وَهِيَ الْوَقِيعَةُ الْمَشْهُورَةُ بِالنَّبِيلِ ،
 مِنْ طَاعَتِنَا ، فِي حِينٍ تَطَرَّقَ النَّصَارَى إِلَيْهَا عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ ؛ وَوَافَقَ ذَلِكَ
 أَوَّلَ ظَهْوَرِ الرُّابِطِينَ وَوُصُولِهِمْ سَبْتَةَ ؛ وَوَرَدَنَا إِذْ ذَاكَ* رَسُولُ الْفُونْسِ ٥٣(ب)
 مُنْتَذِرًا مِنَ الْأَمْرِ ؛ فَصَرَفْنَاهُ عَنِ الطَّرِيقِ ، قَطْعًا لَهُ ، وَإِشَارًا لِأَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ .
 ١٠ وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ !

الفصل التاسع

إمارة الأمير عبد الله بن بلقين بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب
(٥) الحوادث الأخيرة قبل النزاع ونذر الكارثة

٦١ - ثورة يهود مدينة اليُسَّانة

ولما كُنْتُ في تلك الفترة ، بَدَتْ أمورٌ وأسبابٌ دَلَّتْ على ما كان من
الانتقال ومُتَدَمِّمَاتٍ أَذَنْتُ بِالزَّوَالِ . فَأَوَّلُ ذَلِكَ نَفَاقُ أَهْلِ اليُسَّانَةِ لِمَلِكِهِ
نَذْكُرُهَا ، وَأَرْقَى سَبَبٍ لَمْ يُوبَهُ لَهُ . وَذَلِكَ أَنِّي ، لَمَّا أَمَرْتُ بِنُيَّانِ السُّورِ
الْمُتَّصِلِ بِالْحِمَاءِ ، وَدَبَّرْتُهُ عَلَى تِلْكَ النَّصْبَةِ الَّتِي أَضْرَبْتُ عَنْ شَرْحِهَا لِاشْتِهَارِهَا
هَيَأَتِ السَّعَادَةُ أَنْ وَجَدَ الْبَنَّاوُونَ فِي الْأَسَاسِ قُمْقُومًا مَمْلُوءًا ذَهَبًا أَعْلَمُونِي بِهِ .
فَلَمَّا وَقَفْتُ عَلَيْهِ ، لَقِيتُ فِيهِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ مِنْقَالٍ جَعْفَرِيَّةٍ . فَاسْتَبَشَرْتُ بِهَا
١٠ وَتَفَاءَلْتُ بِنَجَاحِ الطَّلَبَةِ ، وَالْدُنْيَا تَسْخَرُ بِنَا كَمَا سَخَرَتْ بِمَنْ كَانَ قَبْلَنَا . فَقُلْتُ :
« مِنْ أَسَاسِهِ يَكُونُ بُنْيَانُهُ ! »

وكانت دارُ أبي الربيع اليهودي الخازن للأموال في دولة جدي
— رحمه الله — مبنية على ذلك الأساس ؛ فعلمنا أنه من ماله المدفون .
فأتى ابن المرأة متنصِّحًا بالأمر ، ويقول : « أرسلوا عن ابنه ، يكشف لكم
١٥ سائر دقائمه » فخطبنا عنه ليرد علينا في بعض الأمر . وكان صهره ابن
ميمون ، كنّا قد قدّمناه على يهود اليُسَّانة بوجه الأمانة ، وأسدينا إليه جيلًا

من التنويه به ؛ فاستمال بها أقواماً من الغرباء ، يصول بهم على أهل ملته ؛ وكان خبيثاً . فأحسن بالقصة ، ووجست نفسه منها ، واعتذر عن صهره ، وساء لذلك ظنّه ، وخشى أن يُعذب على مال أبيه .

ووافق قبل ذلك ، عند انصرافنا من لييط ، أن فرَضنا على أهل اليُسَّانة ذهباً كثيراً باسم التَّقوية ، لم تَجِرْ عادتهم به ، وحنَّاهم في ذلك على الصِّحة والانطباع ؛ فنَفَرَت لذلك أنفُسُهم . ووجد ابن مَيْمون المذكور السَّيلَ إلى إغرائهم وتَحْلِيمهم على النفاق ؛ فأجابوه ، ودخلوا في السلاح ؛ ونادى فيهم أن : « جدُّوا ، مَعَشَرَ بنى إِسْرَائِيلَ ، في حماية أموالكم ! » وافتضح بذلك ابن مَيْمون . وسَبَقَتْ له جنايةٌ في قتل * عامِلنا ابن أبي لَوْلا ٥٤ (١) على المُسْتَخْلَص رياسةً وعدواناً . وامتنعت اليُسَّانة بالجملة . ١٠

فلما رأيتُ ذلك ، لم أجِدْ بُدّاً من مُداراة الأمر . واشترطَ مؤمِّلٌ بإصلاحه ، ونهص . ثمَّ إِنِّي علمت رأْيى بَعْدَه ، وعَلِمْتُ أَنَّهُ لا يَلْقَى إلَّا أَحَدَ وَجْهَيْنِ : إمَّا طاعةً على غِشٍّ ، أو عصياناً ؛ وأيهما كان ، فإرسالُ السَّكر إليه واجبٌ ، وشدةٌ وتَرْهيبٌ ، ليعلموا قَدْرَ ما جَنَوْه . وخرَجْتُ بنفسى في أثره ، وقد اجتمعت إلى الأنداب . فإذا بمؤمِّلٍ قد أَقْبَلَ مُنْصَرِّفاً ، وردَّنا عن ذلك المذهب ، وقال لى : « قد أَصْلَحْتُ الأمر مع ابن مَيْمون . ونُهِضُكَ إليه لا يزيد القوم إلَّا نفاراً ، وربما استعانوا بعسكر ابن عَبَّاد ، لا سيما أَنَّهُ الآن بِقَرْطُبة ، وليست تُؤْخَذُ بإحْصار ولا قتال ! » على أَنِّي قد عَلِمْتُ أَنَّ ابنَ عَبَّاد لا يَحْيِيهم في ذلك الوقت كُلُّه ، ولا اشتهر بذلك إلَّا ما كان الناسُ يذكرونه ، وابن مَيْمون يفتخر به ويُطْمِع به أهل اليُسَّانة . ٢٠

فقبلتُ قولَ ابنِ مؤمِّلٍ ، وانصرفتُ على مقربة من الحضرة ؛ وقلتُ :
 « خُروجي إلى هنا أو وصولي إليهم سواء ! إذا أردنا التَّهَيُّبَ ، فقد
 وصلناه ! » ثمَّ قلتُ لمؤمِّل : « صِفْ عليَّ ما انفصلتَ ! » قال :
 « إنَّ ابنَ مَيمون زَعِيَمَها عَدَدَ أَشْيَاءَ أَنْكَرَها من الإِرسالِ في صهره ،
 وهذه الفِرضَةُ العَظِيمَةُ ، وسائرُ ذلك من الألقاب اللازمة . فضمنتُ لهم
 الصَّكوكَ برفعِ ذلك عنهم ، ولابنِ ميمون في خاصَّتِهِ . » وأمرتُ بِعَقْدِها
 والإِرسالِ بها . وقرتُ الجبالُ قرارها .

ووجستُ نفسِي من ابنِ مَيمون لإظهاره الخِلافَ والإعلانَ بذلك ،
 وعَلِمْتُ أنَّ هذه هُدًىةٌ على دَخَنِ ، وأنَّ لاطاعةَ تصحُّ لي معه ، وسيؤثِّرُ
 ١٠ أمثالَ هذه . فَدَبْتُ إلى المُدَاخَلَةِ من اليهودِ المخمولين في زمانه ، ووعدتهم
 بالإحسانِ ؛ وتكرَّرَ في الوساطةِ ابنُ سِيقٍ ، حتَّى أبرمتُ من ذلك
 ما أَمَلْتُه . وكان أخذُ ابنِ مَيمون يسيراً ، لا عُصْبَةً له ، وهو غافلٌ . وكان
 الواسطةُ أيضاً ابنُ المَرَّةِ مع أبي العبَّاسِ الحَكِيمِ . وكان * ذلك ممَّا نفعه ٤٥ (ب)
 مؤمِّلٌ لانيحاشه عن ذلك ، إلى أن وردوا الحضرة على عاداتِهِمْ ، وأمرتُ
 ١٥ بِتَقافِهِ مع ابنه برضاءٍ من الشيوخ ، وأمرتُ أن لا زعيمَ فيهم بعد اليوم
 إلَّا الكلُّ منهم أَمَناءٌ مَنَوَهُ بِهِمْ ؛ فشكروا ورَضَوْا . وخاطبتُ عامَّتَهُمْ
 تُعْلِيهِمْ بما لهم في ذلك من الصَّلاحِ . وتهدَّنتُ الأحوالُ وقرتُ ، إلى أن
 تلفَ الكلُّ .

٦٢ — قضية زناة

وقضية أخرى بعد هذه في أمر زناة : إنه ، لما أعلتُ الفكرة في عاقبة الأمر في هذه الفتن^(١) العارضة ، رأيت أن الاهتبال بالمعقل من أكدر ما يجبُ النظر فيه ، كالذي تقدم ذكره من النظر في عددها وما يصلحها ، وأن الأولى استصلاحُ ما فسد من نفوس قوادها . وذلك أنه لم يكن يلي لنا متعللاً قط غير صنهاجة والوصفان والتبيد ، ما خلا زناة : فإنهم كانوا أجناد الحضرة .

وكان الصنف المذكور قد ضعف ؛ واستولى عليه النقصان لطلبات جرت عليهم من قبل وزراء الدولة كاليهودي وغيره ؛ فإنهم كانوا يرون ألا ولاية تهيأ لهم مع صنهاجة لاحترام إياهم وأنفسهم من تولية مثلهم ، فكانوا يميلون إلى الصنف البراني كله ، ولما جرى على اليهودي ما جرى منهم ، اعتقدها الناية في نفسه ، وخشى مثل ذلك ، فجعل نفسه في مطالبهم ، وتبديدهم ، وإنزالهم على الإنزالات الضعيفة ؛ ومن كان بيده شيء ، تسبب إليه وأزيل عن يده . فأذركم النقصان والقلّة ، وزاد في زناة ، وقويت أحوالهم وإنزالهم ، على أنهم كانوا على الحقيقة خيرة جند الأندلس ، والموثوق بهم في الشجاعة والنبلة . وكان الصنف كثيراً ، لا يعلم ضمهم من له مال .

فقلتُ في نفسي : « هؤلاء القواد الذين على الحصون ، وإذا كانت أنفسهم فاسدة ، ولا يتذكرون معنا على نعمة طائلة ، فكيف يُمكنون المعامل ، أو يأبى قلبٌ يحدّون معي ؟ وإنه لا عوضَ منهم في الثقة

(١) أصل : « الفتن » .

للمحصون * وإن زَنَانَةَ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَصِّلِينَ لَا تَقَعُ فِيهِمْ لِلْمَدِينَةِ الْفَوْقَى وَلَا ٥٥ (١)
للمحصون ، أَكْثَرُ مِنْ خِدْمَةِ الْجُنْدِيَةِ ، لَا يَعْدَمُ مِنْهُمْ أَحَدٌ . فَأَنَا جَدِيرٌ
أَنْ أَشْرِكَ مَنْ ضَعُفَ مِنْ صِنَاهَا بِهَؤُلَاءِ الْأَهْوِيَاءِ الَّذِينَ أَدْرَكْتَهُمُ الْعَنَاءُ
وَيُمَسِّكُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَنْزَالَ خَمْسَةَ فُرْسَانٍ وَسِتَّةٍ . ثُمَّ مِنْ قَنَعَ بِمَا يَدُهُ بَقِيَ ؛
وَمَنْ لَمْ يُبْرِدْ ، لَمْ نَعْدَمْ مِنْهُ الْيَوْمَ ! « فَعَلْتُ ذَلِكَ ، وَأَشْرَكْتُهُمْ . وَكَانَ فِي
هَذَا كُلُّهُ تَمْحِيرُكَ لِلشَّرِّ » وَالْقَالَ :

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللَّهِ لِلنَّبِيِّ فَأَكْثَرُ مَا يَجْنَى عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ^(١)

فَلَمَّا رَأَى كِبَارُ زَنَانَةِ ذَلِكَ ، قَلَقُوا ، وَسَاءَتْ ظُنُونُهُمْ ؛ فَكُنْتُ ،
مَتَى دَعَوْتُهُمْ إِلَى خِدْمَةٍ ، تَجِدُهُمْ عَنْهَا عَاجِزِينَ : مِنْ أَشْرِكٍ وَمَنْ لَمْ يُشْرِكْ ؛
فَامْتَحَنْتُ عَلَى ذَلِكَ ؛ فَقِيلَ لِي : « إِنَّ كِبَارَهُمْ يَفْسِدُونَ صِغَارَهُمْ ! وَلَوْ أَنَّكَ
تُخْرِجُ غَوَاقِمَهُمْ^(٢) مِنَ الْبَلَدَةِ ، لَصَلَحَ لَكَ سَائِرُهُمْ ! »

فَأَمَرْتُ بِإِخْرَاجِ ثَلَاثَةِ أَنْفُسٍ مِمَّنْ يَتَّبِعُهُمْ مِنْهُمْ . وَكَانَ الْأُمُورَ بِذَلِكَ لَيِّبُ
الْخَصِي ، صَاحِبُ الْمَدِينَةِ ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَثِقَانَهُ لَتَرْيَيْنَا لَهُ . وَكَانَ فِي الْمَجْلِسِ
أَقْوَامٌ يَحْصِدُهُمْ وَيَتَّبِعُهُمْ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَنْتَقِلُوا طَرِيقَتَهُ السَّيِّئَةَ ؛ فَأَصَابَ الْفُرْصَةَ
لِلْخَرَابِ ، وَأَرْسَلَ مِنْ قَبْلِهِ إِلَى أَوْلَئِكَ الْمَخْرُجِينَ ، وَإِلَى مَنْ سِوَاهُمْ مِنْ بَنِي
عَمَّتِهِمْ ، يَقُولُ لَهُمْ : « إِنَّ الطَّلَبَ قَدْ وَقَعَ فِيكُمْ مِنْ مَجْلِسِ السُّلْطَانِ ؛ وَأُمِرْتُ
بِإِخْرَاجِكُمْ . فَلَا تَوَهِّنُوا ، وَأَجْتَهِدُوا فِي التَّعَشُّبِ عَلَيْهِ وَتَرْوِيعِهِ ! وَأَنَا مَعَكُمْ !
فَإِنَّهُ ، إِذَا رَأَى جَمَاعَتَكُمْ ، رَجَعَ إِلَى قَوْلِكُمْ ! » فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا بَعْدَ الْأَمْرِ
بَسَاعَةٍ ، وَإِذَا بِجَمَاعَةِ الْجُنْدِ قَدْ أَقْبَلُوا إِلَى بَابِ الْمَدِينَةِ ، يَقُولُونَ : « إِنَّمَا أَنْ
يُرَدُّ شِرْكُنَا ، وَإِنَّمَا فَالْكَلُّ رَاحِلُونَ عَنْهُ ، مُنْتَقِلُونَ إِلَى غَيْرِهِ ! » وَأَتَى ٢٠

(١) وَرَدَ هَذَا الْبَيْتُ أُعْلَاهُ . (٢) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، عَرَضًا عَنْ « غَوَاقِمِهِمْ » .

الفاسق لَيْبٌ وأصحابه الْمُتَفَقِّهُونَ معه ، يقيمُ حُجَّتَهُمْ ، ويُعَضِدُ قَوْلَهُمْ ، ويَخَوِّفُ منهم . فَبَيَّزْتُ الأَمْرَ ، وَعَلِمْتُ أَنَّ هَذِهِ جَمْعَةٌ لَا يُرْجَعُ فِيهَا إِلَّا إِلَى رَأْيِي ؛ فَأَظْهَرْتُ الشَّدَّةَ ، وَقُلْتُ : « لَسْتُ بِرَاجِعٍ عَمَّا أَمَرْتُ ؛ فَتَكُونُ نَفُوسُ الَّذِينَ أَشْرَكْتُ مَعَهُمْ مُنْصَرِفَةً * إِلَى مِثْلِ نَفُوسِهِمْ ! فَمَنْ شَاءَ ، فَلْيُمِرَّ ، وَمَنْ شَاءَ ٥٥ (ب) فَلْيَبْقَ ! » فَلَمَّا سَمِعُوا بِذَلِكَ ، خَرَجَ الْكُلُّ .

وَمُؤَمِّلٌ ، فِي هَذَا كَلَامُهُ ، عَلَى اتِّفَاقٍ مَعَ لَيْبٍ ، يَدْخُلُ فِي رُؤُوسِ الْجُنْدِ وَيَقُولُونَ لَهُمْ : « إِنَّ هَذَا مِنْ قَبْلِ غَيْرِنَا ؛ وَنَحْنُ أَهْلَاءُ ! » وَيُرُونَهُمُ الشَّقَّةَ مِنَ الأَمْرِ وَالطَّعْنَ عَلَى . وَصَحَّ ذَلِكَ عِنْدِي مَعَ طَائِفَةٍ مِنْ شَيْوخِ الْعَبِيدِ أَحْبَابِ مُؤَمِّلٍ ، وَعَلِمْتُ حَسَابَ زَنَاتِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَزُولُونَ بِالْكُلِّ ، وَأَنَّ ذَلِكَ تَرْهِيْبٌ ، وَأَنَّ الرُّجُوعَ عَمَّا أَمَرْتُ بِهِ يَضُرُّهُمْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُخْلُ بِالرَّأْيِ وَيَكُونُ لَهُمُ الضُّلُوعُ وَالْحَاقَّةُ فِي الْمَعْصِيَةِ ، وَأَنَّ انْقِيَادَهُمْ للأَمْرِ وَاسْتِعْذَارَهُمْ بِهِ أَشْبَهُهُ ، وَلِلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ أَغْزٌ وَأَبْهَى .

فَلَمَّا كَانَ يَوْمٌ آخَرُ ، خَرَجْتُ بِنَفْسِي إِلَى عَرَضِهِمْ كَيْ لَا يُبْطِنَ عَلَيَّ مِنْ تَقَدُّمِ ذِكْرِهِ . فَأَمَرْتُ بِالْبَرِيحِ عَلَيْهِمْ وَإِحْضَارِ الزَّمَامِ ، لِنَعْلَمَ مَنْ صَحَّ مُضِيئُهُ وَقَعُودُهُ . فَوَجَدْتُ الْكُلَّ مُجْتَمِعِينَ ، قَدْ انْصَرَفُوا مُتَقَطِّعِينَ لَيْلًا ، لَمْ يَغِبْ مِنْهُمْ أَحَدٌ ١٥ فَوْقَ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ أَمَرْتُ بِإِخْرَاجِهِمْ ، وَجَعَلُوا يَعْتَذِرُونَ وَيَتَنَصَّلُونَ . فَقُلْتُ : « اللَّهُ أَكْبَرُ ! هَذَا أَشْبَهُهُ وَالَّتِيقُ بِالْمَلِكَةِ ! » وَرَأَيْتُ مُؤَمِّلًا وَلَبِيًّا وَغَيْرَهُمَا قَدْ عَزَّتْ عَلَيْهِمْ طَاعَتُهُمْ مُؤَمِّلِينَ أَنَّ لَوْ كَانَتْ طَائِفَةٌ لَا تَرْفَعُ .

وَالْعَيْنُ تُبْصِرُ فِي عَيْنِي مُحَدِّثُهَا إِنْ كَانَ مِنْ حَزْبِهَا أَوْ مِنْ أَعَادِيهَا

٦٣ - انقلاب مؤمل وثورته في لوشة

- ولما قرأ أمرهم قراره ، جاء مؤمل في إثر ذلك يقول : « إن هذا الانطباع منهم ليس لرغبة في البقاء معك ! غير أنهم يدأرونك حتى يحصلوا على قائد لإنزالهم ، ويتزودوا به ! فلا قائد تنزل عليه غيرهم ، ولا رجال بقوا معك ؟ » وكنتم إذ ذاك ناظرًا منه بيمين الثقة ؟ فعمل قوله في نفسي ، وقلت : « لا يخلو هذا القول عن وجهين : « إما قد اطلع على ذلك منهم ، فهي نصيحة ، أو لم يطلع ، فهو بغائلة لا يدعهم ، ويدخل هذا في رؤوسهم ، وتكون على في ذلك الخسارة . وإن احتجبت إلى العوض ، لم يكن لي على ما نزلته ولا في بيت المال الكفاية لئلا نحن بسبيله * من النفقات على سائر الأمم ! » فلم ٥٦ (١)
- يأتني من هذه الكلمة نعاس . وأمرت بإخراج كل من في رأسه حاقة . فبلغ عدتهم نحو المائة فارس ؛ فخرجوا عن المدينة ، وتصفّت ، ولم يبق فيها إلا من ينطاع لكل أمر .
- وعمل في نفسي قتل لبيب وشيوخ القبيد ، وصح عندى منهم وفيهم أنهم عوجوا زنانة ؛ وكانوا أشد على من كل أحد . وجعل زنانة يذكرون ذلك ، ويقولون وقت اعتذارهم : « لا ذنب لنا ! إنما نحن جند ، ولولا ثقاته وعبيده الذين حملونا على ذلك ، لم نجترم^(١) عليه ! » وجعلوهم في وقت قيامهم يمشون على الأسواق ، ويأمرون الناس بالقيام ، ويقولون لهم : « لم ندفع نحن ، إلا وهو يريد إدخال النصارى ! » فلم يلتفت الناس إلى قولهم ، إذ لم يروا ذلك من ثقات الدولة وصنهاجة .

(١) أصل : « نجتموا » .

ولما أُخْرِجَ زَنَانَةُ ، أَمَرْتُ بِعَدِّ ذَلِكَ بِإِخْرَاجِ اثْنَيْنِ مِنْ شُيُوخِ الْعَبِيدِ الَّذِينَ صَحَّ عِنْدِي إِشْمَالُهُمْ لِهَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، وَتَقَعْتُ لَبِيئًا . فَوَافَقَ إِخْرَاجُهُمْ وَمُؤَمِّلُ خَارِجِ الْمَدِينَةِ ؛ فَلَحَقُوا بِهِ ، وَقَالُوا لَهُ : « قَدْ أَخْرَجْنَا ! وَغَدَا بِكَ هَكَذَا ! فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ ! » فَخَرَجَ مَعَهُمْ مِنْ قَوْرِهِ ذَلِكَ ، فَاصِدًّا إِلَى لَوْشَةٍ ، مَعَ مَنْ اتَّفَقَ مَعَهُ مِثْلُ ابْنِ الْبَرَاءِ الْكَاتِبِ وَغَيْرِهِ .

وَكَانَتْ هَذِهِ تَقَفَّةً قَدِيمَةً بَيْنَهُمْ مَعَ بَنِي مَالِكٍ مُعَالٍ لَوْشَةٍ ، أَنَّهُ ، مَتَى دَهَمَهُمْ أَمْرٌ ، لَجَؤُوا إِلَيْهَا . فَتَهَضُّوا مِنْ قَوْرِهِمْ ذَلِكَ فَاصِدِينَ إِلَى لَوْشَةٍ ، وَلَحَقُوا بِهَا لَيْلًا . وَدَخَلَ لِلْمَدِينَةِ ، وَلَمْ يَنْمِهِ أَحَدٌ لِمَكَاتِهِ مِثْنًا ؛ وَحَسِبَ الْقَائِدُ وَمَنْ فِيهَا أَنَّهُ رَسُولٌ . فَصَارَ فِي قَصَبَتِهَا ، وَجَعَ الْجُنْدِ وَالرَّعِيَّةِ ، وَصَرَخَ فِيهِمْ بِالْبُكَاءِ ، وَافْتَعَلَ الْكَذِبَ ، وَقَالَ لَهُمْ : « لَمْ أَخْرُجْ مِنْ غَرْنَاطَةِ إِلَّا كَمَا تَرَوْنَ : « بَطَوَيْ عَلَى عُنُقِي » ! وَتَرَكْتُ فِيهَا النَّصَارَى قَدْ اسْتَحْوَذُوا عَلَيْهَا ؛ وَكُشِفَ عَنِّي ! فَاثْبَتُوا مَعِي وَتَوَجَّهْ إِلَى كُلِّ سُلْطَانٍ : فَمَنْ أَجَابَنَا ، اعْتَصَدْنَا بِهِ ! » وَخَاطَبَ بِذَلِكَ حُصُونَ الْقَرْبِ ، بِأَمْرِهِمْ

بِاخْتِلَافٍ ؛ وَأَرْسَلَ إِلَى زَنَانَةَ الْمُخْرَجِينَ ، لِيَكُونُوا مَعَهُ مُضَيِّقِينَ عَلَى غَرْنَاطَةِ . ٥٦ (ب)

١٥ وَإِنْ أَهْلَ الْجِهَةِ مَعَ أَهْلِ الْحَصُونِ ، لَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ ، دَبَّرُوا رَأْيَهُمْ . وَأَرْسَلَ كُلُّ حِصْنٍ مِنْ كِبَارِهِمْ إِلَى الْحَضْرَةِ مَنْ يَطْلُعُ صُورَةَ الْأَمْرِ ؛ فَإِنْ وَجَدَ خِلَافَ قَوْلِهِ ، لَمْ يُخْرِجُوا وَجُوهَهُمْ مَعًا ؛ وَإِنْ أَلْفَوْهُ سَحًّا ، نَظَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ . فَأَتَوْنِي أَفْوَاجًا مُعَزِّينَ وَمُهَيِّئِينَ عَلَى السَّلَامَةِ مِنَ النَّصَارَى ، وَمُسْتَفْهِمِينَ جَلِيَّةَ الْحَالِ . فَأَخْبَرْتَهُمْ بِالْأَمْرِ عَلَى وَجْهِهِ ، وَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا ٢٠ مِمَّا ذَكَرَ مُؤَمِّلٌ . فَطَابَتْ أَنْفُسُهُمْ ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ مُخَالِفٌ مُنَافِقٌ . فَبادَرَ الْكُلُّ إِلَى مُنَازَلَتِهِ ، وَسَأَلُونِي عَسْكَرَ الْحَضْرَةِ .

وَكُنْتُ ، لَمَّا صَحَّ نَفَاقُهُمْ بِلَوْشَةٍ ، قَدْ أَبْلَيْتُ لَهُمْ عُذْرًا ، وَأَرْسَلْتُ
إِلَيْهِمْ كُتُبًا وَرُسُلًا تَأْمَنُهُمْ بِمَا خَافُوا ، وَتَحَذَّرُهُمْ قَبِيحَ الْعَاقِبَةِ فِي إِثَارِ
الْفِتْنَةِ ، وَأَتَى مُطَلِقُ إِيْلِهِمْ أَهَالِيَهُمْ ، وَيَحْرُوجُونَ عَنِ الْحَصُونِ حَيْثُ شَاؤُوا
بِأَمَانٍ وَوَثَاقٍ ؛ وَهُمْ فِي هَذَا كُلِّهِ ، لَا يَزِيدُونَ إِلَّا طُغْيَانًا وَتَهْدَدًا ، بِإِزْنِ
عَلَى الشَّرِّ ، طَالِبِينَ لِلثَّارِ بِلَا نَارٍ . فَلَمَّا يَسْتَمْتُهُمْ ، مَعَ اتِّفَاقِ الْحَصُونِ
عَلَيْهِمْ ، أَرْسَلْتُ بِالْعَسْكَرِ ، وَقَوَّدْتُ عَلَيْهِمْ يُوسُفَ بْنَ حَجَّاجٍ ، سَنَدَكُرُ
وَجَهَّ مُصَاهَرَتِهِ لَنَا بَعْدَ هَذَا ؛ فَهَضَّ ؛ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا سَاعَةً وَصُولِهِ ، وَجَزَعَ
مَنْ مَعَهُ فِي الْقَصْبَةِ ، وَخَلَّتْ عَلَيْهِمْ ؛ وَدَخَلَهَا الْعَسْكَرُ ، وَأَمَرَ فِيهَا هُوَ
وَكُلُّ مَنْ مَعَهُ . وَأَتَانَا مِنْ ذَلِكَ فَتْحٌ عَظِيمٌ .

١٠ وَأَمَرْنَا بِتِنَاقِهَا وَسَوْقَانِ الْأَسْرَى ، وَتَقْنَنَاهُمْ مُسْتَفْتِينَ فِي أَمْرِهِمْ ؛
فَأَقْنَتِ الشُّنَّةُ أَنْ قَتَلَهُمْ غَيْرَ جَائِزٍ إِذْ كَانَ نَفَارُهُمْ جَزَعًا ، عَلَى أَنَّهُمْ
كَانَتْ لَهُمْ سَعَةٌ فِي الْأَرْضِ غَيْرَ لَوْشَةٍ ، وَإِنَّمَا أَرَادُوا الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ؛
وآخَرُونَ يَقُولُونَ بِقَتْلِهِمْ . فَأَثَرَتِ الْأَلْيَقُ وَالْأَبْتَدُ مِنَ الْإِثَامِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ
لَا يَفُوتُ ؛ وَمِنْ أَخْلَاقِ الْكِرَامِ النَّائِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ الْمَغْدِرَةِ . فَأَوْجِبَتْ
١٥ السِّيَاسَةُ تَثْقِيفَهُمْ وَالشَّدَّةُ عَلَيْهِمْ ، لِئَلَّا تَكُونَ طَرَقَةً لِنَعِيمٍ ؛ وَهُوَ بَابٌ فَتَحَهُ
عَلَى الدَّوْلَةِ مِنْ أَضَرِّ الْأَشْيَاءِ ؛ فَلَا غَفْلَةَ لِمَلِكٍ يَقْظَانُ فِيهِ .

وَخَاطَبُوا ، مُدَّةَ كَوْنِهِمْ بِلَوْشَةٍ ، كُلَّ رَئِيسٍ بِالْأَنْدَلُسِ ، حَتَّى صَاحِبَ
مَالَقَةَ . فَلَمْ يَجِبْهُمْ * أَحَدٌ . فَلَمَّا يَتَيْسَ مُؤَمِّلٌ مِنْهُمْ ، أَرْسَلَ إِلَى أَمِيرِ ٥٧ (١)
الْمُسْلِمِينَ ، بِزَوْرٍ عِنْدَهُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ، وَيَكْذِبُ ، وَيَقُولُ لَهُ : « لَمْ تُؤْتِ
٢٠ إِلَّا مِنْ إِنْكَارِي أَمَرَ النَّصَارَى ، وَالْقِيَامَ بِدَعْوَتِكَ » حُجَّةً لَا تَقُومُ عَلَى
سَاقٍ . وَكَانَ الْعَسْكَرُ إِلَيْهَا مُقْبِلًا مَعَ نُعْمَانٍ ؛ فَانْصَرَفَ لَمَّا عُلِمَ بِأَخْذِهَا .

٦٤ - وَصَفَ الثَّائِرُ ثَمَانَ وَسِيرَتَهُ ضِدَّ عَبْدِ اللَّهِ

وكان ثَمَانُ المذكور ممن فَعَلْنَا معه جِيلاً ، وَأَحْسَنًا إِلَيْهِ مُحَرِّمَةَ الْقَرَابَةِ والاقْطَاعِ إلَيْنَا مِنَ الرُّبَاطِينِ ؛ وَزَالَ عَنَّا بَعْدَ إِعْمَالِهِ الدَّوَاحِلَ عَلَيْنَا فِي حَصُونِنَا الْغُرَبِيَّةِ ، وَعَقْدِهِ مَعَ أَهْلِهَا أَنْ يَصِيرُوا فِي طَاعَةِ الرُّبَاطِينِ مَتَى دُعُوا . وَكَانَ لَهُ بِتِلْكَ الْجِهَةِ إِنْزَالٌ ؛ فَتَمَكَّنَ مِنَ الْقُرْبِ وَالْعَمَلِ بِذَلِكَ ، وَخَرَجَ عَنَّا بِسَرَّاحٍ ادَّعَى مِنْ أَجْلِهِ أَنْ لَهُ بِالْعِدْوَةِ مِيرَاثًا وَمَالًا يُرِيدُ اقْتِضَاءَهُ ؛ فَأَجَبْنَا لَهُ النُّهوضَ ؛ وَإِذَا بِهِ يَسْتَعِي عَلَيْنَا . وَقَالَ لِلْأَمِيرِ : « نُفَيْتُ مِنْ الْبَلَدِ مِنْ أَجْلِ نَصِيحَتِي لَكَ وَتَحَبُّبِي فِي دَوْلَتِكَ ! » أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ حَرْفٌ ، حَتَّى إِنْ أَطَوَّقَى ، إِنْ تَكَلَّمْتَ ، لَسَعَتْ عَلَى ، لِلْقَدَرِ الَّذِي شَاءَهُ اللَّهُ ، عَسَى لِعَاقِبَةٍ مَحْمُودَةٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . ١٠

فَعَمِلْتُ هَذِهِ الْمَعَانِي كُلَّهَا فِي نَفْسِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، مَعَ مَا صُوِّرَتْ عَنْدهُ بَكْثَةُ الْأَمْوَالِ الْكَذُوبِ عَلَيْهَا وَالْمُنْتَفَقَةِ فِي طَاعَتِهِ وَالْجِهَادِ مَعَهُ لَوْ بَقِيَتْ الْحَالُ .

٦٥ - مَسْأَلَةُ زَوَاجِ الْأَمِيرَتَيْنِ أُخْتَيْ عَبْدِ اللَّهِ

وإِنَّا فِي تِلْكَ الْفِتْرَةِ ، رَأَيْنَا مِنَ الصَّلَاحِ النَّظَرَ لِمَنْ مَعَنَا مِنَ التَّبَنَاتِ وَتَزَوُّيْجِهِنَّ قَبْلَ أَنْ يَفْجَأَ أَمْرٌ ، فَيَكُنَّ عَلَى غَيْرِ عِصْمَةٍ وَلَا كِفِيلٍ . ١٥ فَتَخَيَّرْنَا لِهَئَانِ مِنْ بَنِي عَمِّهِمَا شَاكِلَةَ ، مِنْهُمْ مَعْدُ بْنُ يَعْلَى ، لِلَّذِي كَانَ عَلَيْهِ مِنَ النُّجَابَةِ وَالْعَقْلِ وَالْحَيَّةِ ؛ فَصَدَدْنَا عَنْ ذَلِكَ أَهْلُ دَوْلَتِنَا ، وَقَالُوا نَصِيحَةً وَحَسَدًا : « إِنْ أَنْتِ تَصَاهَرْتِ إِلَى بَنِي عَمِّكَ ، حَمَلْتَهُمْ دَالَّةً الْقَرَابَةِ مَعَ الْمُصَاهَرَةِ عَلَى الظُّهُورِ عَلَيْكَ وَفَسَادِ حَالِكَ بِصِلَاحِهِمْ . فَإِيَّاكَ ! وَعَلَيْكَ بَيْنَ

هو دون قِيَمَتِكَ ؛ فِيرَاعَى إِحْسَانَكَ ، وَيَرَى هَذَا مِنْكَ كَثِيرًا ، وَيَرَى
عِيَالَهُ بِعَيْنِ مَوْلَاةٍ ؛ وَإِنْ هُوَ تَحَرَّكَ إِلَى شَيْءٍ ، قَعَدَتْ بِهِ دَقَّةُ شَأْنِهِ ؛ فَلَا
أَتْبَاعَ يَهْأُودُونَهُ . « قَبَلْنَا ذَلِكَ حَذَرًا * عَلَى الدَّوْلَةِ ، وَقُلْنَا : « مِنْ صَلَاحٍ
مِنْ قَرَابَتِنَا ، نُدْرِكَ فِعْلَ الْخَيْرِ فِيهِ دُونَ مُصَاهَرَةٍ تُطْفِئُهَا »

وَكُنْ مِنْ بَعْضِ خَدَمَتِنَا مَنْ حَضَّنَا عَلَى يُوسُفَ بْنِ حَجَّاجٍ ، لِعِلْمِهِ
بِأَخْلَاقِهِ مَدَّةَ صَحْبَتِهِ لَهُ ؛ وَوَصَفَهُ بِصِفَاتٍ ظَاهِرُهَا يُشَبِّهُ الشَّكْلَةَ . وَذَلِكَ أَنَّهُ
قَالَ : « فِي الرَّجُلِ انْقِبَاضٌ وَاسْتِيحَاشٌ مِنَ النَّاسِ ؛ وَبِذَلِكَ تَأْمَنُ مِنْ
إِجْمَاعِهِ عَلَيْكَ ؛ وَفِيهِ سُخٌّ كَثِيرٌ ، لَا يُخْرِجُ خَيْرَهُ مِنْ مَنْزِلِهِ ؛ وَفِيهِ غِيَرَةٌ شَدِيدَةٌ
تُؤَافِقُ مُعَاشَرَةَ الْعِيَالِ ؛ وَبِهِ حَرَجٌ وَزَقٌّ ، لَا تَصِحُّ بِهِ وَلايَةٌ ؛ وَهُوَ مِنْ
نَقْصَانِ الْبَيَانِ وَعِىِّ اللِّسَانِ مَا لَا يَطْبِئُ بِذَلِكَ النَّاسُ لَتَأَلُّبٍ ، إِنْ شَاءَ
عَلَيْكَ ، وَلَا تَقْضِ لِفَعَالِكَ أَوْ مَقَالِكَ وَالرَّجُلُ مِنْ أَوْسَاطِ النَّاسِ وَمِنْ لَا يَنْتَمِي
إِلَى مَلِكٍ ، وَلَا يُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِمَا لَا أَصْلَ لَهُ فِيهِ . فَهُوَ بَيْنَ يَدَيْكَ كَالْكَمَاةِ الَّتِي إِنْ
شِئْتَ قَلَعْتَهَا ، لَمْ تَعْتَدِرْ عَلَيْكَ مِنْ أَصْلِهَا ، أَوْ كَالصَّمْغَةِ ، إِنْ شِئْتَ فَرَّقْتَهَا ،
ظَهَرَتْ ؛ وَكَانَتْ لَكَ الْمَنَّةُ وَالْخِيَارُ ! وَالْآخِرُ هُوَ تَرْبِيَّتُكَ وَنَشَأَتُكَ ، وَابْنُ
وَزِيرٍ جَدِّكَ ، وَلَهُ مِنْ بُعْدِ الْهِمَّةِ وَكَرَمِ النَّفْسِ وَحُسْنِ السَّمْتِ وَالْوَقَارِ عَلَى
حَالِ الْحَدَاثَةِ مَا تُرْجَى بَرَكَتُهُ ؛ وَلَيْسَ بِمُنْقَدِرٍ قَدْرُهُ . وَإِنْ أَنْهَضْتَهُ إِلَى
أَمْرٍ ، جَدَّ فِيهِ ، وَأَنْتَ آمِنٌ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ أَنْهَضَ
ابْنَهُ إِلَى دَرَجَةٍ تُقَرُّ عَيْنُهُ . وَالْأَوَّلَى أَنْ يَدْعُوكَ صِهْرُكَ « مَوْلَايَ » ،
مَنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلًا ؛ فَتَشْقَى أَنْتَ وَتَحْنُ ، إِذَا الْعَمْدُ لَا يَحْتَمِلُ سَتِيفَيْنِ ،
وَلَا نَدْرِي مَنْ السُّلْطَانُ فِيكُمْ ، إِلَّا مَنْ ارْتَضَيْتَهُ وَقَدَّمْتَهُ . »

فَقَعَلْتُ لَهَا النِّكَاحَ عَلَى أَتَمِّ مَا يُمْكِنُ ، وَاسْتَعَدَدْتُ فِي سَائِرِ أَمْرِي

بالأخزم ، وَوَكَلْتُ ذَلِكَ إِلَى الْأَقْدَارِ ، وَقُلْتُ : « هَذَا جُهْدُ الْإِسْطَاعَةِ ؛
 وَدُونَ جُهْدِكَ لَا تُتْلَام . وَلِلَّهِ أَنْ يَقْضَى بِمَا شَاءَ ! »
 وَلَمَّا صَارَ وَلَدٌ حَاجَّاجٌ بِتِلْكَ الْبُزْلَةِ ، شَرِهَتْ نَفْسُهُ إِلَى وَزَارَةِ الْبُزْلَةِ ،
 مَقْطَعٌ مِنْ لَمْ يَمِيزُ الْمَذْهَبَ . وَلَمْ نَكُنْ بَعْدَ وَزَارَةِ سِمَاخَةَ نَسْتَعْمَلُ لِنَاكَ أَحَدًا .
 ٥ فَكَانَتْهُ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ التَّقْصِيرُ بِهِ ، جِهَالَةً مِنَ الْإِنْسَانِ * بِقَدْرِهِ لَهُ مُهْلِكَةٌ ، (١) ٥٨
 وَتَرْكُهُ صِيَانَةَ قَدْرِهِ لَهُ قَاضِحَةٌ .

٦٦ — حَدِيثٌ مُعْتَرِضٌ عَنْ نَصِحاءِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ

وَكَانَ أَهْلُ دَوْلَتِنَا عَلَى مَذْهَبِ جِهَالَةٍ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ : إِنْ كُلُّ أَحَدٍ
 مِنْهُمْ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ بِرَأْيِهِ ، وَأَنْ تَجْرِيَ الْأُمُورُ عَلَى هَوَاهُ ؛ فَإِنْ لَمْ يَتَّفَقْ
 ١٠ ذَلِكَ لَهُ ، صَارَ فِي حَيْزِ الْأَعْدَاءِ ؛ وَلَوْ كَانَ عَلَى مَرْغُوبِهِمْ ، مَا تَفَقَّ لِرَأْسِ
 عَمَلٍ ، وَلَا تَمَّ لَهُ شَيْءٌ . وَكَانُوا قَبْلَ آيَاتِنَا قَدْ شَغَلَهُمُ الْخَوْفُ مِنْ صَوْلَةِ
 رُؤَسَائِهِمْ : مَا كَانُوا يَرَوْنَ السَّلَامَةَ غَنِيمَةً . وَلَمَّا تَمَّ لَهُمْ فِي آيَاتِنَا الْأَمْنُ ،
 وَأَنْسِيَتْهُمْ مَا مَضَى ، أَدْرَكَهُمْ الْأَشْرُ وَالْبَطَرُ ، إِلَى أَنْ تَطْلُعَ أَنْفُسُهُمْ لَنِيرِ
 ذَلِكَ . وَكُنَّا نَحْنُ نَنْظُرُ أَنْ بِالْأَمْنِ نَسْلَمَ مِنَ اللَّامَةِ وَالْعِدَاوَةِ . وَخَانَنَا
 ١٥ الْقِيَاسُ ؛ وَكَذَلِكَ الْعَاقِلُ الْمُتَمَرِّنُ لَا يَجِبُ لَهُ أَنْ يَنْظُرَ بِالنَّاسِ ظَنَّهُ بِنَفْسِهِ ،
 وَلَا يَعْمَلَ حَسَابَهُ وَحْدَهُ . فَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ عَلَى مَذْهَبِكَ ، وَلَا هَوَاهُ مُطَابِقٌ
 لِهَوَاكَ ! وَلَا حِمَالَةٌ أَنْ بِاخْتِلَافِ الْأَهْوَاءِ تَقَعَ الْعِدَاوَاتُ ، وَبِاتِّفَاقِنَا تَكُونُ
 الْمُصَاحَبَةُ وَحُسْنُ الْمَعَاشَرَةِ . وَأَصْدَقُ النَّاسِ لَكَ مَنْ يَكَابِدُ مَعَكَ ، وَدِهَاهُ
 مِثْلُ الَّذِي دِهَاهُ ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْأَبَاعِدِ ؛ فَلَا تَسْتَرِيحُ إِلَّا إِلَيْهِ ؛ وَلَا تَشْكُ
 ٢٠ هَمَّكَ مَعَ مَنْ لَمْ يَفْنِهِ مَا عَنَّاكَ : فَإِنَّمَا سَأَلَ عَنْ حَدِيثِكَ ، وَقَدْ أَكْثَرَتْ

عليه ، وإِنَّا مُخَالِفٌ لِمَذْهَبِكَ ، قد استهدفتُ إلى عداوته ، وأحدثتُ في نفسه ما كنتُ غنياً عنه .

- هذا طبع البشريَّة : فلا تسمع مَن يُريك التحقيق بكلامه ؛ فإنَّ الحقَّ قليلٌ على النفوس ، والباطلُ إليها أسرع ، وعليها أخفُّ . ولَمَّا علم الشيطانُ حِيلَ الإنسان ، لمَجْرَاهُ منه بمنزلة النَّمِّ ، أتاه من قِبَلِ هَوَاهُ .
ولا سبيلَ أن تلقى أحداً عَدِيمَ الْعَقْلِ : كلٌّ قد أَخَذَ من التجربة حِصَّتَهُ ، وحاز اختياره ؛ وعَرَضُكَ عليه ما يَبْدُو إِلَيْكَ هِجْزٌ وكُفَّةٌ : فإن كان رِيضاً ، فهو بِشأنه أبصر ؛ ولعلَّ له عذراً ، وأنت تلوم ؛ فتولد عليه انقباضاً منك ومَحْفَظاً لئلا يُريك الخِلافَ حتَّى يَأْنِي بما اعتزم عليه . وإن أَلْفَيْتَهُ جاهِلاً ، فن العناء رياضةُ الهَرَمِ ، لم تَزِدْهُ أَكْثَرَ من قَلِّهِ * عن ٥٨ (ب) وده ، ولا يَنْتَقِلُ عن طَبْعِهِ .

- كَيْفَ ما رَوَيْتُ في الأَمْرِ ، أَجِدُهُ جَهْلاً من فاعِلِهِ وكُفَّةً ، إذ لا تَأْدِيبَ يَجْمَلُ بِالْمَعْلَمِ ولا الْمَعْلَمُ . اللَّهُمَّ إِلَّا من شُورٍ في أَمْرٍ ، فعليه أن يعطى ما عنده من غير إلحاح ، ولا يَتَمَرَّنَ في انتظار طاعة ؛ فيكون الناصح ، إن سَمِعَ منه ، تَمَادَى على صداقته وخُولِفَ في غِيْشٍ . فما قام خَيْرُكَ ، يا زَمان ، بِشِرْكٍ !

- لو أُنِيَ أَعْلَمُ أَنَّ بِخِلَافٍ بِسِيرٍ على القاتلِ يُنْتَقَلُ إلى حِزِّ العداوة ، لم أَشاورُهُ في أَمْرٍ أَبَداً : وأكونُ قَبْلَ مُشاوَرَتِهِ مَخْاطِراً حَدِيراً الذي تَخْشَى منه ، أَشَدَّ على من عاقبة الأَمْرِ المعروض عليه . فالعاقِلُ يَقيسُ على هذه المعاني ويمحز بها صديقَه . فَرُبَّ عداوة تتولدُ بِأَرَقِّ سَبَبٍ ، أو عداوةٍ تعود إلى مُودَّةٍ ، عند الحاجة إلى التعاونِ أو الانخراط في سلكٍ واحدٍ

من عارضٍ يَمُّ أو مَرغوبٍ يُرَامُ ؟ تكون الحاجة فيه مَوَاءً .
ولا خَيْرَ في عَقْلٍ لا يتصرف تارات ؛ وللذهَبُ السَّرمدى رَاكِبُ
طريقة الجَهْل ، واقعٌ في الورطات . ومن الحقُّ ما يسج ، فلا تقوم
حلاوته وفرضه بما يعقب من المَشَقَّة والعاقِلُ يتخير الأمور ؛ فيجتنب معسورها ،
ويتوخى ميسورها . ٥

٦٧ - رجع الحديث عن زواج الأميرتين أُخْتَي المؤلف

وللقائل ، إن يحتج على هذا التكاك : ما الذى أريد به ؟ إن كُنَّا
غالبين ، فقد استغنيينا عنه ؛ وإن كُنَّا مغلوبين ، لم يند ذلك ! يعترض
هذا بعد تبليان ما وقع !

١٠ وإنما أردنا اكتساب الحسنة مع السر ؛ وإنه ، متى عرض عارض ،
كان البعلُ مكتفياً بمراته ، يُقلعها إذا أخوج ما تكون فيه عند ذلك ،
وتكون لنا منهم عُدَّة ، ويُقل طمع كل من يشره إلى خطبتهما . فقد
كان كثير من سلاطين الأندلس رام ذلك ؛ وتوقعنا العاقبة إن فعلنا :
تنشئنا فيما لا مرد فيه ، ولا يُنفك عنه إلا بالأموال الجسيمة التى هى
أولى بالبذل فى إقامة أود الملكة وما كُنَّا بسبيله من الجهاد ؛ وإن أبدينا ،
١٥ وقع الخلاف والحقد من الطالب ، بحيث لا يوافق ؛ على أنه لم نحسب
حساب ما جرى * . ولو كُنْتُ أعلم الغيب ، لاستكثرت من الخير . وكان ٥٩ (١)

زمانا لم نحسب فيه حساب خَيْرٍ خرج منه مثقال ذرة ، ولا قسنا على
شيء من الشر إلا ولم نبلغ معشاك ما يكون منه ، بل يدهى منه أمره وأفظمه .
٢٠ ولقد قال المطالبون إن أمير المسلمين كان أحق بها ، وإنما فعلنا

ذلك فراراً منه . وهذا من المُحَال أن يكون أحدٌ يتبعُ الشَّرَفَ ، ويُدْعَى إلى ما فيه حَيَاتُهُ ، فَيَأْبَاهُ ! ولو أَتَى أشعر بشيء من ذلك ، ونَرَى أن المَذْهَبَ في هذا ، لَكُنْتُ أَشَدَّ النَّاسِ اغْتِبَاطًا بِالْأَمْرِ ، وإِلَيْهِ مُسَارَعَةً ، وعليه حرصاً .

٥ ولم يكن مَنْ أَلَحَّ في ذلك أَكْثَرَ مِنَ الْمُعْتَصِمِ — رحمه الله — ؛ فَبَادَرْتُ إلى ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ، خَوْفًا مِنْ كُلِّ مَا ذَكَرْنَاهُ . وإِنِّه ، لَمَّا تَوَاتَرَتْ عَلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ هَذِهِ الْأَنْبَاءُ ، وَصُورَتْ عِنْدَهُ عَلَى غَيْرِ مَا هِيَ ، عَمِلْتُ فِي نَفْسِي .

١٠ وانقطع رَجَاءُ مَوْئِلٍ بِلَوْشَةٍ مِنْ أَنْ يُجِيبَهُ سُلْطَانُ الْأَنْدَلُسِ ؛ وَعِنْدَ ذَلِكَ ، خَاطَبَ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَلَمْ يَصِلِ الْخُطَابُ ، وَهَيَأَ الْعَسْكَرَ إِلَيْهَا مَعِ نَعْمَانٍ ، حَتَّى انْقَضَى خَبَرُهَا ، عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ .

٦٨ — تَدْخُلُ عَبْدُ اللَّهِ فِي مَسْأَلَةِ مُرْسِيَةِ وَغَضَبِ الْمُعْتَمِدِ

واعتقد المعتد دخول النصارى بلده ومخاشاتهم لجهاتي ، مع ما كان في نفسه من أمر مُرْسِيَةِ . فَإِنَّ ابْنَ رَشِيقٍ قَالَ لِي مَشَافَهَةً ، وَنَحْنُ عَلَى لَيْيَظَ : « أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ صَنِيعَكَ وَأَدْخُلَ فِي بُجْلَتِكَ . » وَقَالَ لِي رَسُولُهُ بَعْدَ تَقَافِهِ : « لَوْ أَنَّكَ تَقْبَلُ مَنْ تَخَلَّفَ فِيهَا ، لَأَقَامَ الْخُطْبَةَ بِأَسْمِكَ ، وَكَانَتْ فِي طَاعَتِكَ أَيْمَانُهُ وَمِجْدُكَ ! فَأَيُّتُ هَذَا الْقَوْلَ جُمْلَةً ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « هَذِهِ نَصَبَةٌ لَمْ يَكَدْ أَحِبَابُنَا يَتَخَلَّصُونَ مِنْهَا إِلَّا بَعْدَ الْمَرَامِ الشَّدِيدِ وَالْكَدِّ الْعَظِيمِ ! رُدَّ مِنْهُمْ هَذِهِ الْمَشَقَّاتُ ! فَلَا يَقْتَرِضُهَا هَذَا الْوَقْتُ إِلَّا جَاهِلٌ بِالزَّمَانِ ! وَلَيْتَ لَوْ سَلَّمْنَا مِنْ هَذَا كُلِّهِ ! وَإِنَّهُ مَنْ أَمَلَ

أَنْ يُبْقَى بِلَدِهِ يَدُهُ ، فَقَدْ شَرِهَ إِلَى كَثِيرٍ ، فَكَيْفَ لِقُضُولِ الْعَمَلِ الَّذِي كُنْتُ أَرَى وَأُمَيِّرُ ؟

وَلَمَّا طَامَت عَلَيْنَا الْيُسَانَةُ ، عَلَى مَا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ ، كَانَ ابْنُ الْأَحْمَرِ يُدَاخِلُهَا ، وَيَعِدُّهُمْ وَيَأْمُرُهُمْ بِالتَّثَبُّتِ ، حَتَّى تَبْدُو إِلَيْهِمُ الْأَحْوَالُ ؛ وَيَبْلُغُنِي * ٥٩ (ب) مِنْ ذَلِكَ مَا يُقْلِقُ . فَأَرَدْتُ بَعْضَ الْمَكَافَاةِ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنْ نُوجِّهَ إِلَى مُرْسِيَةِ مَنْ يَعْقِدُ مَا ابْتَدَأْنِي بِهِ رَسُولُهُمْ ابْنُ يَكُونُ ، الْمُتَصَرِّفِ فِي خِدْمَتِهِمْ ، وَيَقُولُ لَهُمْ أَنْ يُبَيِّنُوا كَيْفَ يَرِيدُونَ مُحَاوَلَةَ هَذَا الْأَمْرِ : إِنْ أَرَادُوا الْقِيَامَ بِدَعْوَتِنَا لِمِلَّةٍ مَتَى كَانَتْ ، نَغِيثُهُمْ فِيهَا بِأَمْوَالِنَا وَرَجَالِنَا ؛ وَمَا فَائِدَةُ ذَلِكَ وَثِمَرَتُهُ فِيمَا نَشْتَرِطُ نَحْنُ بِهِ ؟

١٠ وَلَمَّا تَوَجَّهَ مِنْ تَقَاتِنَا لَذَلِكَ مَنْ أَنْفَذْنَاهُ ، اعْتَقَدَهَا الْمُتَعَمِّدُ فِي نَفْسِهِ ؛ عَلَى أَنَّا لَمْ نَكُنْ نَعْرَمُ عَلَى ذَلِكَ أَبَدًا أَكْثَرَ مِنْ طَلَبِ التَّعَلَّاتِ عَلَيْهِ آخَرَ ذَلِكَ بَأَنْ نَسْمَعَ مِنْهُ مَا لَا يُوَافِقُ ؛ فَيَنْتَقِضُ الْعَمَلُ بِسَبَبِهِ ، أَوْ تُوَقَّفَ الْحَالُ إِلَى أَمَدٍ مَا ؛ كَالَّذِي يَقَعُ بَيْنَ الْمُلُوكِ مِنَ الْمُدَاخَلَاتِ وَالْأَعْمَالِ : فَهِيَ مَا لَا يَتِمُّ ، أَوْ يَتِمَّ إِلَى حِينٍ .

٦٩ — إِرْسَالُ سَفَارَةٍ إِلَى يُوسُفَ بْنِ تَاشُقِينَ

١٥

بِسَبَبَةِ مَنْ قَبِلَ عَبْدَ اللَّهِ وَإِيقَاعِ الْخَوْفِ فِي نَفْسِهِ بَعْدَ رَجُوعِهَا

وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ ، لَمَّا أَتَى سَبَبَتَةَ ، وَهُوَ قَدْ أَحْشَدَ وَأَعَدَّ ، قَاصِدًا إِلَى جِهَتِنَا ، لَا يَرِيدُ غَيْرَهَا ، أَرْسَلْنَا إِلَيْهِ رُسُلًا مُقَدِّمَةً ، بَعْدَ عِتَابِ (١٠)

كبير جرى بيننا وبين المعتد على خبر مرسية ، لم يرد به مفسدة أكثر مما وصفناه .

وحان وصول أمير المسلمين إلى سبقة ، وقدم رسلنا عليه ، وهم : ابن سهل القاضي المتقدم ذكره ، المستعمل للعملة الموصوفة ، وباديس بن واروي من تلكاتة ، يهتونه على سلامته ويتلقون بالرحب قدومه ومُسارعتنا إلى ما يذهب إليه في جهاده ، وما أشبه ذلك .

فانصرف الرسولان المذكوران ، يعلماني أن أمير المسلمين قابل لكل ما ذكرناه ؛ قد أعرض عليهما من الجليل ولطيف القول ما لا شك في تحبته . فسرنا ذلك . وكان فيما قال لهم : « يصنع ما شاء ! لست ممن يكلف أحداً إلا طاقته ! » فكان ذلك منه دهاء وحذقا ، مع ما نُبّه عليه قبل ، من قبل ابن سهل بالمخاطبة وغيره ، أن نفارنا عنه إنما كان من خشونة الكتابة الواردة من عنده ، وأن للدارة بالقول أولى ، حتى يظهر ما شاء ويمهد لعمله بذلك .

وإن ابن سهل* . لما رأى من خلاف الجند ، واطلع عليه من أنفُس ٦٠ (١) أهل البلد ما اطلع ، قدّم لنفسه ، ورأى ألا يُخلى من عمل يقربه فيمن تقرب . وأعلمه أن البلدة ليس عليه فيها مُحْتَلِفٌ ، ونفث بذلك باديس المذكور . وصحّ عندي وقت انصرافهما أن ابن واروي قال : « أرسلنا للخدمة له في زعمه ، ولم نصنع غير أني كتفته ، والقاضي ضرب عنقه ! » إلى أن وصل أمير المسلمين قرطبة .

الفصل العاشر

إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

(٦) استسلامه للسلطان المرابطي . سجنه .

إخراجه من الأندلس وتقيته

٧٠ — عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس

وبدء مقاتلته إياه

[وعند وصوله قرطبة ،] اجتمع [أمير المسلمين] بالمعتد ، وسأله عما ليج الناس به من مداخلة الرومي ؛ فشهد بذلك ، للذي كان في نفسه من كل ما وصفناه . وأرسل أمير المسلمين إلينا كتاباً يقول فيه : « اقبل إلينا ، ولا تتأخر ساعة واحدة ! »

١٠ فرأيت ذلك ، وهو موضع الانقباض ، لما تقدم من الطلب ، وأن بمحضه جميع أعدائنا ، وإلحاحه علينا في الوصول . واعتذرت إليه بتوجيه رسل : أحدهما ولد حجاج ، والآخر ابن ما شاء الله . فساعة وصولهما ، قرعهما بكل ما نزل إليه ، وأمر بثقافهما في الحديد على القام ؛ وقال لهما : « بالله ! إني غزوته كما نفزو الفوش ! والذي يقدر عليه ، فليصنع ! »

١٥ وأتاني بعض الفرسان الناهضين مع الرسل على أسوأ حالة ، مضروبين

ملهوفين ، أطلقهم قَرُورٌ لِيُعْلِمُونِي بِالْقِصَّةِ ، ويقول : « بالله ! أن أطلقهما الأميرُ حتَّى ينطلق مؤتمِلٌ وأصحابه ! » فذهمني من هذا الأمر ما لا مَرَفَع فيه ولا حيلة . ولا ظَنَنْتُهُ أن يجرى على هذه الرتبة .

وأرسل على المقام كُتُبًا إلى اليُسَّانة — فأول ما طاعت له — وإلى جميع حصون القَرْب ، على يدي ثَمَانُ المذكور ، الساعى في مُدَاخَلَتِهَا قديمًا .
 ٥ وكان من كُتُبِهِ إِلَيْهِمْ : « أَمَا بَعْدُ ، فقد جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ^(١) » . إن لم تُطَوِّعُونَا ، فَأَذِنُوا بِمُحَرِّبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ^(٢) . وإن خِطَابَهُ لم يَرِدْ على مَعْقِلٍ مِنْهَا إِلَّا وَالتَّى بِيَدِهِ ، وقام أهلُهُ على إخراج قائِدهم ، حتَّى تَنَازَرَتِ الْمَعَاقِلُ كُلُّهَا كَانْتِثَارِ الْعِقْدِ ؛ إلى أن وصل الأمير إلى بَيْلِيشْ ؛ ومن امتنعَ مِنْهَا ، قَاتَلْتُهُ الرَعِيَّةُ معهم ، حتَّى يلقى يده .

فلم نَذَرِ مَا* نصنع ، « واتَّسعَ الْخَرْقُ على الرَاقِعِ » ؛ وقلتُ : ٦٠
 « لا طاقةَ لى بِجَمِيعِ أَهْلِ الْبِلَادِ ، إذ غَدِرُوا وَخَرَجُوا عَنِ الطَّاعَةِ ! فَبِمَنْ نُمَسِّكُ الْحُضْرَةَ ؟ ليس فيها خَلْقٌ من غيرِ جِنْسٍ مِمَّنْ كَانَ فِي الْمَعَاقِلِ .
 ١٥ « ولا يَتِمَكَّنُ لِلْخِيَاءِ أَنْ يَقِفَ دُونَ أَوْتَادِ ! » ولا فى الأمر من مُدَارَاةٍ ولا حيلةٍ مع الرَّجُلِ أَكْثَرَ مِنْ رَغْبَتِهِ فى خَلِينَا ! ولا نَمَّ غَيْرُهُ يُسْتَنْدُ إِلَيْهِ ، فَتُسْتَرِجَحُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الدَّاهِيَةِ الْعُظْمَى وَالطَّامَّةِ الْكُبْرَى ! ولا فى التَّمَكُّنِ أَنْ نَوَجِّهَ إِلَى الرُّومِ ، فَيَكُونَ ذَلِكَ فُسَادًا فى الدِّينِ ، وَاسْتِعْجَالًا لِّلْمَكْرُوهِ ؟ وإنْ شَرَّ بِذَلِكَ أَهْلُ حَضَرَتِنَا ، كَانُوا أَوَّلَ مَنْ يَقَاتِلُنَا قَبْلَ

(١) سورة الإسراء : ٨١ .

(٢) سورة البقرة : ٢٧٩ .

المُرابطين ! ما دام السُرُ يُنننا وبنينهم ، فيكشفون لنا القناع على بصيرة !
فما عهدنا أياماً وليالي كانت أفجعَ لقلوبنا ، وأذهى لنفوسنا من تلك الأيام .

٧١ - وصول الجيش المُرابطي قبالة غرناطة

وقدّم أمير المسلمين عسكراً إلى غرناطة ، ما دام مُحاولته للحصون ،
٥ يحرسونها من دخول عسكِرِ برّاني ، إلى أن يردّ عليها بنفسه . وأرسل
القوَّاد إلينا أن نبيحَ لهم القوت واللف بالمدينة ؛ فأجبناهم ، لتلا يقَع
مِنّا شيءٌ من الخلاف ، يتسبّب به إلى ما هو أكثر .
وأرسلتُ آخرين من الفقهاء إلى أمير المسلمين ببالٍ ، ويُملِونه أنّي
ابنُّه ، وغيرُ مُخالفٍ عليه ، والطاعةُ مِنّا له على مرغوبه ، دون أن يحوج
١٠ إلى هذا التعب كله . فأرسل إلينا النقيّة ابنَ سعدون ، يقولُ لنا : « لا طاعةَ
ولا صلحَ إلّا بالخروج إليه ! وهذا أمانه : كتابٌ بخطِّ يده ، يتضمنُ
الأمان في النفس والأهل دون المال . » فأيقنتُ بالفرص . وكان في آخر
كتابه لنا : « إن كنتَ استوحشتَ من النزول إلينا ، فنخبرْ من بلادك
مَوْضِعاً نصيرُ فيه ؛ ولتكنْ غيرَ غرناطة ، ليرى فيها رأينا ! عدّةُ فائِرةُ
١٥ لا تَمُ ! »

فروّيتُ هذا الأمر ، وعليتُ أنّي ببالٍ ومكانٍ لا اختيارَ لي فيه ،
وأنّ المذهبَ فيّ إلّا أليّ معقلاً ، وأنّه لا مهربَ من بين يديه . فقلتُ :
« من السخف يكون أن أقولَ : « قد اخترتُ مَوْضِعَ كذا ! » فإن
كان لها كارهاً ، لم ألَبَثُ أن أُرَدَّ منه بتعلُّلٍ وحُجّةٍ للقوى على الضيف !
٢٠ وإن كان في نفسه العوضُ ، فبِخُروجي إليه يُربّي ما يمتدّه* من إحسان . ٦١ (١)

ولا حيلة غير الخروج والتّراعى عليه ؛ فإن كان قد أجمل وقبل ، فله الفضل ، وعلى الشكر آخر الدّهر . وإن كان قد غدر ، كنّا واثقين بالقدر ، وأبلىنا عند الله وعند الناس المذّر ! »

٧٢ - الحالة داخل حضرة غرناطة

٥ ولما التفتنا إلى أهل مدينتنا ومذاهبهم وحرّكاتهم ، أطلعنا على أمورٍ دليّةٍ على الانتقال ، مؤذنة بالزوال ؛ وقسمناهم أصنافاً على القياس والرتبة ، مع المعاينة لما عيّى قبل ، وإظهار ما خفى ، إذ لا حرج ولا هيبة ولا صولة تنقّى . أمّا الجند من البربر ، فكانوا مُتّطّعين بهم ، طامعين في الزيادة على أيلهم للجنسية . واتفق رأيهم على ألا يلقوه بحجر ، وقدموا كتبهم بالطاعة ؛ وراجعهم عليها ، يعدّم بأن يُبقّهم في أماركنهم على أفضل ما كانوا عليه ؛ فمن كان منهم بالمدينة الفوق ، تقلّع إلى السفلى بأهله وماله ، وبقي هو بنسبته مُنفرداً متأهباً للشر ، إمّا بالخروج إليه من الطاعة ، أو بإسلامنا إليه والتبرؤ^(١) منا .

١٥ ومن كان من التجار وأهل البلد ، فكانوا على نيّة أنهم مع من سبق ، ولا طاقة لهم بالحرب ، ولا هم أهل ؛ وأكثرهم خرج من البلدة يقول : « لأىّ وجهٍ نَحْتَمِلُ الحصار ؟ تاجرٌ هنا وصانعٌ كما في غيرها ! » وأمّا الرعيّة ، فبنّج بنّج ذلك ما كانت تبغى ، طمعاً منها في الحرّية ، وأنها لا يُلْزَمُها غير الزكاة والعُشر .

وأما الرّقاصة من المغاربة ، الذين كانوا عماد الحضرة ، وبهم كنّا

أصل : « التبرؤ » .

نُفْسِكَ الْحَصُون ، قَهْمٌ أَوَّلُ مِنْ طَاع ، وَأَعَيْنُ مَنْ بِالْخِصْرَةِ إِلَيْهِمْ يَقُولُونَ :
« مَا الَّذِي خَالَفَ بَنَّا عَنْ صَنِيعِ بَنِي عَمَّنَا ؟ » قَلَمَ نَجِدُ فِي صِنْفٍ مِنْهَا
رَاحَةً يُرَجَّى مَعُونَتُهَا !

وَأَمَّا الْعَبِيدُ وَالصَّغَالِيَةُ ، فَالْعَبِيدُ الْأَعْلَاجُ ، أَوَّلُ مِنْ عَصَا ، كَمَا ذَكَرْنَا ،
بَلَوُشَةُ ، رَجَوْنَا أَنْ يَكُونُوا عِنْدَهُ فِي أَعْلَى مَرْتَبَةٍ ، وَلَمْ يَفْكُرُوا فِي طَاقِبَةٍ ٥
أَنْ يَخْطُؤُوا عِنْدَهُ ، يَقُولُ : « مَا نَصَحُوا مَوْلَانِي رَبِّ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ !
فَكَيْفَ غَيْرُهُ ؟ » إِلَّا أَنْ كُلَّ وَاحِدٍ بِشَهْوَتِهِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، لِلَّذِي شَاءَهُ
اللَّهُ — لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ وَلَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ !

حَتَّى الْخَدَمُ مِنَ النِّسَاءِ وَالْخِصْيَانِ : كُلُّ طَامِعٍ فِي إِقْبَالِ الدُّنْيَا عَلَيْهِ ،
وَالْمَخْرُجِ عَنْ ثِقَافِ الْقَصْرِ إِلَى رَاحَةٍ* التَّسْرِجِ ، وَالْإِسْتِهْتَارِ بِالرِّجَالِ ، وَمَا ٦١ (ب)
أَشْبَهَ ذَلِكَ . فَجَمَعُوا الْخِصْيَانُ مِنْهُمْ وَلَبِيبٌ كَانَا زَعِيمِي الْمُدَاخَلَةِ وَرَأْسَ
الْقَتْلِ ، يَقُولَانِ : « نَحْنُ لَا وَلَدَ لَنَا وَلَا تَلَدَ ! فَعَلَى أَيْ شَيْءٍ نَصْبِرُ عَلَى
الْقِتَالِ ؟ وَمَا عَسَى نَنْطَمِعُ أَنْ نَصِيرَ إِلَيْهِ : هَلْ يَحْمِلُ بَنَّا سُلْطَنَةً أَوْ قِيَادَةً
أَوْ قِضَاءً أَوْ فِقْهًا ؟ إِنَّمَا نَحْنُ بِمَنْزِلَةِ الْعِيَالِ : مِنْ سَبَقَ اسْتَمْتَعَ بِنَا ، وَكُنَّا
عِنْدَهُ مِنْ جِلَّةِ الْغَنِيِّ ، نَرْزُقُ كَسَائِرَ الْكَسْبِ ، فَلَا نَضِيعُ ! تَعَالَوْا بَنَّا !
نُقَدِّمُ لَأَنْفُسِنَا ! » فَوُرِدَتْ عَلَيْهِمْ كُتُبُ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِنْزَالِ الْقَوِيَّةِ ،
وَالثَّقِيلِ ، وَالْمَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ ، يَمِدُّهُمْ بِذَلِكَ عِنْدَ إِكْمَالِ حَاجَتِهِ وَإِسْلَامِهِمْ لَنَا ،
حَتَّى اتَّفَقَتْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ .

٧٣ — لَا يَجِدُ عَبْدُ اللَّهِ مَخْرَجًا إِلَّا بِالنَّسْلِ

٢٠ وَلَا أَنْسَقَ لَهُ مَا أَمَّلَ ، وَعَلِمَ بِمَا مَعَهُ فِي الْبَلَدَةِ ، بَعْدَ تَقْدِيمَةِ عَسْكَرِهِ ،

كما ذَكَرْنَا ، إلى فَحْصِ غَرْناطَةِ ، وكان أَهْلُ الْبَلَدِ يَتَقَلَّمُونَ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى الْبَادِيَةِ ، وَيَخْرُجُونَ مِنْهَا^(١) أَفْوَاجًا ، رَأَيْنَا إِمَارَةَ الشَّرِّ وَعِلَامَةَ السُّوءِ . فَإِذَا بِأَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَثَرِ ذَلِكَ الْعَسْكَرِ مُقْبِلًا إِلَى الْحَضْرَةِ . فَهَاجَ النَّاسُ وَجَزَعُوا . وَاتَّفَقَ رَأْيِي ، مَعَ مَنْ نَصَحَنِي ، أَنَّ الْخُرُوجَ إِلَيْهِ أَوْلَى ، وَالْتِزَامِي عَلَيْهِ ٥ أَنْجَا مِنْ هَذِهِ النَّارِ الْمَوْقِدَةِ . فَلَمَّاهُ ، إِذَا رَأَى بَرَاءَتَنَا مِمَّا نَقَلَهُ الْعَدُوُّ ، وَلَمْ يَجِدْ فِي الْمَدِينَةِ نَصَارَى كَمَا قِيلَ ، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ وَجْهَيْنِ : إِمَّا صَرْفُنَا إِلَى أَوْطَانِنَا ، وَإِمَّا إِخْرَاجُنَا . فَلَنْ نَعْدَمَ مَعَهُ جَيْلًا ، إِذْ لَمْ نُهَيِّجْ عَلَيْهِ خَرْبًا ، وَلَا أَنْعَبْنَاهُ فِي أَمْرٍ .

- وَكَمْ عَسَا الْعَيْشُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ! وَالنَّجَاةُ بِالنَّفْسِ فِي دَارِ الدُّنْيَا ١٠ وَتَخْلِيصُهَا مِنَ الْأَوْزَارِ فِي الْآخِرَةِ ، لَا يُبَالِغُ ذَلِكَ شَيْءٌ وَلَا يَعْدِلُهُ ! فَاسْتَعْمَلْنَا الْعَقْلَ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ أَمِيرًا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ؛ وَكُلُّ قُوَّةٍ لَا يَتَأَنَّىهَا الْعَقْلُ ضَعْفٌ وَسُكْرٌ ، مَعَ سُوءِ الْعَاقِبَةِ . وَلَا سِيَّأَ أَنَّنا بِحَالٍ لَا بُدَّ مِنْ إِسْخَاطِ الرُّومِ بِإِرْضَائِ الْمُسْلِمِينَ ، أَوْ إِسْخَاطِ الْمُسْلِمِينَ بِإِرْضَاءِ الرُّومِ ! فَالآنَ يَرِثُهَا الْمُسْلِمُونَ أَوْلَى وَآتَجَلُّ لِلْعَاقِبَةِ ، إِذْ هِيَ نُشْبَةٌ لَا مَلْجَأَ مِنْهَا إِلَّا بِمَا ذَكَرْنَا .
- ١٥ اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَوْ امْتَسَكْنَا فِيهَا بِنَفَقَةِ الْأَمْوَالِ ، وَلَا يُمْكِنُ اسْتِبْدَادُ دُونِ انْتِظَارِ قُوَّةٍ مِنَ النَّصَارَى ، مُنَّمْ أَنَّى الرُّومِيُّ ، فَيَنْحَاشُ عَسْكَرُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْجَزِيرَةِ أَوْ إِلَى قُرْطُبَةٍ ، * مُرْتَبِعًا لِمَا يَكُونُ مِنْهُ ، فَيَقُولُ لِي الرُّومِيُّ : « قَدْ ٦٢ (١) أَقْلَمْتُ عَنْكَ مِنْ أَرَادَكَ ! هَاتِ مِنَ الْأَمْوَالِ مَا نَسْتَحِقُّ مِنَ الْكَفَاةِ ! » فَلَوْ قُلْتُ لَهُ : « اتْرُكْ عَسْكَرًا مَعِي ، وَابْقَ أَنْتَ لَثَلًا يُعَاوِدُنَا ! » ٢٠ مَا كَانَ يَفْعَلُ ، وَيَخْشَى عَلَى عَسْكَرِهِ الْبَوَارِ بَيْنَ أَهْلِ الْبَلَدَةِ وَالْعَسْكَرِ الْخَارِجِ .

(١) أصل : « يخرجونها » .

ولو انصرف دون أن يترك قُوَّةً ، فساعة انصرافه وإقبال المرابطين ، لم ترتد لهم ساعة ، وينقطع الرجاء عن معونة أخرى : فهناك النكال الأكبر ، وصحَّ لهم قتلنا بالكتاب والسنة .

- ولو أن عند إقبال الرُّومى ، يقول لنا : « إن كنت تتقن من المرابطين ، ولا يمكننا السكنى معك من أجلهم ؛ فتخل لنا عنها ، وتصيرُ إلى كلِّ ما نحبُّه مع النجاة بنفسك وحشيتك وذخايرك ، كالذى صنعتُ بجفيد ابن ذى النُّون ، إذ عاوضته بلفسية ؛ وإلا ، فلا استيطان لك عندنا ، إذ لا نقيدها بالبلدة ، وما يغنى بخروجك إلينا وتركك لمدينتك مطيبةً للمرابطين ؛ فيدخل علينا الحزم منها . » فلو أطمناه ، لارتكبنا من الأوزار والخروج عن الدين ما يلعبنا الله عليه والناس أجمعون ، وكُنَّا نترك غرناطة حبساً للرُّوم ، يُضربون منها المسلمين ؛ فلا دماء تُسفك منها ، ولا داخلَةٌ تُدخل إلا وكانت في صحائفنا . ولا خير في أثر الدنيا على الآخرة .
- ولو أن يترقب المرابط عند إقبال الرُّومى ، ولا ينحاش له ، كما وصفنا ، ويبقى على لقاءه^(١) ، فلو التقت الفِئتان ، فلا بُدَّ من أن يكون للطائفة الواحدة على الأخرى ؛ فلو أنها على الرُّومى ، ففي إثر ذلك ، لم يقدم على قتلنا شيئاً بالحجة أننا أجلُّنا ؛ ولو أن الرُّومى يغلب ، فبقى بعد ذلك في المُلْك ما شاء الله ، لم يطب لنا مُلْك ، ولا استحيينا من الله والناس أن يكون ذلك بيّوار المسلمين وهلاكهم ؛ ثم إنه لا يصحُّ لنا ثبوتُ معه ، وأى شيء كان يحجره عنا ، ولا شيء نرجى به نزع أنفسنا منه ، ولا بن ٢٠ نتنصر لو هم بأخذ الكل .

(١) أصل : « لقاء » .

كَيْفَ مَارَوْتُ فِي هَذِهِ الْوُجُوهِ ، لَا خَيْرَ فِيهَا لِمَنْ تَعَقَّبَ الْأَمْرَ
وَتَدَبَّرَهُ ، إِلَّا مَا صَنَعْنَاهُ مَعَ حَكْمِهِ* الْأَقْدَارُ الَّتِي لَا تَجْرِي عَلَى إِهْمَالٍ فَخَرَجْنَا ٦٢ (ب)
إِلَى الرَّجُلِ ، كَأَنَّمَا نُسَاقُ إِلَى الْمَوْتِ ، لَا نَدْرِي مَا نَلْقَى ، إِلَّا كَالْخُلَاطِيرِ
بِنَفْسِهِ ، مَتَوَكِّلِينَ عَلَى الْقَدَرِ .

٧٤ - تسليم الأمير عبد الله ونهب أمواله

وَلَمَّا لَقِينَاهُ ، سُرَّ بِذَلِكَ ، وَأَقْسَمَ لَنَا عَلَى الْأَمَانِ فِي أَنْفُسِنَا وَأَهْلِنَا ، وَلَنَا
مِنْهُ السَّرَاعَةُ وَالْكَرَامَةُ مَا بَقِيَ . ثُمَّ أَشَارَ عَلَى قُرُورٍ بِالْتَّقِيبِ عَلَيْنَا ، إِلَى أَنْ
يُثَبِّتَ خَبَرَنَا ، وَيَقِفَ عَلَى أَمْوَالِنَا .

- فَاتَّعَدْتُ [قَبْلَ ذَلِكَ] أَهْلَ دَوْلَتِنَا ، يَطْلُبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يُودَعَ
عِنْدَهُ شَيْئًا ؛ فَلَمْ نَفْعَلْ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « هَؤُلَاءِ يَطْلُبُونَ مَا يَتَزَوَّدُونَ
بِهِ ؛ وَلَيْسَ ذَلِكَ شَفَقَةً مِنْهُمْ عَلَيَّ ، وَلَيْسَ نُحْلِي مِنْ دَفْعِ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ مِنْ
وَجْهَيْنِ : إِمَّا فَاسِقٌ يَسْتَأْثِرُ بِهِ دُونِي ، فَتَكُونُ حَسْرَتُهَا فِي نَفْسِي ، وَلَا تَقْبَلُ
بِهَا عَنْ وَجْهِ ؛ وَإِمَّا مُتَبَشِّلٌ بِبَعْضِهِ ، يَحْمِلُهُ إِلَى الْأَمِيرِ لِيَتَهَيَّأَ بِهِ مَا يَبْقَى
لَهُ ؛ وَعِنْدَ ذَلِكَ نَفْتَضِحُ عِنْدَهُ ، وَلَا يَقْبَلُ لِي صَرْفًا وَلَا عَدْلًا ؛ وَرُبَّمَا
يَحْنَقُ عَلَيَّ ؛ فَيُوَفِّدُنِي بَعْدَ الْأَمَانِ ، مَعَ حُبِّهِمْ فِي اللَّالِ . وَإِنَّهُ لَا شَيْءَ نَرْجُو
بِهِ بَعْدَ اللَّهِ التَّقَرُّبَ إِلَيْهِمْ إِلَّا بِالْأَمْوَالِ ؛ وَلَوْ أَمَكْنِي أَنْ أُزِيدَ فِيهَا ، فَضْلًا
أَعْيُنُهُمْ ! وَأَنَا لَا أَبْتَغِي إِلَّا الْعَيْشَ خُلَاصَةً نَفْسِي وَأَهْلِي . وَقَدْ خَفَّفَ اللَّهُ
عَنِّي بَقْلَةَ الْعِيَالِ ؛ وَلَا خَيْرَ فِي التَّرَرِ بِمَالٍ لَا أَدْرِي إِنْ يَبْقَى مَعِي ، مَعَ
اخْتِلَاطِهِ وَكَثْرَةِ شُبُهَاتِهِ : وَكَثْرَةُ اللَّالِ إِنَّمَا يَحْتَاجُ لِلْمَمْلُوكَةِ وَالْأَجْنَادِ . فَالآنَ
٢٠ قَدْ أَزَاحَ اللَّهُ ذَلِكَ عَنِّي ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا طَلَبُ السَّلَامَةِ بِخُشَاةِ النَّفْسِ ،

وهي غنيمة في مثل هذا الوقت الحاد !

فخرجتُ إلى الرَّجُل بعد ثقاف القصر ؛ ولا خوفَ عليه ذلك الوقتَ ،
إذ كان الناسُ بينَ يأسٍ وطمعٍ في الرجوع ؛ فلا جرأةَ من أحدٍ في
اعتراض شيءٍ من ساقَتينا . ولَمَّا أُتِرْتُ بتولّي قُرُورَ الأمرِ ، جعلَ الحرصُ
على الخِياءِ ، وأمرَ بطردِ الداخلِ والخارجِ ؛ وحيلَ بيننا وبينَ عَيْسِدنا
وصنائعنا : كلُّ مُفْتَشٍ عليه ويُبَحِّثُ على مَالِدِيهِ من مالٍ كسبه في ولايتنا .
ثمَّ أَنَا الفقيهُ ابنُ سَعْدُونٍ من عند أميرِ المسلمين ، يقولُ : « أخضرَ
الأموالِ والأزِمَةُ بها ! فإنَّ مؤملاً قد أخبره أَنَّهُ ليسَ عندك دِرْهَمٌ إلَّا بزمامٍ
وذكرٍ . » فقلتُ له : « نَمَّ ! كانَ * ذلك ، قد تَرَكْتُهُ في داري ؛ ٦٣ (١)
فإنَّ أبايَ لي السَّيرَ بنفسِي لاستخراجِ الكلِّ ؛ وإلَّا ، فهذه أُمِّي ، تتولَّى
ذلك مع ثِقَاتِهِ حتَّى لَا يُفَادِرَكُم منه خِيطٌ ! »

وكانَ ، عند خروجي ، قد وقعَ في نفسِي من خوفِ الثقافِ ما خَشِيتُ
الفرقةَ منها إن تَرَكْتُها في القصرِ ؛ فخرجتُ معها ، ولم أَلْتَفِتْ إلى ماسِوَاها .
وَأَنَا مع ذلكَ في حيرةٍ لَا أَدْرِي لِمَا يَصِيرُ أُمْرِي ؛ قد أَشْرَبَ قلبي من الخوفِ
والجزعِ ما لم أَعْهَدُهُ قَطُّ ، وَلَا كَانَ فِيهِ عِزَالَةٌ . فإنَّ الأمورَ التي يَنْبَغِي لها
الاستِثْناءُ والصبرُ ما كَانَ من أَمْرٍ دونِ أَمْرٍ ؛ وإنَّ جُلَّ خَطْبٍ ، يُرْجَى
في غيرهِ الراحةِ ؛ وبعضُ الشرِّ أَهْوَنُ من بعضٍ ؛ وإِنَّمَا هذه النِّصبةُ لم
يَكُنْ لها عِزَالَةٌ ولا استراحةٌ إلى أَمَلٍ ورجاءٍ لِيُسْرٍ ، إِلَّا بِحِثِّ مُحْتَسَبٍ .
فَأَذْهَلَنِي ذلكَ عن كلِّ مَالِي فِيهِ صلاحٌ من تَقْدِيمَةِ النَّظَرِ في مالٍ أو غيره ؛
بل ، كانتَ نفسِي أَكْدَ عَلَيَّ ، لم تعملَ حسابَ مَنْ يَعِيشُ ، لَا سِيَّما من
لم تَجْرِ عليه قبلَ ذلكَ مِحْنَةٌ ، وَلَا أَكْرَبَهُ الدَّهْرُ بَرْزِيَّةً . فجاءتْ بُحْلَةٌ ،

أُبهِتَتْ وخانتُ القياس ، وحادثتُ عن سبيل المهود .
وقد كان أرسل إلى قَرُور يطلب خطاً يدي بإسلام المدينة وإخراج
من لي فيها من الحشم . فبادرتُ على المقام ، إذ الالتواء عن ذلك ممّا
لا ينفع ؛ ولو فعلتُ ، لكان ذلك زيادةً في الهوان ، ولم يَفِدْ شيئاً ، وأنا
قد حصّلتُ في القبضة .

وكنْتُ أُخْرِجْتُ مع نفسي أسباباً منها سَقَطُ ذهبٍ فيه عشرة عُقُود
من أنفُس الجواهر ، وذهباً مَبْلُغُهُ سِتَّةَ عَشَرَ ألف دينار مُرَابِطِيَّة ، وخَوَاتِمٌ ؛
وتَأَوَّلْتُ في إخراجها معي أَنْ قُلْتُ : « إن كان الأمرُ يبدو من الأمير
بتفاني ، فهذه حاصِلَةٌ لا تنفع ، تُجْعَلُ كَسِوَاهَا ؛ وإن لم يكن ، وربما تأخَّرَ
في الأمر بعد قضاء غزوته ، دارَيْتُ منها وأَعَدَدْتُهَا لِمَا ينوب على العسْكَرِ
ومُتَاحِفَةِ المُرَابِطِينَ . »

ولم يُتْرَكْ لَنَا خَادِمٌ إِلَّا حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا . وَفُتِّشَ عَلَيْهِمُ أَلَّا تَكُنْ
في أَوْسَاطِهِمْ خَيْثَةٌ . وجعل قَرُور يقول لي ولأُمِّي : « اكشفا لي عن
ثيابكما . » * فقد أَخْبَرَ السُلْطَانُ أَنَّ خَيْرَ الجواهر على أَوْسَاطِكُمَا . « فَتَبَرَّأْنَا (ب)
له عن ذلك ، ونزعتُ له عن الثياب . ثُمَّ جعل يَنْفُضُ المَخْدَاتِ عن
الصوف ، وَيَفْتِشُ بَيْنَهَا ، وَيُقَلِّبُ التَّرَايِثِ على وجوهها ، ويَحُلُّ طَيَّ
الثياب ، فَتَشَأْ لم يُعْهَدَ مِثْلُهُ قَطُّ . ثُمَّ أمر بِحُفْرِ الأَرْضِ التي عليها الخِجَابُ ،
خَوْفًا من أَنْ نَدْفِنَ فِيهِ شَيْئًا ؛ وهو في ذلك كُلَّهُ يقول لي : « إِنْ سَلَتْ
بروحك ، فإِذَا في الأَرْضِ أَوْجَهَ مِنْكَ ! »

وَصَارَ الكُلُّ فَيْئًا من خَادِمٍ وَغُلَامٍ ، مَا خَلَانِي وَأُمِّي . وَكُنْتُ وَفَتْ
خُرُوجِي قَدْ أُخْرِجْتُ مع أُمِّي صَبِيَّةً طَمَعْتُ أَنْ أُنْجِوْهَا ، فَلَا يُؤَبَّهَ لَهَا ،

أَلَّا أَنْفَرِدَ دُونَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِي ، لَتَكُونَ لِي عُدَّةٌ لِمَا بَعْدَ ذَلِكَ ؛ فَأَنَّى قَرُورَ ، وَالَّتِي يَدُهُ فِيهَا ، وَأَخْرَجَهَا ، وَقَفَسَ ثِيَابَهَا عَلَى الْقَامِ ، وَتَحَمَّلَهَا . ثُمَّ أَتَى إِلَى أَثَاثِ الْخِجَابِ كُلَّهُ وَقَفَّسَهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، فَكُلُّ ثَوْبٍ أَوْ حَاجَةٍ اسْتَحْصَاهَا ، أَخَذَهَا لِنَفْسِهِ . وَكَادَ أَنْ يُعْرِئَنِي مِنَ الْكُلِّ . وَأَصَابَ الدَّانِيَرُ لِلذِّكْرِ ؛

صَالَ لِي : « مَا أَرَدْتُ بِإِخْرَاجِهَا ؟ » قُلْتُ : « لِأَتَأْخِيفَ بِهَا الْأَمِيرَ ! » فَهَدَّ دَنِي وَأَدْخَلَنِي تَحْتَ وَعِيدٍ ؛ ثُمَّ أَمَرَ بِاتِّقَالِهَا عَلَى الْقَامِ ، وَأَخَذَ السَّفَطَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْجَوْهَرِ وَالْخَوَاتِمِ : هُوَ مِنْ جِهَةٍ ، وَرَبِيبُهُ مِنْ أُخْرَى ؛ وَأَنَا فِي هَذَا كُلِّهِ لَا أَرْجُو شَيْئًا إِلَّا السَّلَامَةَ فِي الرُّوحِ ، وَلَمْ نَشْكُ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَكُونُ بَعْدَ هَذَا إِلَّا الْقَتْلُ .

ثُمَّ إِنَّهُ أَمَرَ وَالِدَتِي بِالطَّلُوعِ إِلَى الْقَصْرِ لِاسْتِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ . فَتَكَدَّرْتُ لِذَلِكَ أَيَّامًا ، مَا مِنْهَا يَوْمٌ إِلَّا وَنَظُنُّ أَنَّهُ لَا تَرْجِعُ إِلَيَّ ، حَتَّى دَفَعْتُ إِلَيْهِمُ الْكُلَّ بِالْأَزِمَةِ ، لَمْ يُغَادِرْهُمْ مِنْ ذَلِكَ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ ، حَتَّى أَنَّ الْحَاجَةَ الْيَسِيرَةَ رُبَّمَا كَانَتْ عِنْدِي فِي الْخِجَابِ ، فَيُسَدَّدُ فِيهَا عَلَى الْوَالِدَةِ ، فَتَأْتِي عَنْهَا وَتَحْمِلُهَا إِلَيْهِمْ . وَلَمْ يَتَّبِعْنِي لِي خِلَافُ أَهْلِ بَلَدِي ، إِلَّا وَالْأُمُرُ قَدْ فَاتَ ، مِنْ التَّنَظَّرِ فِي الزَّمَامِ أَوْ غَيْرِهِ . وَلَمْ يَتَقَدَّمْنِي أَحَدٌ إِلَى مِثْلِ هَذَا ، فَنَأْخُذَ حِذْرِي وَتَتَأَهَّبَ لَهُ ؛ وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، إِذَا أُعْطِيَ ، فَلَا مَانِعَ ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَنْهَيْئًا ، مَعَ مَا سَلِبَ وَضَاعَ ، نُبُوتٌ وَلَا بَقَاءَ ، وَلَوْ رُفِعَ إِلَى أَعْنَانِ السَّمَاءِ .

فَلَمَّا تَقَصَّوْا* الْجَمِيعَ ، وَتَبَيَّنَ الْحَقُّ ، جَاءَنِي قَرُورُ بِوَصِيَّةِ السُّلْطَانِ ، مَعَ ٦٤ (١)

أَبِي بَكْرٍ بْنُ مُسْكَنَ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ عَلَى مُنْتَقِمٍ شَانِيٍّ ، وَهُوَ يَقُولُ لِي :

« الْأَمِيرُ يُنْهِي إِلَيْكَ أَنْ لَا يَبْقَى لَكَ عِنْدَ أَحَدٍ وَدِيعَةٌ ؛ وَإِنَّ مَا فِي قَصْرِكَ

قَدْ نَزَلَتْ عَنْهُ بِالْأَزِمَةِ ؛ وَمَا فِي خِجَانِكَ قَدْ صَارَ إِلَيْنَا وَقَفَّسْنَاهُ ؛ وَبَقِيَ لَنَا

أَنْ تَذَرِي مَا لَكَ مَوْدُوعًا ؛ وَإِذَا ، لَا عَهْدَ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ ، إِنْ خَرَجَ
قَبْلَكَ دِرْهَمٌ عِنْدَ أَحَدٍ ؛ وَلَا تَكُونِ عُقْبَكَ فِي ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَكَ فِي
الصَّخْرَاهُ بِحَيْثُ لَا تَرْجِعُ ذَلِكَ لِلَّالِ ، وَيَبْقَى عِنْدَ مَنْ أَوْدَعْتَهُ . « فرجعت
إلى نفسي أَنْ نَعْلَمَ لَهَا عِنْدَ أَحَدٍ دِرْهَمًا وَدِيعَةً ؛ فَلَمْ أَجِدْ . وَأَقْسَمْتُ
٥ لَهُ عَلَى حَقِّي .

وَرَجَعْتُ إِلَى الْوَالِدَةِ ، أَعْطَاهَا ، وَأَقُولُ لَهَا : « أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ ! إِلَّا
مَا أَشَقَّقْتَ عَلَيَّ ؟ قُرْبَانًا قَدْ أَخْرَجْتَنِي شَيْئًا لَا أَعْلَمُهُ ؛ فَيُظْهِرُ بَعْدِي ،
وَيَكُونُ فِيهِ هَلَاكِي ، وَهَلَاكُكَ ! وَالْدُّنْيَا أَقْلٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ! وَالْقَوْمُ ، كَمَا
تَرَيْنَ ، مُتَعَلِّقُونَ بِشَعْرَةٍ ، يَطْلُقُونَ مَعَنَا أَرْقَ سَبَبٍ إِيَّاكَ أَنْ تَشْتَقِيَ بِي !
١٠ وَإِذَا تَبَرَّأْنَا لَهُ ، لَا يُمْكِنُ لَهُ تَضْيِيعُنَا . وَلَيْسَ يُدْخِرُ اللَّالِ إِلَّا لثَلَاثَ :

سُلْطَانٌ يَجُورُ ، أَوْ فِتْنَةٌ تَدُومُ ، أَوْ عُزْرٌ يَطُولُ . وَنَحْنُ فِي نَفَرٍ يَسِيرُ ! «
فَلَمَّا سَمِعْتُ ذَلِكَ ، بَكَتْ وَقَالَتْ : « نَحْشَى أَنْ يَبْقَى فَقَرَاءٌ ! وَلِلْوُتْ
أَهْوَنُ مِنَ الْفَقْرِ ! » فَسَهَّلْتُ عَلَيْهَا الْأَمْرَ ؛ وَقَالَتْ : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ
مَنْ خَلَقَ ! » فَكَتَبْتُ تَسْمِيَةً بِمَا أَوْدَعْتُ مِنْ مَتَاعِهَا ، تِلْكَ اللَّيْلَةَ الَّتِي
١٥ حَانَ خُرُوجِي فِي غَدِهَا : ذَكَرْتُ أَنْ لَهَا عِنْدَ لَدَّةِ خَادِمِ ابْنِ أَبِي خَيْثَمَةَ

كَاتِبِينَ سُبُيَّاتٍ لِبَعْضِ جَوَارِيهَا ، وَلَهَا عِنْدَ ابْنِ الزَّيْتُونِيِّ الْقَرَوِيُّ أَرْبَعَةُ
آلَافٍ مِثْقَالٍ ، وَحَلِيًّا أَرْسَلْتُ فِيهِ عَلَى الْمَقَامِ : نَحْوُ خَمْسَةِ عَشَرَ عِقْدًا ؛
فَأَتَانَا الْحُلِيُّ ، فَأَتَاهَا وَأَعْطَاهُ الْقَرُورَ ، وَلَمْ تَوْخِزْ بِهِ سَاعَةً ؛ وَأَمَّا الذَّهَبُ ،
فَأَنهَا ، لَمَّا جَلَبَتْهُ مِنْ ابْنِ الزَّيْتُونِيِّ ، بَادَرَ بِهِ إِلَى السُّلْطَانِ وَتَحَمَّلَهُ لِنَفْسِهِ .

٢٠ وَكَذَلِكَ قَعَلْتُ خَادِمُ ابْنِ أَبِي خَيْثَمَةَ ، وَأَنْتِ إِلَى قَرُورٍ بِتِلْكَ الْأَسْبَابِ * ؛ ٦٤ (ب)
فَوَقَعَ إِلَيْنَا الْخَلِيبُ ، وَزَادَنَا ذَلِكَ هَمًّا أَنْ بَدَرُوا بِهِ لِلشَّرْطِ الَّذِي اشْتَرَطَ عَلَيْنَا ؛

فَأَخَذْتُ عَلَى الْقَامِ تِلْكَ التَّسْمِيَةَ ، وَأَرْسَلْتُهَا إِلَى قَرُورَ ، قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ بِنَا ؛
 قَال : « قَدْ أَخْرَجُوهُ لَنَا . فَإِيَّاكُمْ أَنْ يَبْقَى لَكُمْ شَيْءٌ عِنْدَ غَيْرِمَا ! »
 فَاسْتَفْهَمْتُ وَالِدَتِي ثَانِيَةً ، وَبَكَيْتُ لَهَا ؛ فَقَالَتْ : « مَا لِي شَيْءٌ عِنْدَ أَحَدٍ
 أَكْثَرَ ! » فَأَخَذْنَا الْمَصَاحِفَ ، وَخَلَقْنَا فِيهَا لِقَرُورَ أَنَّهُ مَا لَنَا شَيْءٌ أَكْثَرَ ،
 لَا مُودَعٌ وَلَا مَرْفُوعٌ . « فَأَعْلَمَ السُّلْطَانُ بِمَا أَقْسَمْنَا بِهِ ، وَجَعَلَ مَعَ هَذَا
 يَبْحَثُ وَيَسْتَفْصِي . فَمَا وَجَدَ لَنَا أَكْثَرَ كَمَا قَالَتِ الْوَالِدَةُ .

وَلَمَّا لَمْ يَجِدْ شَيْئًا ، أَتَانَا قَرُورَ ثَانِيَةً ، وَقَالَ : « أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ أَنَّهُ
 لَا وَدِيعَةَ لَكُمْ أَكْثَرَ . وَلَكِنْ إِيَّاكَ إِنْ يَكُونُ لَكُمْ مَالٌ مَدْفُونٌ ! »
 فَقُلْتُ : « مَا عَلِمْنَا قَطُّ بِدَفْنٍ ، وَلَا حَسَبْنَا هَذَا الْحَسَابَ ؛ وَلَا كَانَ الدَّفْنُ
 شَأْنَنَا ! وَغَيْرُ مُتَعَذِّرٍ عَلَى الْأَمِيرِ أَنْ يَحْفَرَ الْقَصْرَ كُلَّهُ ، حَتَّى يَرَى ! »
 ١٠ قَال لِي : « إِيَّاكَ بِالْمُنْكَبِ ! » فَقُلْتُ : « مَا لِي بِالْمُنْكَبِ إِلَّا شَيْءٌ مِنْ
 الْأَثَاثِ عَدَدْتُهِ لِنَزُولِي فِيهَا : جَمِيعُ ذَلِكَ يَزِمَانِي بِخَطِّ يَدِي . يُرْسِلُ فِيهِ
 الْأَمِيرُ وَيَأْخُذُ بِهِ ! » قَال لِي : « هَاتِ خَطَّ يَدِكَ بِإِخْلَاءِ الْمُنْكَبِ ! »
 فَبَادَرْتُ عَلَى الْقَامِ . وَأَصَابَ الرِّمَامُ بِالْمُنْكَبِ عَلَى الصِّفَّةِ الَّتِي وَصَفْتُ .
 ١٥ وَكَانَ الْجُنْدُ بِهَا قَدْ تَرَبَّصُوا ، وَقَامَتِ الرِّعْيَةُ ؛ فَطَلَبَ خَطَّ يَدِي بِالْإِخْلَاءِ .

وَلَمَّا صَحَّ عَنْهُ بَرَاءَتُنَا مِنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ، أَتَانَا قَرُورَ لِتَحْصِيلِ مَا بَقِيَ . وَالْعَجَبُ
 مِنْهُ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ أَنَّهُ أَتَانِي بِسِفَرٍ كَبِيرٍ ، وَقَالَ لِي : « أَقْرَأْهُ ! فَإِنَّ فِيهِ جَمِيعَ
 الْأَعْلَامِ الَّتِي رَأَى النَّاسُ لَنَا بِمُلْكِ الْأَنْدَلُسِ ، وَفِيهِ عِبَارَاتُهَا ! » وَلَا أَدرى مَا أَقْرَأُ ،
 [وَلَا أَسْمَعُ] ، أَكْثَرَ مِنْ قَوْلِهِ لِي بِهَذَا اللَّفْظِ : « لَيْسَ كَذَا هُوَ ؟ فَجِئْتَ الْأَمْوَالَ ،
 ٢٠ لَا [بَقِيَ لَكَ] مِنْهَا شَيْءٌ ! » وَلَمَّا وَقَفَ عَلَى جَمِيعِ مَا فِي الْخِطَابِ مِنْ وِطَاءٍ وَثِيَابٍ ،

رَفَعَ بِذَلِكَ كِتَابًا إِلَى الْأَمِيرِ ، وَأَعَادَ الْفَتَشَ ؛ يَجِدُ غَيْرَ مَا رَأَاهُ * أَوَّلًا . ٦٥ (١)

٧٥ — نفي الأمير عبد الله إلى المغرب الأقصى

فلما خِيرَ بما في التَّسْمِيَةِ أَنَّهُ لَا غِنَى لِلْإِنْسَانِ عَنْهُ ، سَوَّغَهُ لِنَا مَعَ ثَلَاثِمِائَةِ دِينَارٍ وَثَلَاثَ خَدَمٍ ، أَمَرَ لَنَا بِهَا ، وَأَعَارَنَا دَوَابَّ^(١) خَمْسَةَ لِفْلَافٍ الْأَثَاثِ كُلَّهُ ، وَأَمَرَنَا بِالنَّهْوضِ إِلَى الْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ ، وَقَالَ :

« تَنْتَظِرُوا بِهَا السُّلْطَانَ حَتَّى يَرِدَ عَلَيْكُمْ . » وَأَعْطَانَا مِنَ الْمُرَابِطِينَ مُسَيِّعِينَ مِّنْ يُّوئُسُنَا وَيَتَكَلَّلُ أُمُورَنَا . فَشَكَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ، وَتَحَرَّكْنَا عَلَى الْمَقَامِ ، إِذْ كَانَ الْحَفَرُ مِنْهُ فِي ذَلِكَ شَدِيدًا .

وَكُنَّا طَوْلَ طَرِيقِنَا جَارِعِينَ ، لَا نَدْرِي مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ بَنَا ، وَلَا مَا الْإِشَارَةُ فِينَا . وَلَقَدْ كُنْتُ أَرَى الْمُرَابِطِينَ يَنْزِلُونَ بِمَنْزِلٍ ، أَوْ يَحْتَلُّونَ فِي مَوْضِعٍ ، فَأَقُولُ : « إِنَّ ذَلِكَ لَشَيْءٌ أَمْرُوا بِهِ ! » فَكُنْتُ طَرِيقِي ذَلِكَ تَحْتَ جَنْعٍ وَهَلْعٍ ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُكَفِّرَ بِهَا السَّيِّئَاتِ ، رِيحُهَا آخِرَ مَصَابِينَا بِعَرْزَتِهِ ؛ إِلَى أَنْ وَصَلْنَا الْجَزِيرَةَ .

فَأَرْسَلْنَا إِلَى سَبْتَةَ ؛ وَدَخَلْنَا الْبَحْرَ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ، أَذْرَكْتْنَا فِيهِ أَهْوَالَ لَمْ نَكُنْ نَسْلَمُ مِنْهَا إِلَّا بِالْأَجَلِ الَّذِي لَمْ يَحْضُرْ ؛ حَتَّى خَرَجْنَا إِلَى سَبْتَةَ ، بَعْدَ أَنْ قِيلَ لَنَا : « فِيهَا تَنْتَظِرُوا الْأَمِيرَ ! » كَمَا قِيلَ عَنِ الْجَزِيرَةِ . فَرَادَنَا ذَلِكَ قَلَقًا .

ثُمَّ قُلْنَا إِلَى مَكْنَسَةِ الزَّيْتُونِ . وَتَلَقَّانَا الْأَمِيرُ سِيرًا ، وَأَنْسَأَ ، وَأَخْبَرَنَا أَنَّ مُقَامَنَا عِنْدَهُ إِلَى أَنْ يَرِدَ السُّلْطَانُ مِنَ الْأَنْدَلُسِ . وَأَرْسَلَ إِلَيْنَا مِائَةَ دِينَارٍ . وَعِنْدَ حُلُولِنَا بِهَا ، أَبْقَيْنَا بِالْمَقَامِ فِيهَا . وَبَقَيْنَا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ، قَدِ

(١) أصل : دواباً .

فَقَدَّ مَا كَانَ بِأَيْدِينَا ، وَأَحْوَجْنَا إِلَى بَيْعِ ثِيَابِنَا الَّتِي تُرِكَتْ لَنَا بَعْدَ أَنْ
اسْتَحْذَوْا قَرُورَ وَحَاسِيَّتَهُ عَلَى أَكْثَرِهَا (فَكُلُّ يَدٍ وَمَا نَهَبَتْ !) ، لَمْ
يَتْرَكُوا لَنَا إِلَّا مَا لَا نَظَرَ لَهُ عَلَى نِزَارَةِ مَا أُبْقِيَ . وَالسُّلْطَانُ — أَيْدُهُ اللهُ ! —
غَافِلٌ عَنْ ذَلِكَ ، لَمْ يُمْكِنِ الشُّكْوَى إِلَيْهِ ، إِذْ كَانَ قَرُورٌ وَاسِطَةً ، وَمَا كُنْتُ
أَتَشَقَّى مِنْ ذَلِكَ أَكْثَرَ .

وَمِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ أَنَّهُ ، عِنْدَ حُلُولِي بِمَكْنَسَةِ ، [كَتَبَ إِلَيَّ] يَقُولُ
لِي : « أَخْبِرْنِي عَنِ الْخَاتَمِ الَّذِي خَرَجْتَ بِهِ ! » [وَقَدْ كُنْتُ] أَخْرَجْتُهُ
مِنْ إصْبَمِي وَبَعْتُهُ بِعَشْرَةِ دِينَائِرٍ ؛ فَرَأَيْتُهُ نَعْلَهُ* بِحَاجَتِي إِلَى كَمَنَةٍ . وَإِنَّمَا ٦٥ (ب)
أَرَادَ أَخْذَهُ لَثَلًا يُبْقَى لَنَا شَيْئًا ، وَيَنْقُصُ الْجَمِيعَ ؛ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ
لِي غَيْرُهُ . ١٠

ثُمَّ إِنَّهُ وَافَانِي مِنْ عِنْدِ السُّلْطَانِ ثَلَاثُمِائَةِ دِينَارٍ أُخْرَى ، وَأَنَا بِمَكْنَسَةٍ ؛
وَخَاطَبَنِي بِكِتَابٍ يَمْدُنِي بِكُلِّ جَمِيلٍ ، وَيَقُولُ لِي : « لَا أُنْسَاكَ مَا بَقِيَتْ »
فَسَرَّنِي ذَلِكَ — أَحْسَنَ اللهُ جَزَاءَهُ ! — ؛ فَلَقَدْ كَانَ أَرْفَقَ بِي بَعْدَ اللهِ
مِنْ كُلِّ أَحَدٍ . وَأَعْلَمْتَنِي أَنَّهُ ، إِذَا وَرَدَ مَرْثُوكُش^(١) ، أَكُونُ مَعَهُ حَيْثُ
مَا كَانَ ، إِكْرَامًا لَنَا وَإِنْشَارًا . فَمَلِمْتُ أَنِّي مُنْقَلَبٌ عَنْ مَكْنَسَةِ ، إِلَّا أَنْ
الرُّوعَ كَانَ أَفْتَرَ ، إِذْ لَمْ يُمْكِنَ أَنْ تُؤَخَّرَ الْعُقُوبَةُ إِلَى ذَلِكَ الْأَمَدِ . وَقَرُورٌ ،
مَعَ هَذَا ، لَا يَدْعُ طَلَبِي عِنْدَ السُّلْطَانِ ، عَلَى إِحْسَانِي إِلَيْهِ ، حَبِيلَةً قَدْ جَبَلَهُ اللهُ
عَلَى بُغْضِي ، مَعَ قَلَّةِ رَحْمَتِهِ ، وَقِسَاوَةِ قَلْبِهِ ، وَدَنَاءَتِهِ وَلَوْ مِهِ .

(١) راجع أعلاه ص ١٢٥ .

٧٦ - عزل الأمير تميم صاحب مالقة وأخى عبدالله . ففيه

وَبَلَّغْنَا فِي طَرِيقِنَا ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ ثِقَافِ أَخِينَا نَعِيمٍ بَعْدَنَا ، وَأَنَّهُ ،
لَمَّا كَانَ فِي مَدَّةِ كَوْنِنَا بِفَرْنَاطَةَ لِإِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ ، وَتَحَنُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ
مُرْقَبِينَ فِي الْخِلَاءِ ، كَانَ تَمِيمٌ الْمَذْكُورُ يَزُورُنَا ، وَيَتَكَدَّرُ عَلَيْنَا الَّذِي يَلْزِمُ
مِنْ حُبِّ الْقَرَابَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ . وَكَانَ قَرُورٌ ، فِي هَذَا كُلِّهِ ، يَرْمِقُهُ بِبَصَرِهِ ،
وَيَمْتَقِدُ فِي نَفْسِهِ لَذَلِكَ شَرًّا ؛ وَصَوَّرَ عِنْدَ السُّلْطَانِ أَنَّ مَا لَا أَخْرَجْنَاهُ مِنْ الْمَالِ
مَوْدُوعٌ عِنْدَهُ ، لَيْسَلِمَ لَنَا بِسَلَامَتِهِ ، مَعَ مَا زِيدَ فِيهِ مِنَ الطَّلَبِ ، أَنَّ قِيلَ
لِلْأَمِيرِ : « تَقَفْتَ صَاحِبَ غَرْنَاطَةَ ؛ وَأَخُوهُ مِنْهُ ! وَإِنْ تَرَكْتَهُ يَنْصَرِفُ
إِلَى بِلَادِهِ ، طَلَبَكَ بِالنَّارِ ، وَأَفْسَدَ عَلَيْكَ مَا تَرْجُو صِلَاحَهُ ، مَعَ شَرِّهِ وَحَدَّثِهِ !
فَهُوَ بِذَلِكَ مَرْسُومٌ مَعْرُوفٌ ! فَعَاجِلٌ بِتَقَافِهِ ، يُصْنِفُ لَكَ مَا تَوْمَلُ ! »

وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ ، عَلَى مَا أَعْلَمُنِي أَخِي الْمَذْكُورُ ، قَدْ أَنْسَهُ السُّلْطَانُ ،
وَوَعَدَهُ بِصَرْفِ بِلَادِهِ إِلَيْهِ الَّتِي صَارَتْ إِلَيَّ ، وَقَالَ لَهُ : « لَسْتُ مِنْ
أَخِيكَ [بِالسُّوُلِ ؛ وَأَنْتَ أَظْهَرْتَ لِي] الطَّاعَةِ ، وَأَجَلْتَ الْمُعَاشِرَةَ ،
وَإِنَّكَ أَوَّلُ مَنْ ضَرَبَ الدَّرَاهِمَ [الْمُرَابِطِيَّةَ] . وَالْآنَ نَسْتَحْمِدُ عَاقِبَةَ رَأْيِكَ ،
وَنَجْعَلُ لَكَ بِتِلْكَ الْمَزِيَّةِ عَلَى أَقْرَانِكَ ! » فَطَمَعَ الصَّبِيُّ بِذَلِكَ ، وَشَرِهَ إِلَيْهِ :
كُلُّ ذَلِكَ خِذْلَانٌ [اغْتَرَّ بِهِ] * مُلُوكُ الْأَنْدَلُسِ ، وَأَسْعَدُ مِنْ أَجَلِهِ الْمُرَابِطُونَ ؛ ٦٦ (١)
فَعَمِيَّتِ الْبَصَائِرُ ، وَقَوِيَّتِ الشَّهَوَاتُ ، وَامْتَدَّتِ الْأَمَالُ بِحَيْثُ يَبْتَغِي لَهَا
أَنْ تَقْصُرَ .

فَلَمَّا هَمَّ بِهِ ، أَخَذَ فُجْأَةً لَثَلًا يَشْعُرُ ، فَيَغِيبُ الْمَالُ الَّذِي أَتَاهُمْ بِهِ ،
وَيَفِرُّ . وَنَالَ مِنْ قَرُورٍ هَوَانًا كَثِيرًا ؛ وَلَمْ يَتْرِكْ لَهُ مَسْطَقًا ؛ وَبِعَتْ أَسْبَابُهُ

في موضع محلته : قِيمَ لها قِيمٌ سُوقٌ . وألقى في الحديد ، وأمر به إلى
 السُّوس . ولما كان طريقه على مكناسة ، لَقَيْنَاهُ ؛ فَأَخْبَرَ بِهِوْلَ مَا قَامَ ،
 وَبَصُرْنَا بِهِ ، وهو على تلك الحال قد شقَى بِالْكَبْلِ لِعَظْمِهِ ، لا يقدر أن
 يتحرك به . فأوجب ذلك ما وُصِمَ به من الشرِّ ؛ وَأَنَّ أَهْلَ مَالَقَةِ رَفَعُوا إِلَيْهِ
 هـ حِينَئِذٍ أَفْصَالًا قَبِيحَةً ، وَأَبَاذِي سَيِّئَةً أَسَدَاهَا إِلَيْهِمْ ، على ما ذُكِرَ ؛ فَاتَّفَقَتْ
 الْأَسْبَابُ . فلم يُرِدِ الْأَمِيرُ أَخْذَهُ إِلَّا بَيِّنَةً ؛ إلى أن وصل السُّوسَ ،
 ووَصَّى بِهِ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى بَزْلَفَ ، وبَالَغَ فِي إِكْرَامِهِ . وكان معه في عَافِيَةٍ
 وَرَعْدٍ مِنَ الْعَيْشِ . وفوض أمره إلى وُلاَةِ السُّوسِ بعد بَزْلَفَ .

الفصل الحادي عشر

عزل بقية ملوك الطوائف ومصيرهم بعد ذلك

٧٧ — موقف ملوك الطوائف أثناء الحملة على غرناطة

وَحَانَ انصرافُ أمير المسلمين إلى بلاده بِالْعِدْوَةِ ، بعد أن أَكْمَلَ ما شاءَ من أمرِ بني عُبَّادٍ وصاحبِ الرِّبَةِ :

وَنَحْنُ ذَاكِرُونَ منها ما بَلَقْنَا منها ، بِمَا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ ، لا بِتَخْلِيَطِ النَّاسِ ؛
وَنُخْتَصِرُ مِنَ الوَصْفِ ما يُغْنِي عَنْهُ الْإِكْثَارُ : فَإِنَّهَا أُمُورٌ لَمْ نَشَاهِدْهَا ، فَتُخْبِرَ
عَنْ يَقِينٍ وإِطْنابٍ ؛ ولا غَابَتْ عَنَّا كُلُّ الغِيَابِ ، فَجَهَلْ مَصْدَرَهَا
وَمَوْرِدَهَا ، أَنَّ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ أَشْغَلُ وَأَكْرَبُ مِنَ التِّفَاتِ ما حَدَثَ
بَعْدُنَا لِقَلَّةِ المَبَالَةِ بما لا يَنْتَبِهُنَّ مِنْهَا ، وَلِشُغْلِ خَوَاطِرِنَا بِمَا دَهَيْنَا بِهِ ، عَلَى أَنَّ
ذِكْرَ ما سَمِعَ ، وَنَحْنُ قَدْ أَمِينًا مِنَ الْمَوْتِ ، أَيْسَرُ مِنْ ذِكْرِ ما عَيْنَاهُ ،
وَنَحْنُ جَازِعُونَ مِنْهُ . فَحَقٌّ لَنَا أَنْ نَذْهَلَ عَنْ عِلْمِ جَلِيلَتِهِ بِالْمَعَانِيَةِ ، وَعَنْ
وَصْفِهِ بعدَ الْأَمَانِ ؛ فَإِنَّهُ مِنْ ذِكْرِ الْهَوْلِ ، فَكَأَنَّهُ فِيهِ .

وقد كان أمير المسلمين ، قَبْلَ تَجَبُّئِهِ إِلَى غرناطة ، قد وَعَدَ الْمُعْتَمِدَ
بِهَا . ، وقالَ لَهُ : « أَنَا رَجُلٌ مَغْرِبِيٌّ ؛ وَلَيْسَ قَدَمَتِي أَخْذُ مَالٍ وَلَا

بلاد! * وقد ترى ما رُفِعَ على صاحب غرناطة؛ وتوقع عليها من الروى. وليس ٦٦(ب)
غَرَضِي أَكْثَرَ مِنْ تَخْلِيصِهَا ؛ فَإِذَا صَارَتْ فِي يَدِي ، وَلَا يُمَكِّنُنِي إِنْسَاكُهَا
لِإِبْنِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْعِدْوَةِ ، وَضَعْتُهَا عِنْدَ ذَلِكَ فِي يَدِكَ : فَتَكُونُ أَعْلَمَ
بِمَا تَصْنَعُ بِهَا ، وَأَقْعَدَ لِمَا يُصْلِحُ لِلسُّلَمِيِّينَ . »

٥ فَلَمْ يَشْكُ الْمُعْتَمِدُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْهُ كَأَنَّ : وَعَمِلَ حَسَابًا آخَرَ أَنْ قَالَ
فِي نَفْسِهِ : « إِنْ لَمْ يَهَيِّأْ لَهُ أَخَذُهَا بِقَعْدِ صَاحِبِهَا عَنِ الْخُرُوجِ إِلَيْهِ ، فَلَيْسَتْ
يَمَّا تَوَخَّذُ مِنْ وَقْعَةٍ وَاحِدَةٍ ! سَتَنْجَرُّ الْحَالُ مِنْ أَجْلِهَا ، وَتَشِيخُ عَلَيْهَا
لِلْحَلَّاتِ ، كَمَا صُنِعَ بِبَلِيَّيْتُ ؛ وَتَدْخُلُ الشَّتْوَةُ ، فَيَحْتَاجُ إِلَى الْإِنْصِرَافِ ، وَتَبْقَى
هَذِهِ الْمَاقِلُ الَّتِي طَاعَتْ لِلْأَمِيرِ أَوْ كُنْ زَعِيمَهَا . وَفِي خِلَالِ مَا يَتْلَوْنِ أَمْرُ
١٠ غَرْنَاطَةَ ، اخْتِيجَ إِلَى ، وَكَانَ لِي بِذَلِكَ الصَّوْلَةُ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ ، وَلَا نُنْخَلِي
مِنْ بَرَكَتِهَا ! »

وكان الحبيبُ إليه أن تثبقي على ما ذكرناه ، إذ لا يعلم ، عند حصوله
عليها ، ما تكون قرعته معه ، كالذي كان . وسكت عني في الأمر ؛ ولم
يُبرِ الانكشاف بسرّه إلى رئيس يفسى عليه ، غير رُموزات ، إذ ذاك
١٥ لا تنفع . ولو قال لي : « ائْتَسِكْ ! » فَأَنَا أَحْوَطُ عَلَى حَالِي ، أَوْ :
« اخْرُجْ ! » لَمْ أُطِعهُ مَا تَهْمُهُ ؛ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُعْطِنِي تَقْوِيَةً ، فَيَنْتَضَحَ
عِنْدَ الْمُرَابِطِ . إِنَّمَا كَانَ صَنَعُ الْأَمِيرِ أَنْ يُطَّلِعَ وَيَرَى ، عَمَى يَهَيِّأْ لَهُ فِي النِّصْبَةِ
شَيْءٌ ، أَوْ يَسْلَمَ مِنْ مَعْرِتِهِ ؛ قَدْ تَنَشَّبَ ، وَلَمْ يَجِدْ مَحِيصًا غَيْرَ مَا كَانَ بِسَبِيلِهِ .
وَكَذَلِكَ ابْنُ الْأَفْطَسِ مَعَهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ . وَصَاحِبُ الْمَرِيَّةِ فِي الْمَرِيَّةِ
٢٠ لَمْ يَتَحَرَّكْ : كُلُّ أَحَدٍ مِنْهُمْ إِلَى مَا يَقْضِي مِنْ أَمْرِ غَرْنَاطَةَ ؛ قَدْ أَبْهَتَهُمْ
أَمْرُهَا . وَأَقْلَقَهُمْ .

ولما بصرتُ تَأْلَبَهُمْ عَلَىَّ مع الأمير، خَاطَبْتُ كُلَّ واحدٍ منهم بِكِتَابٍ
أَقُولُ لَهُمْ : « هَذَا الْأَمْرُ مُنْجَرٌّ إِلَيْكُمْ ! وَالتَّيَوْمَ بِي وَغَدًا بِكُمْ ! » فلم
يُمْكِنُ قِرَاءَةُ الْكُتُبِ دُونَهُ ، وَعَرَضُوهَا عَلَيْهِ . فَخَنَقَ عَلَىَّ ؛ وَكُتِبَتْ
الْأَجُوبَةُ بِإِمْلَائِهِ ، يَقُولُونَ : « إِنَّمَا تُرِيدُ أَنْ تَلْطَخُنَا بِأَفْعَالِكَ ، * وَنَحْنُ قَدْ
بَرَّأْنَا اللَّهَ مِنْهَا ! » وما أشبه ذلك من الوعيد والتذنيب : فِئْلٌ مِنْ قَدْ
وَحِلَّ ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى أَكْثَرِ مَا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ ، مَعَ الطَّمَعِ وَغَمِّ الْبَصَائِرِ ،
كَما وَصَفْنَا قَبْلَ : ٥

وَكَانَ رُسُلُهُمْ إِلَيَّ قَبْلَ ذَلِكَ يَحْمِضُونِي عَلَى الْإِمْتِسَاكِ وَالتَّجَلُّدِ . وَقَالَ
ابْنُ الْأَفْطَسِ : « أَنَا أَعْتَذِرُ عَنْهُ ! » وَلَمْ يَرَوْا كَتَبَ كِتَابٍ خَوْفًا مِنْ
١٠ أَنْ يَكُونَ ظَهِيرًا عَلَيْهِمْ ، غَيْرَ إِهْدَاءٍ ذَلِكَ عَلَى الْأَلْسِنَةِ . فَعَلْتُ أَنَّهُمْ قَوْمٌ
قَدْ اسْتَلَمُونِي إِلَى طَائِقَتِي ؛ فَإِنْ كَانَتْ لِي ، لَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهِمْ دَاخِلَةً ؛ وَإِنْ
كَانَتْ عَلَىَّ ، لَمْ يُفْسِدُوا وَجُوهَهُمْ مَعَ الرُّابِطِ ؛ وَحَسْبُهُ اجْتِهَادُهُمْ مَعَهُ
بِأَنْفُسِهِمْ وَرِجَالِهِمْ .

فَرَأَيْتُ حَالِي فِي هَذَا كُلِّهِ تَالِفَةً ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ ، طُولَ مَدَّةِ امْتِسَاكِ
١٥ لَوْ امْتَسَكْتُ ، لَكَانَ سُلَاطِينُ الْأَنْدَلُسِ أَجْمَعُ مُتَأَلِّبِينَ عَلَى فِتْنَتِي مَعَ رَعِيَّتِي ،
لِئَمَا يَلْزَمَهُمْ مِنَ الطَّاعَةِ لِلرُّابِطِ وَالطَّمَعِ ، عَسَى يَحْصُلُ لِأَحَدٍ مَزِيدٌ فِي بِلَادِهِ ،
وَلَا تُمْكِنُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ مَعُونَتِي وَلَا الْاسْتِفْسَادُ مِنْ أَجْلِي . فَتَحَنُّنٌ لَمْ يُعَيْنَ
بَعْضُنَا بَعْضًا عَلَى الرُّوحَى ! فَكَيْفَ عَلَى الْمُسْلِمِ ، مَعَ حَرْبِ الْكَانُونِ وَرِقَامِ
أَهْلِ الْبَيْتِ ! هَذَا مَا لَا طَاقَةَ بِهِ لِمَنْ عَقَلَ ! وَلَمْ نَظُنْ نَحْنُ أَنَّ الْأَمْرَ يَنْفَتِقُ
٢٠ إِلَى هَذَا كُلِّهِ ، وَلَا نُمَاجِلُ هَذِهِ الْمُعَاجَلَةَ . وَلَوْ عَلِمْنَا ذَلِكَ ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ
يَقْدِرُ مِنِّي إِلَى الْخُرُوجِ إِلَيْهِ ، إِذَا مَا سَوَى ذَلِكَ عَلَى هَذِهِ الرِّتْبَةِ لَا يَنْفَعُ .

وإنّا طَمَعْنَا بِمَا قَصَصْنَاهُ قَبْلُ ، وَحَسْبُكَ !
 وإنه، لَنَّا آَلَتُ الْحَالُ إِلَى مَا لَمْ يُجَزَّ عَلَى قِيَاسٍ ، خَرَجْنَا إِلَيْهِ ، وَلَمْ نَلْتَوِ سَاعَةً .

٧٨ — حركات المُرابطين على المَرِيَّة

وَلَمْ يُقَدِّمَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا ، وَقَتَ خُرُوجِي إِلَيْهِ ، عَلَى إِرْسَالِ جَيْشٍ
 ٥ إِلَى صَاحِبِ الْمَرِيَّةِ ، قَبْلَ ابْنِ عَبَّادٍ ، إِذْ كَانَ يَتَخَلَّفُهُ مَوْسُومًا بِالنِّفَاقِ ، وَلِأَنَّهُ
 مُعَاقِدِي عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنْ تَحْمِلُهُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ اتِّفَاقٍ .

فَلَمْ يُجَرِّكْ مِنْهَا مَوْضِعًا إِلَّا وَأَجَابَ . وَتَنَاقَرَتِ مَعَاوِلُهُ أَجْمَعُ ، حَتَّى بَلَغَ
 الْعُسْكَرُ إِلَى بَابِ الْمَرِيَّةِ . وَكَانَ الرَّجُلُ — رَحِمَهُ اللَّهُ — سَاعَةً وَرُودَ الْخَبَرِ
 عَلَيْهِ بِمُخْرُوجِنَا ، انْطَبَقَ لَهُ ، وَاعْتَلَّ لَمَّا رَأَى مِنْ هَوْلِهِ وَسُوءِ عَاقِبَتِهِ . وَقَضَى
 ١٠ عَلَيْهِ وَصُولَ الْعُسْكَرِ إِلَى الْبَابِ ، وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ؛ فَأَقْرَعَ لَهَا وَمَاتَ .

* وَوَلَّى بَعْدَهُ ابْنُهُ مُعِزُّ الدَّوْلَةِ ، النَّاهِضُ إِلَى قَلْعَةِ حَمَّادٍ عَلَى مَا نَصَفَهُ بَعْدَ هَذَا . ٦٧ (ب)
 وَقَدْ كَانَ ، لَمَّا رَأَى مِنْ طَلَبِ [الْمُرَابِطِ لِبِلَادِهِ] ، قَدْ وَجَّهَ إِلَيْهِ ابْنَهُ
 الْآخَرَ ، يَعْظُهُ وَيُعَلِّمُهُ بِوَجْهِ الْحَقِّ فِيهِ ، إِذْ كَانَ يَنْتَحِلُ قِفْهًا ؛ وَذَلِكَ مِمَّا
 ذَكَرْنَا مِنْ قَلَّةِ الْمَيِّزِ بِالْأَحْوَالِ ، إِذْ يَرَى هَذِهِ الْأُمُورَ مُشْتَعَلَةً ، وَيَطْمَعُ
 ١٥ إِطْفَاءَهَا بِالْوَعظِ ! فَسَاعَةً وَصُولَهُ ، أَمَرَ الْأَمِيرُ بِثِقَافِهِ عَلَى الْمَقَامِ فِي الْحَدِيدِ . وَتَحْمِيلِ
 أَبَوَيْهِ فِي انْطِلَاقِهِ ، حَتَّى انْصَرَفَ إِلَيْهِ فَارًّا مِنَ الْمُرَابِطِ : اخْتَلَسَهُ مِنْ مَوْضِعِهِ
 رَجُلٌ لَهُ شَبَابُكَ ، قَذَفَ بِهِ فِي الْبَحْرِ حَتَّى سَلِمَ إِلَى وَالِدِهِ .

وَفَرَّ الطَّلَبُ عَلَى الْمَرِيَّةِ لِلشَّغْلِ بِمَا حَدَثَ بِأَمْرِ ابْنِ عَبَّادٍ ، وَأَنَّهُ أَوْكَدَ
 الْأَشْيَاءَ . وَإِنَّ ابْنَ صُمَّادِجَ ، لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ ، وَصَّى ابْنَهُ هَذَا الْمُسْتَخْلَفَ ،
 ٢٠ وَقَالَ لَهُ : « أَمْتَسِكْ فِي هَذِهِ الْقَصْبَةِ طَوْلَ مَقَامِ ابْنِ عَبَّادٍ فِي مُلْكِهِ

إِشْبِيلِيَّةَ مَا اسْتَطَعْتَ ! فَإِنْ رَأَيْتَ ابْنَ عَبَّادٍ قَدْ خَرَجَ ، فَلَا تَتَرَبَّصْ سَاعَةً وَاحِدَةً ، وَأَنْجُ بِنَفْسِكَ إِلَى الْقَلْعَةِ ، وَأَدْخُلِ الْبَحْرَ بِمَا قَدَرْتَهُ عَلَيْهِ مِنْ ذَخَائِكَ ، إِذْ لَا مَطْمَعَ لَكَ فِي الْبَقَاءِ بَعْدَهُ ! »

٥ خَفِظَ وَصِيَّةَ أَبِيهِ ؛ وَسَاعَةً مَا انْقَضَى فِي إِشْبِيلِيَّةَ مَا انْقَضَى ، تَخَيَّرَ قِطْعَةً أَشْحَنَ فِيهَا جَمِيعَ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ مِنْ ذَخَائِرِهِ ، وَكَمَّ أَمْرَهُ ، وَخَرَجَ بِاسْمِ أَنَّهُ نَاهَضٌ إِلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِهَدِيَّةٍ لِيَهْدِنَا بِذَلِكَ أَهْلَ الْوَلَدَةِ ؛ فَسَرُّوا بِفِعْلِهِ ، وَقَالُوا : « هَذَا هُوَ الصَّوَابُ ، قَبْلَ أَنْ يَجْلَّ بِكَ مَا حَلَّ بِفِيكَ ! » حَتَّى تَوَسَّطَ الْبَحْرَ ، وَأَعْطَى لِلنَّوَاتِيَّةِ مَا لَا جَسِيَاءَ ، وَأَخْبَرَهُمْ غَرَضَهُ . وَخَرَجَ بِالْجَزَائِرِ ، وَأَكْرَمَهُ صَاحِبُ الْقَلْعَةِ ، وَأَمَّنَهُ فِي ذَخَائِرِهِ ، وَأَكْرَمَ ضِيَاقَتَهُ ، وَخَيَّرَهُ حَيْثُ يَحِبُّ السُّكْنَى ؛ فَاخْتَارَ تَدَلَّسَ ، لِأَنَّهَا عَلَى الْبَحْرِ ، وَلِيَغِيبَ عَنِ عَيْنِ السُّلْطَانِ ، خَوْفًا مِنَ الْطَلَبِ . وَانْخَلَّ فِي ذَاتِهِ ، وَآخَذَ لِنَفْسِهِ بِالْأَرْجَحِ فِي أَكْثَرِ أَحْوَالِهِ .

٧٩ - تَوَثَّرَ الْعَلَقَاتُ بَيْنَ الْأَمِيرِ الْمُرَابِطِيِّ وَالْمُعْتَمِدِ

وإِنَّ الْمُعْتَمِدَ بْنَ عَبَّادٍ ، لَمَّا بَصَرَ بِدُخُولِ الْأَمِيرِ غَرْنَاطَةَ ، وَأَسْتَنْجَزَ وَعْدَهُ ، فَلَمْ يُلْتَفِتْ ، وَرَأَى ثِقَافَهَا بِالْمُرَابِطِينَ وَإِخْرَاجَ مِنْ فِيهَا مِنَ الْحَشَمِ وَكُلِّ مَنْ طَمَعَ بِالْبَقَاءِ عَلَى حَالِهِ ، جَزَعَ جَزَعًا شَدِيدًا ، وَخَافَ أَنْ يَثْنَى بِهِ ، إِذْ رَأَى الْأَمِيرُ مَذْهَبَهُ فِي الْبَلَادِ وَاسْتَصْرَاحَهُ . * وَلَمْ يُمْكِنَ لِلْأَمِيرِ أَنْ يَأْخُذَهُ بِغَيْرِ ذَنْبٍ : ٦٨ (ب) فَيَقْبَحُ ذِكْرَهُ . وَأَشَارَ إِلَيْهِ الْمُرَابِطُونَ بِثِقَافِهِ ؛ فَأَبَى حَتَّى يُلَوِّحَ قَبْلَهُ ذَنْبًا يُوْخِذُ بِهِ . ثُمَّ إِنَّهُ ، بَعْدَ أَنْ نَهَضَ وَاتَّبَعَهُ قَرُورٌ يَقُولُ لَهُ : « الْأَمِيرُ يَحْتَاجُ إِلَى تَذْكَارِكَ بِمَعْضِ الْأَمْرِ ! » فَأَبَى ، وَمَضَى لَوَجْهَتِهِ ، فَارًّا بِنَفْسِهِ ؛ وَأَطْوَى الْمَرَاحِلَ ، حَتَّى وَصَلَ قَرْطُبَةَ . وَقَالَ فِي طَرِيقَةِ إِلَى ابْنِ الْأَفْطَسِ : « أَنْجُ

بَنَفْسِكَ ! قَدْ تَرَى مَا حَلَّ بِصَاحِبِ غَرْنَاطَةِ ، وَغَدَا بَنَا ! »
 نَمَّ إِنَّهُ ، بَعْدَ أَنْ ظَهَرَ لِلْأَمِيرِ نُفُورُهُ ، وَجَّهَ إِلَيْهِ بِأَمْرِهِ بِالْقُدُومِ عَلَيْهِ ،
 وَيَقُولُ لَهُ : « تُرِيدُ الْاجْتِمَاعَ بِكَ فِيمَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ . » : لِيَقُولَ : « لَا ! »
 فَيَجِدَ السَّبِيلَ ، كَمَا فَعَلَ . فَرَاجَعَهُ ابْنُ عَبَّادَ : « إِنْ ذَلِكَ كَانَ وَقْتُ
 ٥ كُنْتُ ضَيْفًا ، وَتُرِيدُ الْغَزْوَ ؛ فَلَزِمْتَنِي مَعُونَتِكَ بِنَفْسِي وَجَمِيعِ أَمْوَالِي ! وَالْآنَ
 إِنَّمَا أَنْتَ لِي جَارٌ مِثْلُ بَادِيَسٍ وَحَنِيدِهِ ؛ وَأَنْتَ أَقْدَرُ مِنِّي عَلَى الشَّرِّ بِجُنُودِكَ !
 فَلَا يُمْكِنُنِي التَّغَرُّبُ بِنَفْسِي ، عَسَى أَنْكَ تُرِيدُ أَخْذَ بَلَدِي ، إِذْ لَا تَصِحُّ لَكَ
 غَرْنَاطَةُ إِلَّا بِمَا يُضَافُ إِلَيْهَا مِنَ الْأُنْدَلُسِ ! » فَشَرَطَ عَلَيْهِ أَمِيرُ السُّلَيمِ أَنْ
 يَلْزِمَ الرِّبَاطَ ، وَيَقْطَعَ الْقَبَالَاتَ ؛ وَتَحْمُلًا كَثِيرًا عَمَّا أَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ ؛ وَفِي تَرْكِهِ
 ١٠ أَوْ فَعَلَهُ قَطْعُهُ . فَامْتَنَعَ ابْنُ عَبَّادَ جَهْدَهُ ، وَبَنَى عَلَى الشَّرِّ .

وَبَدَأَ [الْمُرَابِطُ] بِمُدَاخَلَةِ مَعَاقِلِهِ ؛ فَانْتَشَرَتْ ، كَمَا جَرَى لغيرها ؛ وَقَامَتْ
 عَلَيْهِ الرِّعَايَا بِكُلِّ قَطْرِ . فَأَرْسَلَ إِذْ ذَاكَ إِلَى الرُّومِيِّ ، يَسْتَعِيثُ بِهِ ؛ فَقَعَدَ عَنْهُ ،
 خَيفَةً مِنَ التَّغَرُّبِ ، وَهِيَ حُجَّةُ أَمِيرِ السُّلَيمِ عَلَى ابْنِ عَبَّادَ ، أَنْ قَالَ لَهُ :
 « ظَنَنْتُ بِكَتِّبِكَ إِلَى الرُّومِيِّ وَإِسَالِكَ عَنْهُ ! » فَقَالَ الْمُتَعِيدُ : « لَوْ قَعَلْتَهُ
 ١٥ قَبْلَ أَنْ تُؤْخَذَ بِلَادِي بَطْرًا وَأَشْرًا ، كُنْتُ أَلَامٌ ! وَأَمَّا بَعْدَ أَنْ رَأَيْتُ
 طَلَبِي فِي الرُّوحِ ، اضْطَرَرْتُ لِلضَّرُورَةِ إِلَى ذَلِكَ لِلدُّفَاعَةِ ، وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا ! »
 وَهِيَ كَانَتْ عِلَّةَ الْجَمِيعِ ؛ وَبِذَلِكَ هَلَكَ ابْنُ الْأَفْطَسِ ، وَمِنْهُ أُنِيَ .

٨٠ — الْاسْتِيلَاءُ عَلَى قَرْطُبَةَ وَإِشْبِيلِيَّةَ وَتَقَى ابْنُ عَبَّادَ

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لِلْأَمِيرِ خِلَافُهُ وَقُومُودُهُ عَنْهُ ، شَاوَرَ الْقَهَّاءَ فِي أَمْرِهِ ؛ فَأَشَارُوا
 ٢٠ عَلَيْهِ بِغَزْوِهِ . فَكَانَ غَزْوُهُ بَعْدَ إِبْلَاءِ عُذْرٍ ؛ وَلِهَذَا مَا أُخِرَ ^(١) بِهِ لِإِيْلِكَ

(١) أصل : « وبخر » .

من هلك عن سِنَّةٍ ولتكون له الحُجَّةُ على من يُريدُ إخراجَه . فأمرَ الأميرُ
سير* بالخروج إليه . ونَهَضَ ، ونَحْنُ يَمْكِنَانِ . ونازلهُ مُدَّةً طَوِيلَةً ؛ ٦٨ (ب)
ومَعَاظِلُهُ قد ذهبَ أَكْثَرُهَا بالطاعة .

٥ وافتتح الأميرُ بِجَلالِ هذا مدينةَ قُرْطُبَةَ ، واستشهدَ فيها ابنُه للأُمونِ
ووزيراهُ ابنُ زَيْدُونِ وابنُ بَكْرٍ — رحمهم الله — بِمُدَاخَلَةٍ من أَهْلِ
الْبَلَدِ ، مع انخراقِ المدينة ، وأنَّه لم يَمَكُنْ ضَبْطُهَا إِلَّا بِأَهْلِهَا . وكانَ الْمُعْتَمِدُ
حَذِرًا على قُرْطُبَةَ ، يرجو بقاءَ حاله بَثْبُوتِهَا ، ويوصي ابنَه بالصبرِ ، ويقولُ
له : « لا تجزع ! فإلَّوْتُ أَهْوَنُ من الذَّلِّ ! وَلَيْسَ السُّلْطَانُ إِلَّا من
الْقَضَرِ إِلَى الْقَبْرِ ! »

١٠ فَلَمَّا أُخِذَتِ قُرْطُبَةُ ، انقطعَ الرجاءُ . وضاقَتِ إِشْدِيدِيَّةٌ ؛ وفقد ما كانَ
بيده من أَجْلِ النِّفَقَاتِ ، إلى أن دخلها الأميرُ سيرُ عُنُوتَ بِمُدَاخَلَةٍ من بَعْضِ
أَهْلِهَا . وهلكَ فيها عَالَمٌ ، وانكشفَ الْحَرَمُ ، إِذْ لِلجَيْشِ مَعَرَّةٌ لا تُمَلِّكُ
بَعْدَ صَبْرِهِمْ على مَلِكِهِمْ . وظهرَ لِسِيرٍ من اجتهدهم في القتالِ ما أعجبه
ذلك ، وقال : « لو أَنِّي أَقْصَدُ ^(١) مدينةَ الشُّرَكِ ، لم تَمْتَنِعَ هذا
الْأَمْتِنَاعُ ! »

٢٠ وكانَ دُخُولُهَا من ناحيةِ الوادِي ، وهو أَسهَلُ الْأَمَّاكِنِ . ولولا صَبْرُ
أَهْلِهَا وَكَثْرَةُ أَقَارِبِ ابنِ حَبَّادٍ ، لم يَسْتَطِعِ [الْمُعْتَمِدُ] على شَيْءٍ ؛
فكَانَتْهُ غَلِبَ النَّفَقَاتِ الَّذِينَ كَانَتِ الْأَبْوَابُ بِأَيْدِيهِمْ ، وَوَكَلَهُمْ بَيْنَ سِوَاهِمَ ،
إِلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ مع الْقَضَاءِ مَدَقِّعٌ . وكانَ دُخُولُهَا يومَ الْأَحَدِ في [٢٢]
رَجَبِ [سنة ٤٨٤] ، في التَّارِيخِ الَّذِي دُخِلَتْ فِيهِ غَرْطَاةٌ بَعْدَهَا بِعَامٍ كَامِلٍ .

وَدُخِلَتْ قَبْلَهَا قَرْمُونَةٌ ؛ ومات فيها عالمٌ كثيرٌ . ثُمَّ التَوَى أَمْرُ
رُنْدَةٍ ؛ وَنَازَلَهَا قَرْمُورٌ ، إِلَى أَنْ ظَفَرَ بِالرَّاضِي ، وَخَدَعَهُ ، وَحَصَلَ عَلَى
أَمْوَالِهِ ؛ ثُمَّ قَتَلَهُ ، خَوْفًا مِنْ أَنْ تَقْتَضِيَ تِلْكَ الْأَمْوَالُ ؛ وَقِيلَ إِنَّ ذَلِكَ
لَمْ يَكُنْ عَنْ رَأْيِ السُّلْطَانِ . وَأَمَرَ بِقَتْلِ كُلِّ مَنْ ظَفَرَ بِهِ فِي رُنْدَةٍ
لِلذِّكُورَةِ مِنَ الْأَحْرَارِ وَالْجُنْدِ الْقَاتِلِينَ . وَقُتِلَ فِيهَا رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ يُعْرَفُ
بِأَبِي الصُّبَّامِ ، جِرَاءَةً عَلَى اللَّهِ ، لِيَأْخُذَ بِنَتِّهِ ؛ وَنَكَحَهَا مِنْ بَعْدِهِ ،
وَحَصَلَ عَلَى مَالِهِ . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ ﴾ ^(١) . وَامْتَسَكَ بِالْعَبِيدِ ، وَصَيَّرَهُمْ
إِلَى السُّلْطَانِ .

وَلَمَّا ظَفَرَ بِابْنِ عَبَّادٍ ، فَيَا الْأَمِيرُ سِيرُ خَدَمِهِ وَعَبِيدِهِ ، حَاشَى أَمَهَاتِ
الْأَوْلَادِ . وَأَمَرَهُ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ بِإِرسالِهِ إِلَيْهِ . فَقَدِمَ إِلَيْنَا بِمَكْنَسَةٍ مَعَ دَخَلَتِهِ ؛
* وَبَقِيَ فِيهَا إِلَى أَنْ سَبَقَ مَعَنَا إِلَى آغَمَاتِ .

٦٩ (١)

٨١ - قُفُولُ يُوسُفَ بْنِ تَاشَفِينَ إِلَى مَرَاكُشَ

وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ ، لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ لَهُ فِي هَذَا كُلِّهِ ، أَخَذَ فِي الْإِنْصِرَافِ
إِلَى مَرُوكُشَ ؛ وَقَدْ بَلَغَ مِنْ آمَالِهِ غَايَتَهَا ، وَامْتَلَأَتْ يَدَاهُ بِالْأَمْوَالِ ؛ وَقَسَمَ
عَلَى أَجْنَادِهِ بَعْضَ مِنَ الْقَيْءِ ، وَأَهْدَى إِلَى الصَّحْرَاوِيِّ عَمَةً مِنْ تِلْكَ الدَّخَائِرِ .
وَأَمَرَنَا أَنْ نَسْتَوْطِنَ آغَمَاتَ ؛ فَأَتَيْنَاهَا ، وَلَقِينَا مِنْ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ كُلِّ
جَيْلٍ ، وَأَنْزَلَنَا بِدَارِهِ الصُّغْرَى فِي الْحَرِيمِ ، وَلَمْ يَزَلْ يَتَقَدُّنَا مِنْ إِنْعَامِهِ ،
كَيْفَ مَا هَيَّا اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ ، وَوَجَدْنَاهُ بَعْدَ اللَّهِ أَرْفَقَ بِنَا ، وَأَحْسَنَ
مَذْهَبٍ فِينَا مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ ، وَمِنْ كُلِّ مَنْ سَبَقَ إِلَيْهِ مِنَّا إِحْسَانٌ .

٨٢ - عزل المتوكل بن الأفتس

صاحب بطلينوس ومهلكه

وَبَقِيَ ابْنُ الْأَفْطَسِ يَتَخَذُمُ أَمْرَهُ ؛ وَكَانَ يُدَارِي ابْنَ الْأَحْسَنِ ، وَيَنْفَعِلُ
 لَهُ فِي كُلِّ مَا أَرَادَ ، طَبْعاً مِنْهُ فِي الْبَقَاءِ لِحَيْنِهِ ؛ وَهُوَ ، فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ،
 يُنْهَشُ ، وَيُرَى آيَاتُ تَدَلُّ عَلَى الشَّرِّ ، وَأَنَّ الْمَذْهَبَ فِي أَخْذِهِ . وَدَاخَلَ ٥
 عَلَيْهِ ابْنُ الْأَحْسَنِ فِي بَلَدِهِ ؛ فَشَعَرَ بِذَلِكَ ، وَتَيَقَّظَ لَهُ ، وَاسْتَوْحَشَ مِنَ الرُّبَاطِيِّينَ ،
 وَدَاخَلَ الرُّومِيَّ ؛ فَخَفَّتْ عَلَيْهِ الْمُطَالَبَةُ ؛ وَسُعِيَ عَلَيْهِ جَهْرًا ، بَعْدَ السَّعْيِ سِرًّا ؛
 وَهُوَ ، فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، مِثْلُ السَّمَكَةِ الْمَاجِرَةِ الْمَوْصُوفَةِ فِي « كِتَابِ دِمْنَةِ » :
 لَمْ تَزَلْ فِي تَقَلُّبٍ وَتَرَدُّدٍ ، حَتَّى أَخَذَهَا الصِّيَادُ ؛ وَهُوَ كَذَلِكَ يُرِيدُ
 ١٠ أَنْ يُخَاطَبَ : يُخَاطَبُ الْأَمِيرُ بِإِظْهَارِ الطَّاعَةِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي أَمْرِ الرُّومِيِّ ،
 وَيُخَاطَبُ الْفُؤُوسُ لِبَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى مُلْكَةٍ ، إِنْ دَهَنَتْهُ مِنَ الرُّبَاطِيِّينَ . وَكَانَ
 ابْنُهُ الْمَنْصُورُ دَاهِيَةً بِالْأُمُورِ ، قَدْ أَشْرَبَ قَلْبُهُ الْحِذْرَ وَالْخَوْفَ ، وَقَدْ
 رَأَى طَرِيقَةَ ابْنِ الْأَحْسَنِ ، وَسَعَيْهِ عَلَى أَبِيهِ ؛ وَهُوَ رَجُلٌ سَجِلْمَاسِيٌّ
 قَتِيهٌ ، مُتَصَرِّفٌ فِي أُمُورِ الْأَمِيرِ ، اسْتَوَظَنَ بَطْلَيْنُوسَ ، وَاكْتَسَبَ فِيهَا
 ١٥ مَالًا ؛ يَرَى أَنَّ كَوْنَهُ فِي الثَّغْرِ لَمَّا يَنْفَعُ الْمُسْلِمِينَ ، وَهُوَ يَعْمَلُ فِي خَلْعِ
 صَاحِبِهَا .

وَكَانَ ابْنُ الْأَفْطَسِ الشَّيْخُ مُتَّجِبًا لِهَوَاهُ ؛ لَوْ سَأَلَهُ رُوحُهُ مَا لَا يَحِلُّ
 عَلَيْهِ ، [عَمَلٌ] بِهِ ، مُتَوَقِّعًا لَشَرِّهِ . وَكُلُّ شَيْءٍ يَحْذَرُهُ الْإِنْسَانُ وَيَكْرَهُهُ
 بَقْلُهُ ، وَلَا يَكُونُ عَلَيْهِ بِالْخِيَارِ ، فَهُوَ مُتَوَرِّطٌ لَا تَحَالَةَ ، فِيهِ ؛ فَإِنَّ الْمُدَارَاةَ
 ٢٠ فِيهِ مِمَّا لَا تَنْفَعُ ، وَالِاسْتِمْعَالُ مُنْقَطِعٌ ؛ وَلَا خَيْرَ فِي مُجَاوَرَةِ عَدُوِّكَ عِنْدَ

* الحاجة إليه ، إلا أن تدرى عند ذم العاقبة معه أنك مستغن عنه بغيره ؛ ٦٩ (ب) وإلا ، فانت له طعمة .

فقال له ابنه المنصور : « هذا التردد لا يجزئك ، ولا ينق عتك ما ترى من إظهار الطاعة للمرابط ! ولا طاعة أهل بلدك لك ومحبتهم التي كانوا يرضون عليك ! فلو أنهم يرون بعض حقيقة في عزيمة ، كما أبقوا عليك ؛ كالذي رأيت صنع بغيرك ! فإما أن تضيق للمرابط ، فلن تبلى مرضاته إلا بالاخلع له ووضع البلد في يديه ؛ ونقنع بأن تكون متحررا ، متخليا عن الرياسة ؛ فعاجل ذلك ، تجد عنده الأمان ! وإن فرت نفسك عنه ، فلا تتأخر عن الفرار منه بنفسك وأهلك وجميع أموالك ! يجعلك الرومي في أي بلدة شئت ؛ ورُبما سوغها لك ، كما قتل بابين ذى الثون في بلبسية ؛ وتترك مدينة بطليوس ، لا تدخل على المسلمين داخله ؛ فيحصل لك النجاة بمهجتك ، وسلامة البلد للمسلمين ! » فقال له أبوه ، وسف رآيه : « لا أترك موضعي ! وعسى أن تهني الأقدار ضد ما تظن ! » فخرج عنها ابنه ، ونجا بماله وأهله ، وأخذ لنفسه بالرأى الذي أشار به على أبيه . وبقي الشيخ لحيته ، حتى نفذ أمر الله فيه .

وإن الأمير سير ، لما أراد من التخدم لأمر بطليوس والحيلة فيها ، لم يثق بنفسه في ذلك ، لحدوث ولايته الأندلس ، ورأى أن الداء لا يعانى إلا بدوائه ، ولا يلقى أحدا إلا بحجره ؛ فتخير لذلك ابن رشيقي ، لأنه أندلسي ، عالم بالكايد في الفنون ، مع ما كان له عليه من الأيادي قبل في لييط ، وأن ثقافته ذلك الوقت لم يكن إلا على رغم منه بمصادرة قرور

له . فانهز القُرْصَة فى إطلاقه ، والمُكَافَأَة له على صَنِيعِهِ بما يأمرُهُ من
أَمْرِ بَطْلَيْوَس .

وخطَبَ السلطان فى أمره ، بعد أن أُطْنِبَ فى صِفَةِ حاجته إليه . فقبل
قَوْلَه ، وأمرَ بإرساله ، وألطفَ له القول ، واعتذر إليه بما جَرَى ، وأمر له
بمالٍ جسيم . ونَهَضَ ، بعد أن حَدَّ له الوقوف عندَ أوامرِ سِير ، وأنه
مُسْتَحْيِيهِ ؛ فضى . وبنىُ الناس من انطلاقه * ما تَعَجَّبُوا منه وخطَّوا القول (١) ٧٠
فى ذلك ، كلُّ أحدٍ على مقدار عقله أو شهوته .

فلما وصل ، تَخَدَّمَ أمرُ بَطْلَيْوَس بكلِّ وجهٍ من المداخلة لأهلِ البلد ومن
معه فى القصة من الحرس وغيرهم ، حتى وقع الاتفاق على أن يطرقها ليلاً ،
١٠ ويفتحون له [الباب] . فكان من ذلك ما حاولوه ، وتعلَّقوا بالشور عند
الإمارة التى كانت مع من دَاخِلَه . وتُقْبِضَ على الشيخ وابْنَيْهِ الفضل
والقبلى ، واحتُوى له على أموالٍ جسيمة . وأمرَ سِيرُ بإخراجه للقتل ،
بعد أن رأى فى نفسه هواناً عظيماً ، وشدةً على المال ، ونقم عليه ما كان
من عمله مع النصارى والمعاقل التى أعطاهم ؛ فأمرَ بقتله مع ابْنَيْهِ الفضل
والعباس — رحمهم الله — . ١٥

وطاعَ جميعُ ذلك الثَّغْرِ للرُّبَاطِيْنَ ، كأنه لم يكن قطُّ لغيرهم . وفى
أَهْلِهِ وبناته ، وجميعُ ما تَرَكَه . ثم صار ابنُه المنصورُ فى مُجَلَّةِ الرُّوم ، حَقَقاً
لما جَرَى على أبيه ، يطلب الثَّأْر ، ويتطرق معهم بلاد المسلمين .

٨٣ — نشاط المرابطين ضد النصارى .

استيلاء « السيد » لذريق على بلنسية

وصرف المرابطون وجوههم إلى فتنة الروم ومقاصاتها ، بعد إكمالهم
لأخذ سلاطين الأندلس ؛ يقولون : « إنه لا ينبغي لنا قتال الروم ، وترك
وراءنا^(١) الأغداء ، بمن يُؤامى علينا معهم ! » فكلها تهيات بلا مشقة
غير إشيلية ؛ فوقع فيها بعض التغدر ، كما قدمنا ذكره . فسبحان المنذر
الذى إذا أراد شيئاً أن يقول له : « كُنْ ! » فيكون . هذا نص ما كان
ولا نعلم ما يكون ، كما قال بعض الشعراء :

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمٍ مَا فِي غَدٍ عَمِ
ثم نشأ بعد ذلك من أمر بلنسية ما لم يذبلج بها ما يوصف ؛ فإن
الحديث لا يحسن ذكره إلا بعد تفصى آخره ؛ والقوس لا تُكبد إلا
بقبض طرفيها ؛ فإذا استكمل الخبر ، طاب إرادته وحسن موقعه ، وثق
بعضه ببعض . ولو أننا ندع هذا التأليف إلى مدة يتم فيها خبر بلنسية ،
لأتينا به بعد أن يكون الظهور للمسلمين ، وترك* هذا الديوان مخروماً ، ٧٠ (ب)
انتظاراً لما يكون فيه أمل بعيد . ١٥

واستئناف تاريخ له فصول لا يُعنى ، لا سيما أننا أخذنا أقتسنا في
خير بتمامه بما يليق بالزمان ، ورضناها بما تستمر عليه من ترك الشره
والتره عما فات ، وإعمال قطع اليأس عما قيل ؛ واليأس عما فات يُعقب
راحة ؛ ولرب مطعمة تعود دراحاً .

(١) أصل : « وتركوا وراءنا » .

فإذا كان ذلك كذلك ، فأول ما يجب أخذ أنفسنا به إخلاص النية
 لأمر المسلمين — أيده الله ! — وتمنى الخير له ، لأن صلاح المسلمين
 بصلاحه . ومن الديانة اعتقاد ذلك ، لما أمر به من طاعة الأئمة والنصح
 لكل مسلم ، لا سيما أنه مُحْسِنٌ إلينا . ثم اقتصرنا على النظر فيما يخصنا
 ٥ وأنزلنا أنفسنا بمنزلة من لم يكن قط إلا على هذه الحالة ، واعتبرنا بمن كان
 قبلنا ، ونظرنا لمن هو دوتنا .

٨٤ — تأملات فى تقلب الأقدار

وما حلَّ بابن الأفتس ، فشكرنا الله على ما نجانا منه ، وصرَّفنا وجهه
 اهتبالنا إلى ما ننتفع به ، وغلبنا النفس الناطقة على الحيوانية ؛ فإنها
 ١٠ تحمل على الفضائل والإنصاف ، ومعرفة حقائق الأشياء ، كما أن الحيوانية
 تحمل على الغلبة ، وإثارة الشهوات ، والحيدة عن سبيل المعرفة .
 ورأينا أن شغل البال بما مضى لا يردُّ شيئاً غير الهم والكرب اللذين
 يُنحلان الجسم ويذهبان اللب ، وأن الحرج على ما لا يكون تعب للبَدَنِ
 ومسقة للإنسان ؛ لأن قول الفلاسفة : لا يُلتدُّ بما مضى ، ولا يُدرى
 ١٥ ما يكون فيما بقى ؛ وإنما له لذة ساعته التى هو فيها ، أو عمله الذى يجده
 لِمَعَادِهِ . فإن أعقب الله بخير ، فلن نخسر ما سكف من أيامنا ، قهرم
 قبل أوان الهرم ؛ وإن كان الذى يأتى أشد من هذا ، فيحق اغتنام
 ما نحن فيه ، ونمُدُّها أعياداً ، ونُحدثُ الله عملاً يرضاه ؛ وإن كُنَّا أبداً
 على هذه الرقية بلا انتقال (وغير متمكن من ذلك) ؛ فتوطين النفس
 ٢٠ على ما يعلم أنها عليه دائمة ، أخرى وأروح للبال .

ثُمَّ إِنِّي اعْتَبَرْتُ جَمِيعَ مَا فِي الدُّنْيَا ، الَّتِي إِلَيْهَا يَسْعَى النَّاسُ ؛ فَوَجَدْتُ
 نَفْسِي مُبْلَغَةً مِنْهَا كُلِّ أَمَلٍ ؛ * وَإِنْ انْقَطَعَتْ ، فَلَمْ نَصَحْبِهَا ، وَنَحْنُ مِنْهَا ٧١ (١)
 عَلَى يَقِينٍ بِتَخْلِيدِهَا . بَلْ ، لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةٌ ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَرْكِهَا .
 وَالخُرُوجُ مِنْهَا فِي مُدَّةِ الْمُرِّ خَيْرٌ مِنْ مَيِّتَةٍ عَلَى فِتْنَةٍ أَوْ غَرَقٍ ، عَسَى
 بِذَلِكَ أَنْ يُعْظِمَ اللَّهُ الْأَجْرَ ، وَيُكَفِّرَ السَّيِّئَاتِ . وَيَكُونُ ذَلِكَ لِلْإِنْسَانِ زَاجِرًا
 عَنِ الْآثَامِ ، وَيَعْتَبَرُ فَقَدْ مَالِكًا أَنَّهُ لَمْ يَكْتَسِبْهُ بِرِزْقَةٍ نَفْسُهُ إِذْ حَانَ حِينُهُ ،
 فَيُقَدِّمُ لَهَا النَّظَرَ ، بِتَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَى ، قَبْلَ الْمَوْتِ وَحُلُولِ الْفَوْتِ . وَاللَّهُ
 الْمُسْتَعَانُ ! لَا شَرِيكَ لَهُ !

سُئِلَ النَّبِيُّ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — عَنْ عَلَامَةِ انْشِرَاحِ الْقَلْبِ لِلْإِسْلَامِ ؛
 ١٠ قَال : « هُوَ التَّجَافِي مِنْ دَارِ الْغُرُورِ ، وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ ، وَالِاسْتِعْدَادُ
 بِالْمَوْتِ قَبْلَ لِقَاءِ الْفَوْتِ . »

الفصل الثاني عشر

تأملات أخيرة بعد النفي

٨٥ - المؤلف والشعر

وَإِذْ قَدْ أَتَيْنَا عَلَى وَصْفِ بَعْضِ الْحَادِثَاتِ بِالْأُنْدَلُسِ ، وَرَبَّةِ دَوْلَتِنَا ،
وَمَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ فِيهَا أَحْكَامُنَا ، حَسْبًا سَاعَدَتُنَا عَلَيْهِ أَذْهَانُنَا ، وَنَالَتْهُ
مَقْدُورَتُنَا ، إِلَى انْصِرَامِ الْأَمَدِ ، فَلَنَرْجِعَ الْآنَ إِلَى ذِكْرِ بَعْضِ مَا يَتَعَلَّقُ
بِنَاكَ مِنْ شِعْرِ نَظْمِنَاهُ وَقَتَ فَرَاغِ الْبَالِ وَجَمَامِ النَّفْسِ ، مَعَ مَا أَعَانَ عَلَى
ذَلِكَ مِنَ النَّظَرِ إِلَى كُلِّ مُسْتَحْصَنِ ، وَالشُّرُورِ بِطَيْبِ كُلِّ خَبِيرٍ .
عَلَى أَنَّنِي لَمْ أَنْتَحِلْهُ قَبْلُ ، وَلَا كَانَ مِنْ شَأْنِي الْأَخْذُ بِهِ ، إِلَّا عَلَى
سَبِيلِ الْإِسْطِرْفَاعِ وَالْإِطْنَابِ فِي وَصْفِ شَيْءٍ أُرِيدُ نَعْتَهُ . قَرَّبًا صَنَعْتُ
فِي الْبَيْتِ أَوْ الْبَيْتَيْنِ أَيَّامًا ، أَحْضَرُ لَهَا ذِهْنِي ، وَأَحْدُثُ فِكْرِي ؛ فَصَدَعَ
بَعْدَ كَدِّ ، وَمَا أَكَادُ ، كَالشَّيْءِ الْمُسْتَفْرَبِ مِنْ غَيْرِ مَعْدِنِهِ . فَيُنْشِدُهَا
الْكُتَّابَةُ فِي مَجَالِسِ الْإِحْتِفَالِ لِلرَّاحَاتِ ، تَقْطَعُ بِذَلِكَ الزَّمَانَ عِنْدَ الْفَرَاغِ
مِنَ الشُّغْلِ ، كَالَّذِي يَأْخُذُ بِهِ الْمُلُوكُ أَنْفُسَهُمْ فِي سَاعَاتِ الدَّعَاةِ ؛ وَنُضِيفُ
مَعَهَا لَمَعًا مِنْ آدَابٍ وَسِيَرٍ تُخَضِّرُنِي ، مِمَّا يَخْتَلِجُ فِي الْخَاطِرِ وَيُجَرِّبُهَا الْإِنْسَانُ
بِصُحْبَةِ الزَّمَانِ وَتَتَقَلُّبِهِ فِي الْحَالَاتِ . وَقِيلَ لِرَجُلٍ : « مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا
الْعِلْمُ ؟ » قَال : « قَلْبًا عَقُولًا ، وَلِسَانًا سَوًّا وَلَا ! »

٨٦ — استطراد المؤلف إلى الكلام عن طالعه ومصيره

وكلُّ شيءٍ إِنَّمَا يَنْطَبِعُ فِي النَّشْأَةِ وَحِينَ الْمَوْلِدِ . ولقد طالعتُ من مَوْلَدِي
أشياءَ مَيَّزَتْهَا من طِبَائِي وَأَخْلَاقِي ، على أَنَّ وَاضِعِيهَ الْقُوَّةُ وَتَحْنٌ فِي حَالِ
الطَّفُولِيَّةِ ، * لم يُوصَلْ إِذْ ذَاكَ إِلَى مَعْرِفَةِ شَيْءٍ من أحوالي . وَكَتَمَهُ ٧١ (ب)
عَنِّي سِمَاجَةٌ مُدَّةً ، حَتَّى وَقَعَ السَّفَرُ إِلَى يَدِي على غَيْرِ ظَنٍّ ؛ فَشَقَّ ذَلِكَ
عَلَيْهِ ، خَوْفًا عَلَى من العُجْبِ بما كَانَ فِيهِ مَنْصُوصًا من السَّعَادَةِ . فَطَالَعْتُ
مِنْهُ عَجَائِبَ وَغَرَائِبَ ، إِذْ كَانَ الْمَوْلَدُ رَصْدِي ؛ وَكَانَ الطَّالِيعُ الْحَوْتُ
بِأَرْبَعِ دَرَجٍ ، وَصَاحِبُهُ الْمُشْتَرَى فِي الْحَادِي عَشَرَ مع الزُّهْرَةِ ؛ وَسَقَطَتْ
الشَّمْسُ فِي الدَّلْوِ مع عُطَارِدِ ؛ وَانْفَقَتِ النَّحْسَانُ فِي الثُّورِ بَيْتَ الْأُخُوَّةِ
وَالْقَرَابَةِ ؛ وَصَارَ الْقَمَرُ هَيَلَجًا إِذْ كَانَ فِي السَّابِعِ من الْبُرُوجِ ، فَصَلَحَ ١٠
لِلذِّكْرِ لِأَجْلِ سَقُوطِ نَيِّرِ النَّوْبَةِ ؛ وَالزُّهْرَةُ كَذَخْدَاهُ ، دَلَّتْ بِمَكَانِهَا
— وَاللَّهُ أَعْلَمُ — على قَوْلِهِمْ ، على سِنِّيهِا الْوُسْطَى خَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً
يَزِيدُهَا الْمُشْتَرَى سِنِّيهِ الصُّغْرَى اثْنَيْ عَشَرَ عَامًا ؛ فَجَمِيعُ ذَلِكَ سَبْعَةٌ
وخمسونَ عَامًا . وَاللَّهُ بِغَيْبِهِ أَعْلَمُ !

١٥ وَتَكَلَّمَ (الطَّالِيعُ) على أَرْبَابِ مُثَلَّثَاتِ النَّيِّرِ الدَّالَّةِ على تَقْسِيمِ
السَّعَادَةِ لِلْمَوْلُودِ ؛ فَكَانَ رَبُّ الْمُثَلَّثَةِ الْأُولَى زُحَلٌ ، وَمَعَهُ الْمَرْيُخُ فِي
بَيْتِ غُرُوبِهِ ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الثُّلُثَ الْأَوَّلَ فِيهِ بَعْضُ التَّقْدِيرِ وَالتَّنْغِصِ
وَالتَّكْدِيرِ ؛ وَمِثْلُهُ الثُّلُثُ الثَّانِي الَّذِي لِعُطَارِدِ ، إِذْ كَانَ فِي بَيْتِ الشَّعَاءِ
وَالْهُمُومِ ، مَحْشُورًا بَيْنَ التَّنَحُّسَيْنِ ؛ فَدَلَّ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ وَأَشَدَّ ،
٢٠ كَالَّذِي تَبَيَّنَ الْآنَ ؛ وَالْقِسْمَةُ الثَّالِثَةُ لِلْمُشْتَرَى ، وَهُوَ فِي بَيْتِ الرَّجَاءِ

وَالسَّعَادَةِ ؛ فَذَلِكَ عَلَى ضِدِّ ذَلِكَ كُلُّهُ ، وَأَطْنَبَ فِي وَصْفِ السَّعَادَةِ فِيهِ ، لَا أَذْرِي كَيْفَ هُوَ ، إِذْ هُوَ بَعِيدٌ فِي الْقِيَاسِ ، قَرِيبٌ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ .

ثُمَّ وَصَفَ خَبَرَ الْأَمْرَاضِ ؛ فَذَلِكَ عَلَى الْأَمْرَاضِ النَّفْسَانِيَّةِ مِنَ السَّوْدَاءِ وَحِدَثَانِ النَّفْسِ بِأَشْيَاءَ مُخَوِّفَةٍ .

وَذَكَرَ خَبَرَ الْبَيْنِ ؛ فَقَالَ : بِمِثِّ شَهْدٍ شَاهِدٌ ، يَكُونُ الْوَلَدُ ؛ وَشَهْدٌ آخَرُ بَأَنَّ لَا وَلَدَ . وَذَكَرَ عَلَى الْقِلَّةِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ كَوْنِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ مَا ذَكَرْنَاهُ دَلِيلًا عَلَى قِلَّتِهِمْ ؛ وَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي نِصْفِ الْعُمُرِ . فَظَهَرَ ذَلِكَ بِنَشَأِهِمُ الْآنَ .

١٠ وَذَكَرَ خَبَرَ الزَّهَادَةِ فِي الْحَرَامِ كُلِّهِ ؛ وَحَقَّ ذَلِكَ لِكُلِّ أَحَدٍ ، غَيْرَ أَنَّ الَّذِي يَتَّبِعُهُ فِي نَصْبِ الْمَوْلَدِ أَغْلَبُ عَلَى الطَّبْعِ ؛ ثُمَّ نَظَرَ فِي وَجْهِ التَّعَفُّفِ ، وَابْتَحَثَ عَلَى مَا أَوْجَبَ ذَلِكَ ، وَأَنَّ تِلْكَ الزَّهَادَةَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ مَعَ سَلَامَةِ الْمُتَعَدِّ ؛ فَإِنَّ الزُّهْرَةَ ، إِذْ كَانَتْ فِي أَحَدِ بَيْتِ زُحَلٍ ، ظَهَرَ عَلَى الْمَوْلُودِ قُبْحُ ذَلِكَ الشَّرِّ ؛ فَتَعَفَّفَ . وَقَالَ إِنَّ حِكْمَتَهُ فِي يَدَيْهِ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي لِسَانِهِ .

وَرَأَى صَاحِبَ بَيْتِ الْعُرْسِ ، وَهُوَ عَطَارِدٌ ، فِي بَيْتِ زُحَلٍ ؛ فَذَكَرَ عَلَى الْمَيْلِ إِلَى الصَّنَاعَةِ ذَوِي الطَّبَائِعِ الْمَطَارِدِيَّةِ ، مَعَ مُنَافَرَةٍ لَا تُبْدِعُهُ الشَّرِيعَةُ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ صَاحِبِ الْعُرْسِ وَصَاحِبِ الطَّالِعِ مُوَاصَلَةً وَلَا مُشَاكَلَةً .

٢٠ كُلُّ هَذَا قَدْ عَلَيْنَاهُ مِنْ أَنْفُسِنَا ، كَأَنَّهُ حَاضِرٌ مَعَنَا ، وَمُطَّلَعٌ

علينا . فلم نَشْكُ في صَحَّتِهِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، فَسُبْحَانَ مُصَرِّفِ الْآيَاتِ وَمُجَرِّى
الْأَفْلَاقِ !

(الْفَلَكَ مَا اسْتَدَارَ مِنَ الْأَشْيَاءِ ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « كُلُّ شَيْءٍ فِي فَلَكَ
يَسْبَحُونَ » ^(١) . وَسَمَّاها سَمَاءٌ ؛ فَإِنَّ الْعَرَبَ تَدْعُو كُلَّ مَا ارْتَقَعَ سَمَاءٌ ؛
هـ . لَارْتِفَاعِهَا عَلَيْنَا ، سَمَاءٌ ؛ وَهَيِّنَمَتُهَا : فَلَكَ ، لَا سَمَاءَ .)

٨٧ — أراء المؤلف فى التنجيم

ولا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ، غَيْرَ أَنَّ أَهْلَ الْعَقْلِ مِنْهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا هِيَ
دَلَالٌ عَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَلَا يُعْلَمُ بِهَا الْجَلِيَّةُ ، كَالْقَيْثِ الْمُنْزَلِ دَلِيلٌ
عَلَى نَبَاتِ الزَّرْعِ بِهِ ، أَوْ كَالنَّارِ الْمُشْتَعِلَةِ بِمَكَانٍ عَلِمَ أَنَّهَا مُخْرِقَةٌ . وَيَحْتَجُّونَ
١٠ بِحَدِيثِ الرَّسُولِ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — فِي قَوْلِهِ : أَقْبَلْتُ بِمَجْرِيَّةٍ ، فَتَشَاءَمْتُ ،
فَلَكَ عَيْنٌ غَدِيقَةٌ . وَمُعَانَاةُ الْحَكِيمِ الْمَاهِرِ دَلِيلٌ عَلَى بُرْئِهِ ، يَرْجَى لَهُ
ذَلِكَ إِنْ أَخَّرْتَهُ الْمُدَّةَ . وَجِئْتُ بِطَبِيبٍ عَالِمٍ إِلَى أَحَدِ الْعُظَمَاءِ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ ،
فَلَمَّا شَكَا الْمَرِيضُ إِلَيْهِ ، قَالَ لَهُ الْحَكِيمُ : « قَدْ بَرِيتَ بِمَحْوِلِ اللَّهِ ! » فَلَمَّا
أَعْلَمَهُ التَّرْجُمَانُ بِقَوْلِهِ ، قَالَ الْعَلِيلُ : « إِنْ شَاءَ اللَّهُ ! » ، فَأَجَابَهُ الْحَكِيمُ :
١٥ « إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَدْ شَاءَ : لَمْ يَسْقُنِي إِلَيْكَ مِنْ أَرْضِ الْهِنْدِ إِلَّا وَقَدْ قَضَى
بَصَحَّتَكَ ! »

وقد أغلَى ^(٢) أهلُ الْهِنْدِ فى هذا الْعِلْمِ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ اتَّخَذَهُ شَرْعًا ، حَتَّى

(١) سورة الأنبياء : ٢٢ = سورة يس : ٤٠ .

(٢) أصل : « أغلوا » .

إن فيهم من لا يؤلّي مملكتهم إلّا من شاكل طالع الدولة ؛
 وهم يزعمون أنّ طالع الملك ، إن لم يكن وتدًا من أوتاد المملكة ،
 أو كان منها ثاني عشر أو سادسًا ، وأمكنته الكواكب غير متفقة* (١) ٧٢
 لذلك ، فإنه ينحسها ، ولو بلغ الجهد من الاحتياط عليها : إمّا تهلكه ،
 أو يهلكها ، ضرورة تسوقه الأقدار إليها . فكانوا يتخيرون الطوالع قبل
 اختيار العقول والمذاهب ، يزوّن أنّ القدر أغلب من الرأي ، ويقولون :
 « لك سعادة الدولة ومساعدته الأقدار هيأت لنا هذِهِ الآراء لطول
 المدد . »

ثمّ إنهم يزعمون أنّ العمر الطبيعيّ مائة وعشرون عامًا ، وأنّ القواطع
 التي تكون قبله إنّما هي من أحداث داخلية على الإنسان ، عرضيّة ،
 إمّا من فساد المزاج ؛ فتخور الطبيعة ، إذ جعلوا الأربع طبائع التي في
 الإنسان قوامه كأركان البيت ، فتى فسدت منها طبيعة ، اعتلّ
 الجسم ؛ وإن تغيّرت كلّها ، مات . وجعلوها مشاكلةً للأزمنة : فالدم
 ربيعيّ ، والبلغم شتويّ ، والصفراء صيفيّة ، والسوداء خريفيّة ؛ فنّ
 عالَج كلّ زمانٍ منها بضده من الأغذية والأدوية ، فقد أصاب . ولا
 ١٥
 باقى مع الله !

و[لَمّا] احتجّ عليهم بالذى يموت فجأة ، أو فى زحمة ، أو بأرقّ
 سبب ، وهو يظهر صحيح الجسم ، أضافوا إلى الطبّ من علم النجوم ،
 واتفق رأيهم أن لا فلسفة تتمّ حتّى يجمعها ، وأنّ لا قوام لأحد العالَمين
 ٢٠ دون الآخر ؛ قالوا : إنّما ذلك من الهياليج الساقطة ؛ فإنّ المولود ، إذا
 كانت هياليجه ساهرة ، صحّ ارتباط نفسه بجسمه ؛ فلا تخرجُ إلّا عن

مَشَقَّةٌ مع تمامِ المَدَّةِ التي تَدُلُّ عليها العَطيَّةُ . وإن كانت هَيَالِجُهُ ساقِطَةً كُلَّهَا ، عرض للموت بَارَقٌ سببٍ . فَإِنْ لم يكن له هَيَلَجٌ ، سَيَّرَتْ المَطلَعةُ وَعُدَّ لها أَعوامٌ ؛ ويكون القَطْعُ عند تَمامِها ، وقد يكون في تَحَاوِيلِ السَّيْنِ ؛ وإن تَمَّ العَطيَّةُ عند انْتِهاءِ صاحِبِ حَدِّ الدَّرَجَةِ إلى موضعِ نَحْسٍ ، قَطْعٌ أو شبه القَطْعِ ، إن لم تُسَاعِدْهُ النُجومُ السَّعيدَةُ .
وَسَمَوُهُ الجَمَانُ بِخَتَانٍ ، وهو دَليْلُ الحَيَاةِ بإِذنِ اللَّهِ .

ومنهم من رأى ذلك قوَّةً لنفسه* ، ورضي بما قسم له الباري — عزَّ ٧٢ (ب) وجَلَّ — ؛ فلا ينقد على نفسه ، ويعيش طيب العيش ، يدري أن لا قاطعَ يقطع به في تلك المَدَّةِ ، وَيُسَجِّعُ لقول عليٍّ — رضى الله عنه —
١٠ لِرَجُلٍ قَدِ أَسَنَّ : « آيَةُ شَجَاعَةٍ قَدْ فَاتَتْكَ ! » يعنى : لو أنك قَبْلَ اليومِ تَدْرِي أَنَّ هذا يكون عُمرُكَ لم تُبَالِ .
وَأَمَّا أَنَا ، فَأَقُولُ إِنَّهُ تَأْنِيسٌ ما لم تقرب المَدَّةُ ، وزيادة في أَلَمِ المَنِيَّةِ إذا اقْتَرَبَتْ . ولا يكون الطَّبُّ إِلَّا لِيُصَحَّ البَدَنُ مَدَّةَ الحَيَاةِ لِكُراهِيَةِ العِيشِ في نَكْدٍ . وَأَمَّا لِدَفْعِ أَجَلٍ ، فلا ينفع شئٌ .

٨٨ — آراء طَبَّيَّةٍ في الأَغْذِيَّةِ والنَّبِيذِ

١٥

قال بعض الحكماء : « الناس يعيشوا^(١) لِيَأْكُلُوا ، وَتَحْنُ نَأْكُلُ لِنَعِيشَ ! » فتأمل معناه .
وجمع أحدُ الملوك أطباءَهُ ، فقال لهم : « أَعْلِمُونِي بِالْإِدْوَاءِ الَّتِي لَا دَاءَ مَعَهَا ! » فكَلَّمَهُمْ على الأدويةِ والمُعَاناةِ بِهَا ، غَيْرَ واحدٍ منهم كان

(١) كذا في الأصل .

أَكْبَرُهُمْ سَنًا ؛ فَرَدَّ عَلَيْهِمْ أَنْ : « لَيْسَ عَنْ هَذَا سَأَلَكُمْ الْأَمِيرُ ! وَلَكِنَّهُ يَأْذُنُ لِي فِي الْكَلَامِ ؟ » قَالَ : « قُلْ ! فَأَنْتُمْ مَعْدِنُ الْحِكْمَةِ وَالْفَلَسَفَةِ ! »
 قَالَ « أَيُّهَا الْأَمِيرُ ! إِنَّ الدَّوَاءَ الَّذِي لَا دَاءَ مَعَهُ أَنْ تَكُونَ ، عِنْدَ
 أَخْذِكَ لِلْعَدَاءِ ، تَتْرُكُ مِنْهُ بَقْدَرٍ مَا تَتِمُّ بِهِ الشَّبْعَةُ ، وَلَوْ لُحْمَتَيْنِ ، وَلَا
 تَمَلَأُ ! فَذَاكَ دَوَاءٌ لَا يَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى طَيِّبٍ ! » هـ

وَذَكَرَ هَذَا عَنِ الرَّشِيدِ ، إِنَّهُ قَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ قِصْعَةً بِطَعامٍ ؛ فَلَمَّا أَكَلَ
 قَالَ : « هَذَا غِذَاءٌ وَدَوَاءٌ ! فَمَا زِيدَ عَلَيْهِ كَانَ دَاءٌ ! » وَعَلَى أَنَّهُ لِكُلِّ
 أَمْرٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَ .

وَقَالَ النَّبِيُّ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — : « أَصْلُ كُلِّ دَاءٍ الْبُرُودَةُ ، وَأَصْلُ
 ١٠ كُلِّ دَوَاءٍ الْحُمَّى ! » وَقِيلَ : « أَقْلِلْ طَعَامًا ، تَحْمَدُ مِنْهَا ! » وَقَالَتْ
 الْحُسَكَمَاءُ : « إِنَّ الْكَثْرَةَ وَالْقَلَّةَ عَدُوَا الطَّبِيعَةِ . »

قَدْ نَرَى ^(١) فِي الْخَمْرِ مَا ، إِذَا اعتدل مزاجه منه بالكثير ، لم يجب أن
 يُقَالَ لَهُ : « قَلِّلْ ! » وَلَا مِنْ شَارِبِ وَاقْتَهُ الْقَلِيلُ ، أَنْ يُقَالَ لَهُ :
 « ازْدَدْ ! » غَيْرَ أَنَّ الْعَاقِلَ يَرَى ذَلِكَ بِحُسْنِهِ ، وَيَعْلَمُ مَا لَمْ يُوَافِقْ طَبْعَهُ ؛
 ١٥ فَلَا يَزِيدُ عَلَيْهِ شَيْئًا .

وَسُئِلَ حَكِيمٌ عَنْ الْخَمْرِ ؛ فَأَعَابَهَا ، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ : « إِذَا أَخَذْتَ
 كَيْفَ يَنْتَبِهُ وَمَعَ مَنْ يَنْتَبِهُ ، فَلَا بَأْسَ بِهَا : تَفْرَحُ النَّفْسُ ، وَتَذْهَبُ
 بِالْهُمُومِ ، وَتَشْجَعُ ، وَتَحْمِلُ عَلَى الْفَضَائِلِ . وَالتَّزِيدُ مِنْهَا شَرٌّ كَثِيرٌ ،
 * كَمَا أَنَّ الْقَلِيلَ مِنْهَا خَيْرٌ كَثِيرٌ ! »

(١) ٧٣

وشبهوا كثيرها في الأبدان مثل الترموس الذى إذا أكثر عليه بالماء
وطال مكثه ، استحال وذهب نوره .

وقيل فيها :

سَأَلْتُ الشَّيْخَ بُقْرَاطًا وَبُقْرَاطًا لَهُ عَقْلٌ
فَقَضَّلَ مَا لَهُ شِبْهُ وَطِبُّ مَا لَهُ مِثْلُ
قُلْتُ : الْحَمْرُ تَمَجِّبُنِي ! قَالَ : كَثِيرَهَا قَتْلُ !
قُلْتُ : كَمْ تَقْدُرُ لِي ! قَالَ ، وَقَوْلُهُ فَضْلُ :
وَجَدْتُ مِنْ طِبَائِعِ أَرْبَعَةٍ هِيَ الْأَصْلُ
فَأَرْبَعَةٌ لِأَرْبَعَةٍ لِكُلِّ طَبِيعَةٍ رِطْلُ

١٠ هذا ما قاله الناس . ولا خيرَ فيما لا تبيحه الشريعة . ولا بأسَ
بِعِلْمِ الشَّيْءِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى وَضْعِهِ ؛ وَبَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِهِ لِمَنْ
ابْتَلِيَ بِهَا أَنْ يَأْخُذَهَا عَلَى حَقِّهَا .

وقالوا إنه مما يؤلّد فرحَ النفس الشربُ بآنية الذهب وشمُّ الزَّنجَبِ ،
كما أن الشربَ بآنية القَزْدِيرِ وشمُّ البَنْفَسَجِ مما يؤلّد الحزنَ .

١٥ وقالوا إنها من أكبر أدوية السّوداء في تلك الساعة ؛ وتَقَبُّ سَوْدَاءِ
أَشْرَّ مِنَ الْأَوَّلَى إِنْ أَكْثَرَ مِنْهَا . وَالْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِيهَا إِلَّا
مَارَقَ مِنْهَا ، وَحَالَ عَلَيْهَا الْحَوْلُ ، وَعَطَّرَتْ رَائِحَتُهُ ، وَهِيَ حَارَّةٌ يَابِسَةٌ ،
ثُمَّ تَسْتَحِيلُ إِلَى الْبَرْدِ عَنْ شَرَبِ الْمَاءِ لِلضَّرُورَةِ ، وَتَجِدُ الرُّطْبَةَ مِنْهَا ،
كَبِدِيَّةَ اللَّوْنِ ، غَلِيظَةَ الرَّوْتَقِ ، مُوَلَّدَةً لِلدَّمِ وَالنَّوْمِ ؛ وَهِيَ الْمَوَافِقَةُ
٢٠ لِمَازِنِ الشَّتَاءِ . وَلْيَتَّخِذْ مِنْهَا لِكُلِّ زَمَانٍ مَا يُوَافِقُ طَبِيعَتَهُ ، وَيَخَالَفُ هَوَاهُ .

ورأوا أنْ أَخْذَهَا بَعْدَ الْغَدَاءِ بِسَاعَةٍ ، لِيَنَامَ الْإِنْسَانُ قَبْلَهَا وَيُرْوَى

من الماء أَنْفَعُ لَهُ وَأَنْفَعُ . وكذلك الْجَمَاعُ أَنْفَعُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ سَكُونِ
الأعضاء وتَوَدُّعِهَا بالنوم بعد الطعام ، في صبيحة تلك الليلة ، عند تَمَلُّ
الأعضاء ، واحتياجِهَا إلى إخراج الفضول ، ونشاطِهَا . ولا يكون ذلك عن
*تَكَلُّفٍ ، حَتَّى تَمِيلَ الطَّبِيعَةُ إِلَيْهِ ، لَا سِيَّامَا إِنْ سَاعَدَتْهَا النَّفْسُ ؛ وَيُوَافِقُ ٧٣ (ب)
هـ ذلك الشَّخْصُ هَوَاهَا ، إِذِ النَّفْسُ وَالْجِسْمُ شَكْلَانِ مُرْتَبِطَانِ : مَتَى اعْتَلَّ
أحدهما ، تَضَعُضَ الْآخَرُ ؛ وَمَتَى صَحَّ جَمِيعًا ، قَوِيَتْ الْمَنَّةُ وَتَكَامَلَتْ
الصَّحَّةُ . وَيَكُونُ ذَلِكَ أَسْرَعَ فِي الْبَاهِ ، كَمَا أَنَّ الْمَعِدَّةَ مَتَى اشْتَهَتْ
شَيْئًا ، فَقَدْ ضَمِنَتْ هَضْمَهُ .

قال جَالِينُوسُ : « إِنَّ الْمَرِيضَ الَّذِي يَشْتَهِي أَرْجَى مِنِّي لِلصَّحِيحِ
الَّذِي لَا يَشْتَهِي ! » أَلَا تَرَى أَنَّ الطَّيِّبَ الْمَاهِرَ ، إِذَا عَانِيَ الْعَلِيلَ ،
١٠ وَقَاسَ بَيْنَ دَوَائِيْنِ يَكُونُ نَجْمُهُمَا وَاحِدًا ، قَصَدَ إِلَى الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ النَّفْسَ
عَلَيْهِ أَقْبَلُ فِي حَالِ الصَّحَّةِ ؛ فَيَعْتَمِدُهُ . أَلَا تَرَى أَنَّ شَرَابَ السَّقَرَجَلِ
وَشَرَابَ السَّكَنْجَبِينَ فِعْلُهُمَا وَاحِدٌ ؛ غَيْرَ أَنَّ شَرَابَ السَّقَرَجَلِ أَلْيَقُ بِالنَّفْسِ ،
وَهِيَ إِلَيْهِ أَشْوَقٌ ؛ فَيَرَى الْحَكِيمُ تَوَقَّاتَهُ إِلَيْهِ زَائِدًا عَلَى فِي الدَّوَاءِ ، وَيَنْبَجِحُ
١٥ فِيهِ بِالشَّهْوَةِ .

وَلَمْ يَرَوْا لَشَرْبِ الْخَمْرِ عِنْدَ الْعَطَشِ شَيْئًا أَنْفَعَ مِنْ شَرْبِ الْمَاءِ ،
لِلتَّوَقَّانِ وَإِطْفَاءِ الْحَرَارَةِ وَقَمْعِ الْأَيْخَرَةِ .

وَلَيْسَتْ تَعْمَلُ مِنَ الطَّعَامِ مَا خَفَّ ، وَلَوْ عَاوَدَهُ فِي النَّهَارِ مَرَّاتٍ ؛ فَهُوَ
أَسْرَعُ لَهُضْمِهِ ، وَأَشْهَى لِمَعِدَّتِهِ ، وَأَخَفَّ عَلَى جَوَارِحِهِ . قَالَ بَعْضُ
٢٠ الْحُكَمَاءِ : لِأَنَّ أَمَلًا شَرَابًا أَحَبُّ عَلَى مَنْ أَنْ أَمَلًا طَعَامًا ! فَإِنْ
الْتِخَمَتْ ، إِنْ تَعَقَّدَتْ ، قَلَّتْ ؛ وَإِنْ تَحَلَّلَتْ ، أَسْقَمَتْ . « قَالَ بَعْضُ

الْفَلَّاسِفَةُ : « خَفِّقُوا هَذِهِ الْأَنْفُسَ مِنْ أَوْقَارِ الشَّهَوَاتِ ، لِتَصْعَدَ إِلَى عَالَمِهَا الْأَكْبَرِ ؛ فَتَأْتِيَكُمْ بِجَانِبِ مَا هُنَالِكَ ! »

وقالوا في الشراب إنه يُسَلِّيَ الهموم . وأنا أقولُ إنها تَهَيِّجُ الهموم ، إنما هو ما نزل عليه : إِنْ أَلْفَتْ سُرُورًا ، حَرَّكَتْ مِنْهُ مَا سَكَنَ الْإِنْسَانُ عَنْهُ ؛ وَإِنْ أَلْفَتْ هُمُومًا ، ذَكَرَتْ بِمَا هُوَ فِيهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ ، وَفَقَتْ إِلَى طَرُقِ السُّوءِ . وَالْهَمُّ إِنَّمَا يَكُونُ بِمَا يَنْتَظِرُ الْإِنْسَانُ مِنْ سُوءٍ ؛ فَذَلِكَ الَّذِي لَا يُسَلِّيهُ عَنْهُ شَيْءٌ ، وَلَا يَأْتِيهِ مِنْهُ نَفَاسٌ ؛ وَالنِّعْمُ إِنَّمَا يَكُونُ بِمَا مَضَى ؛ فَرُبَّمَا سَلَّتِ الْخَمْرُ عَنْ بَعْضِ ذَلِكَ . وَلَا شَيْءٌ يُولِّدُ النَّوْمَ مِثْلَ النَّعْمِ بِتَذْكَارٍ مَا خَلَفَ ، أَوْ النَّظَرِ فِي كِتَابٍ لَا يَنْبَغِي مِنْهُ تَعَلُّمٌ أَكْثَرُ* مِنْ مِطَالَعَةٍ ٧٤ (١) ١٠ مَا مَضَى .

وَمِنَ الْجُهَالِ مَنْ يَتَقَنَّدُ أَنْ الْعِشَاءَ قَرِيبَ النَّامِ يُولِّدُ الرِّقَادَ مِنْ أَجْلِ التَّمَلُّيْءِ ؛ وَأَنَا أَقُولُ إِنَّهُ يَمْنَعُهُ ؛ فَإِنَّ الْحَرَارَةَ تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاعِ مِنَ الْأُبْحُرَةِ وَكُلُّ حَارٍّ مَانِعٌ لِلنَّوْمِ ، كَمَا أَنَّ الْبَرْدَ فِي السَّمَاعِ مُوَلِّدُهُ . أَلَا تَرَى أَنَّ الْأَدْمِغَةَ الْبَارِدَةَ كَثِيرَةُ النِّزَلَاتِ مِنَ الرُّطُوبَاتِ ، وَتَوَلَّدُ التَّسْيَانُ ؟ وَالسَّرِيعُ الْخَفِظُ قَدْ يَكُونُ فِي نِمَاجِهِ مَرَارَةٌ وَيَبُوسَةٌ ؟ وَقَلَّ مَا تَرَاهُ يَنْزَلُ ، وَإِنْ كَانَ ، فَلَا يَدُومُ ذَلِكَ بِهِ ؛ فَإِنَّهَا مِنْ فَضَلَاتِ السَّمَاعِ . وَكَذَلِكَ الْحَاجِظُ الْعَيْنَيْنِ يُعْرِضُ عَنْ ذَلِكَ ، وَقَلَّمَا يَسْلَمُ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالتَّعَرُّقِ . وَالنَّائِرُ الْعَيْنَيْنِ عِنْدَهُمْ أَصَحُّ بَصَرًا ، مَعَ أَنَّهَا مِنْ صِفَاتِ الْجَمَالِ ، إِذَا قَالُوا : « هُوَ الْفَائِرُ الْعَيْنَيْنِ ، الْأَسِيلُ الْخَلْدَيْنِ ، الْمُشْرِفُ الْحَاجِبَيْنِ »

كَذَلِكَ قَوْلِي ، وَإِنَّهُ لَا يَتِمُّ لِأَحَدٍ جَمَالٌ إِنْ خَشِنَتْ أَطْرَافُهُ وَامْتَلَأَتْ خَدَّاهُ . وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَمْدَحُ فِي الْإِنْسَانِ كِبَرَ رَأْسِهِ ، وَتَقُولُ إِنَّهُ عَلَامَةٌ

الشؤدود . ويمدح الغلام الأبله العقول .

وقيل : الجمال في اللسان ، ما كان ناطقاً بالصواب ، ولا خير في
التهور والإكثار بما لا يحتاج . ووصف بعض الشعراء رجلاً فيما رثى
به ؛ فقال :

لَقَدْ وَارَى الْمُقَابِرُ مِنْ شَرِّكَ كَثِيرٍ تَحَلَّمَ وَقَلِيلٍ عَابِ ٥
صَمُوتًا فِي الْمَجَالِسِ غَيْرَ عَمِيٍّ جَدِيرًا حِينَ يَنْطِقُ بِالصَّوَابِ

٨٩ - رجع الكلام إلى التنجيم

وَمَا وَصَفْنَاهُ مِنْ عِلْمِ التَّنْجِيمِ ، احْتَجَجْتُ يَوْمًا بِبَعْضِ الْمُنَجِّمِينَ أَنَّهُمْ
عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ ؛ قَالَ : إِنْ كُنْتَ تَقْتَضِي بَأَنَّنَا نَزَعْنَا أَنَّ الْكَوَاكِبَ فَاعِلَةٌ
أَوْ يَعْلَمُ أَحَدُ الْغَيْبِ ، فَمُحَالٌ ذَلِكَ ، لَا يَدَّعِيهِ أَحَدٌ ، غَيْرَ أَنَّا قَوْلُ بَأَنَّنَا ١٠
مُصَرَّفَةٌ . أَلَسْتَ تَقُولُ فِي الشَّمْسِ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَهَا ضِيَاءً ؟ فَكَذَلِكَ أَقُولُ
فِي النُّجُومِ السَّعِيدِ أَوِ الْبَاسِ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ لَذَلِكَ ؛ ثُمَّ لَا يَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ هَذِهِ
السَّعَادَةِ وَصُورَتِهَا غَيْرَ الْحَمَلَةِ ؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَتِمُّ مِنْهَا .

« وَلَيْسَ مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا مُوَافِقٌ لِلشَّرَائِعِ إِذَا النَّصْبَةُ كُلُّهَا مَخْلُوقَةٌ مِنْ مُدَبِّرٍ
وَاحِدٍ ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ؛ فَتَنَى كَانَ فِي الْعَالَمِ دَوْلَةٌ أَوْ مِلَّةٌ ، لَمْ تَدُلَّ النُّجُومُ
عَلَى غَيْرِهَا ، إِذِ الْحُكْمُ مِنْ لَدُنِ الْوَاحِدِ * . فَأَوَّلُ مَا نَبْتَدِئُكَ بِهِ أَنَّهُ ٧٤)
مَا مِنْ طَالِعِ الْقِرَانِ مِلَّةٍ وَمَوْلِدِ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ شَا كُلَّ ، وَاتَّفَقَتْ لَهُ مِنَ
السَّعَادَةِ فِي الْهَيْئَةِ مَا خَرَجَ بِهِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ .

« وَأُخْرَى . أَلَيْسَ تَقُولُ الْيَهُودُ إِنَّهُمْ زُحَلِيُّونَ ؟ لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ !
٢٠ أَلَا تَرَى اتِّخَاذَهُمُ السَّبْتَ عِيدًا ؛ وَهُوَ لُحْلٌ ، وَأَخْلَاقُهُمْ كُلُّهَا مُطَابِقَةٌ لِمَا

يدلُّ عليه زُحَلُ من البُخْل ، والقَدَّارَة ، والخَبِيث ، والمَسْكِر ، والخَدِيثَة ؟
 ثُمَّ الرُّومُ من بَعْدِهِمْ تَمْسِيُون ، لا امْتِرَاء في ظلك ! أَلَا تَرَى أَنْ يَوْمَ
 الْأَحَدِ جُعِلَ لَهُمْ عِيداً ، وهو يَوْمُ تَمْسِي ، وطبائعهم مواقِفَةٌ للشمس ،
 وَصُورُهُمْ فيها : البَيَاض والخُمْرة والشَّقَرَة ، والرَّهْبَانِيَّة في عُبَادِهِمْ لِقَمِ
 الشمس ؟ ثُمَّ المسلمون : أَلَيْسَ هُمْ زَهْرِيَّين ؟ والزَّهْرَة دَالَّةٌ على الدين ،
 والنظافة ، والمُرُوءَة ، والضَّوْء ، والطهر من الجنابة ، وإِبَاحَة النكاح ، والإِماء ،
 والطيب والزينة ؟ ثُمَّ أَمَرْنَا بِاتِّخَاذِ الْجُمُعَةِ عِيداً ، وهو يوم الزُّهْرَة !
 « ثُمَّ أَنْظِرْ إِلَى بَرُوجِ الْفَلَكَ . تقولُ إِنَّ السَّابِعَ بَيْتُ الْعُرْسِ .
 وَأَكْثَرُ مَا يَسْتَعْمِلُ النَّاسُ الْفَلَاحَ في شهر رَجَب ، وهو السابع من أَشْهُرِ
 ١٠ العامِ الْمُؤَرَّخِ به ، الذي أَوَّلُهُ الْمُحَرَّم ؛ والثَّامِن من البروج بَيْتُ الموت
 والمُوارِيثُ ، وشهرُ شَعْبَانَ الثَّامِن من الْأَشْهُرِ الذي تُنْسخ فيه الْأَجَال ؛
 والتَّاسِع من البرُوج بَيْتُ الدين والسَّفَر ، وشهرُ رَمَضَانَ الْمُعْظَم ، تاسِعُ
 أَشْهُرِ العام . وجب فيه الصَّوم وَحِفَظَةُ الشَّرْع ؛ والعَاشِر بَيْتُ الْمُلْكِ
 والسُّلْطَان . واتَّخِذَ الْعَاشِر من الْأَشْهُرِ عِيداً يَظْهَرُ فيه بهاء الدين وعِزُّهُ .
 ١٥ » وقد قال الله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ ^(١) . وَأَقْسَمَ
 ﴿ بِالْخُنُوسِ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ﴾ ^(٢) وهِيَ الْكَوَاكِبُ السَّيَّارَة . ويزعمون
 أَنَّ زُحْلَ هُوَ النَّجْمُ الثَّاقِب . لِأَنَّهُ يَفْتَقُ بِضَوْئِهِ سَبْعَ سَمَوَات . وَأَنَّهُ أَكْثَمُ
 مِنَ الْأَرْضِ سِتَّةً وَتِسْعِينَ مَرَّةً ؛ وَغَيْرُهُ مِنَ الْكَوَاكِبِ قَدْ وَصَفُوا قِسْمَهَا
 مِنَ الْعَظَمِ عَلَى الْأَرْضِ . غَيْرَ الْقَمَرِ وَعُطَارِدِ ، فَإِنَّهَا أَصْغَرُ مِنَ الْأَرْضِ . وَأَنَّ

(١) سورة البروج : ١ .

(٢) سورة التَّكْوِيْد : ١٥ - ١٦ .

الشمس أعظم من الدنيا مائة وثمانون ضعفاً. ولكل كوكب منها مدة*
 *يقطع فيها الفلك. وربته هياها له بارئته — عز وجل —؛ وإن العالم ٧٥ (١)
 السفلى متعلق بالعلوى. مؤثر به بإذن ربه. «

ومنهم من قال: لأى شيء تُنسب إلينا الزندقة؟ ولم تُنكر الخلق؛
 ٥ وإنما تكلمنا فى المخلوقات؛ فيوصف كل مخلوق بما يدركه علم الإنسان.
 كواصف رجل أو شجر أو جبل! «

وذكر عن حكيم أنه رى بالمصحف عن يمينه. والأسطرلاب عن
 شماله؛ ففعل ما الذى أوجب جمعها لديه؛ قال: «أثلو فى المصحف
 كلام الله. واعتبر فى الأسطرلاب خلق الله؛ وعلم الهيئة عبادة! «
 ١٠ وإنه لما نص على هذه المقالة؛ كان جوابي عنها: «كل ما تقول
 يشبه يكون من موازنة أهل السنة بما احتججت به؛ غير أنكم خالفتم
 القرآن فى قولكم «يكون» و «لا يكون»؛ والله يقول^(١) ﴿قُلْ
 لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾. قالوا: «لسنا
 قطع عن الأمر أنه يكون؛ ولا نقول إلا أنه يدل. ونأى بحجة إلا يتم
 ١٥ شرحها. اللهم! إذ قلنا: هذا مولد سعيد، هل قدر على شرح تلك السعادة
 والكائن فيها. ومنا من يتحرى، فيعدل ولا يتكلم على شيء. وقولنا هذا
 كقول من رأى سحاباً قالاً؛ فيقول: «هذه تدل على الماء الكثير». هل
 قائل ذلك ملحد؟ ثم الله يفعل ما يشاء.

وهذا أيضاً مما قدمنا ذكره صدر الكتاب أن كل مفتون ملقن
 ٢٠ حجة؛ والله يقول^(٢): ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾؛ على أن الحق

عليه نورٌ لا يخبئ ؛ تقول العرب : « الحقُّ أبلج ، والباطل لَجَج . » .
قال المأمون : « لم أَغْتَبِطْ بِأَيَّامِ السُّرُورِ مُذْ عَلِمْتَ التَّجِيمَ ، وَلَا اسْتَمَرَيْتُ
الطَّعَامَ مُذْ عَلِمْتُ الطُّبَّ ، وَلَا طَابَ لِي النُّومُ مُذْ عَلِمْتُ عِبَارَةَ الرُّوْيَا ! »

٩٠ - مسائل فَلَكِيَّة

- ٥ ويزعمون أَنَّ الليلَ ظِلُّ الأرض ، ولا ضياءَ غير الشمس ؛ فبإِشْرَاقِهَا
على الأرض عند طلوعها ، كان النهار ؛ وبدخولها تحت الأرض ، رجع
الظِّلُّ طالعاً ، فَأَظْلَمَ الليل .
وبعضهم من قرأ أَنَّ الشمس تجري ، لا مُسْتَقَرٌّ لها ، إِذْ يَقُولُونَ إِنَّ
الشمس لا تَسْقَرُ* بمكان ، إِذْ لا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْمَكَانُ إِلَّا أَعْظَمَ مِنْ ٧٥ (ب)
الذي تَحِلُّ فِيهِ ؛ ولا أَعْظَمَ مِنَ الشَّمْسِ إِلَّا الْفَلَكُ ، وَالْفَلَكُ دَوَّارٌ .
١٠ وقالوا في الكسوف إِنَّ الْكَلَامَ فِيهِ مَا يُمْكِنُ إِلَّا بِالْوُقُوفِ عَلَى صُورَةِ
الْهَيْئَةِ ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ ، لَمْ يَجِدِ الْقَوْلَ . وقد أثبت قوله بما ظهر من الكسوف
الذي حُدَّ أَمْرُهُ وَقْتَ انْجِلَائِهِ وَمَبْلَغِ الْمُنْكَسَفِ مِنْهُ ؛ وَإِنْ الشَّمْسُ فِي
ذَاتِهَا لَا يَعْضُهَا شَيْءٌ غَيْرُ أَنَّ جَرَمَ الْقَمَرِ يَحُولُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأَرْضِ مَتَى
قَابَلَهَا ؛ وَكُسُوفُ الْقَمَرِ مِنْ مُقَابَلَةِ الْأَرْضِ .
١٥ وزعموا أَنَّ ضَوْءَ الْكَوَاكِبِ وَالْقَمَرِ مِنَ الشَّمْسِ ، وَأَنَّهَا أَجْرَامٌ شَفَافَةٌ
تَكْتَسِي النُّورَ مِنَ النَّيِّرِ الْأَعْظَمِ ؛ فَيَبْدُو ضَوْعُهَا بِفَيْيِهَا ، وَيَطْمَسُ عَلَيْهَا
طَلُوعُهَا . وهو قول الشاعر في ذلك :
لِأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُمْ كَوْكَبُ

٩١ - تحديد العلوم الطبيعية والطب

وقال أهل الطبيعة : إِنَّ لَا حَيَّوانَ إِلَّا بِالْحَرارةِ والرطوبة ، فَأَيْنَ مَا كَانَ الماءُ والشمسُ تولَّدَ فِيهِ الْحَيَّوانُ ، وقد يكون من غير نسلٍ . ونرى حَيَّوانًا يكون في جوف صَخْرَةٍ صَمَاءٍ مُلَمَّسَةٍ ؛ وَاللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ . قال تعالى (١) : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ، عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وَذَكَرَ عن الْحِجَّاجِ أَنَّهُ رَأَى فِي النَّامِ على حَالَةٍ حَسَنَةٍ ؛ فُسِّئِلَ عن ذَلِكَ ، على مَا كَانَ من جُورِهِ ؛ فَهَالَ : « رَجَعَنِي رَبِّي بِكَلِمَةٍ قُلْتُهَا : مَرَرْتُ يَوْمًا على زَرْعٍ ؛ فَقُلْتُ : لو شَاءَ اللهُ ، لَأَنْبَتَهُ فِي النَّارِ وَالْبَيْفَاعِ ! » (أى في الصَّحَارَى التي لَا ماءَ فِيهَا) وقال تعالى (٢) : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . ١٠

ولم يبلغ الإنسان بعلمه أَكْثَرَ من معرفة الطبيعة : علاجٌ ضعیفٌ لَا يرفع قدرًا أَكْثَرَ من تقويم المزاج عند انحرافه ؛ فمالجوا الأبدان بما أدركته ، عقولهم ، وجربوه بأعمارهم ، وتركوه سلفًا في الأواخر . فكلُّ يَمَانِي على مقدار تَجَرُّبَتِهِ (٣) وَلَا يُوَافِقُ الْقِرَاءَةُ حَقًّا حَسَنًا وَمَعْرِفَةٌ بِهَذَا الشَّأْنِ ، قَدْ أَخْطَأَ وَتَكَلَّفَ . * وقالوا إِنَّ الدَّواءَ الْمُسَهِّلَ للجسم بمنزلة الصابون للثوب : ١٥ (١) ٧٦

يُنْقِيهِ وَيُحَلِّقُهُ ؛ فَاسْتَعْمَلَهُ فِي زَمَانِ الْحَرِيفِ أَوَّلَى فِي سُلْطَانِ السَّوْدَاءِ فِيهِ ، كَمَا أَنَّ اسْتِعْمَالَ الْقَصْدِ فِي زَمَانِ الرَّبِيعِ تَحْقِيفٌ لَا يَحْطِى من أَخْرَاجِ فِيهِ الدَّمِ . وَإِنَّ أَشْبَهَ شَيْءٍ الْأَغْذِيَّةَ بِمَزَاجِ الْإِنْسَانِ : فَالْخُبْزُ النَّقِيُّ واللَّحْمُ الثَّنِيُّ والشَّرَابُ

(١) سورة الواقعة : ٦٠ - ٦١ . (٢) سورة النحل : ٨ .

(٣) بياض نحو كلمة في الأصل .

الْحَوِيلُ؛ فَمَنْ أَقْتَصَرَ عَلَى هَذِهِ دُونَ تَحْلِيلِ لَمْ يَزَلْ صَحِيحَ الْجِسْمِ ، قَوِيَ الْبَنِيَّةُ .
وقيل لجالينوس الحكيم ، وكان في زمان المسيح — عليه السلام — :
« إِنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ نَبِيًّا يَبْرَأُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ! » قَالَ : « وَأَنَا
أُعَالِجُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ! » فَلَمَّا قِيلَ : « يُخَيِّ الْمَوْتَى » لَمْ يُصَدِّقْ
هـ . ذَلِكَ حَتَّى رَأَاهُ مُعَايَنَةً حَقًّا .

٩٢ — نقض قول من ينكر أن الجن تتكلم

وَتُنْكِرُ الْحُكَمَاءُ مَا يَزْعِمُ النَّاسُ مِنْ رُؤْيَا الْجِنِّ ، وَتُكَذِّبُ مَنْ يَقُولُ
بِسَمَاعِ نُطْقِهِمْ أَوْ كَلَامِهِمْ عَلَى أَلْسِنَةِ الْبَشَرِ ، وَقَوْلُ إِنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا مِنْ لَه
لِسَانٍ وَاللَّهُ تَعْنِيهِ ، وَإِلَّا ، فَكَيْفَ تَنْطِقُ رِيحٌ تَهْبُ ؟ إِنَّمَا هُوَ بِرِسَامٍ
١٠ يَعْزُضُ فِي دِمَاقٍ مِّنْ يَدْعَى ذَلِكَ ؛ فَيَتَصَوَّرُ فِي دِمَاقِهِ أَمْرًا مَا يَخِيلُ لَهُ بِفَسَادِهِ
أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ وَيَسْمَعُ ، مَا لَيْسَ مِنْهُ شَيْءٌ عَلَى حَقِيقَةٍ ؛ فَيَهْدِي هَذَا نَا ، ضَرْبًا
مِنَ الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي يَكُونُ الْإِنْسَانُ ، مُفَكِّرًا فِي بَلَدِهِ أَوْ شَخْصٍ أَوْ صُورَةٍ
مِنَ الصُّوَرِ : إِذَا حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِهَا ، صَارَ كَالنَّاظِرِ إِلَيْهَا ، وَإِنْ سَدَّ عَيْنَيْهِ ،
أَوْ كَالنَّائِمِ يَرَى مَا تُحَدِّثُهُ بِهِ نَفْسُهُ ، أَوْ كَالنَّاظِرِ فِي الْمِرَاةِ يَرَى مَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ .
١٥ هَذَا ، لِعَمْرِى مَذْهَبٌ خُوفٌ بِهِ طَرِيقُ السُّنَّةِ . وَاللَّهُ يَقُولُ ^(١) : ﴿ قَالَ
غَفِرْتُ مِنَ الْجِنِّ ﴾ وَقَوْلُهُ ^(٢) : ﴿ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ ؛
وهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَكُونُ النُّطْقُ إِلَّا بِلِسَانٍ ، وَلَا الْمَرْوِيَّةُ إِلَّا بِبَصَرٍ
لَيْسَ عَلَى خَلْقَةِ الْإِنْسِ ، كُلٌّ عَلَى جِبِلَّةٍ ، يَرَى وَيَسْمَعُ وَيَعْقِلُ .
وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ تَدْنِ ، وَلَا سَبَّحَتْ ، وَلَا اهْتَدَتْ لِمَا يُسِّرَتْ لَهُ .

(٢) سورة الأعراف : ٢٧ .

(١) سورة النمل : ٢٩ .

إِنَّ الطَّيْرَ الَّتِي هِيَ عِنْدَنَا لَا تَعْقِلُ وَصَفَّاهَا اللَّهُ بِمَعْرِفَتِهِ ، قَالَ ^(١) : ﴿ وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ ؛ وَقَالَ تَعَالَى ^(٢) : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ . وَوَصَفَ بالسَّجُودِ النِّجْمَ* وَالشَّجَرِ وَالنُّوَابِ (٧٨) الَّتِي هِيَ عِنْدَنَا جَوَائِدُ . فَكَيْفَ أَحَدُ الثَّقَلَيْنِ الَّذِينَ بَشَّرَا بِالثَّوَابِ ، وَأَنْذَرَا بِالْعِقَابِ ، وَخُوطِبَا بِمَا خُوطِبَ بِهِ الْإِنْسُ . وَقَالَ تَعَالَى ^(٣) : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾ .

فَمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِأَنَّهُمْ لَا يَتَكَلَّمُونَ وَيَعْقِلُونَ ، فَلَا يُؤْمِنُ بِالْمَلَائِكَةِ ، وَيَحْتَاجُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ هَذَا نَسَقًا فِي كُلِّ مَنْ لَيْسَ لَهُ لِسَانٌ وَجَوَارِحُ أَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ بِجَوَارِحِ الْإِنْسَانِ ؛ فَالْمَلَائِكَةُ لَا تَوْصَفُ بِيَدٍ وَلَا لِسَانٍ ؛ وَهُمْ الْمَنْزُورُونَ بِالْوَحْيِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُخَاطَبُونَ لَهُمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ : فَلَا يُؤْمِنُ بِالرِّسَالَةِ مَنْ يَتَمَذَّهَبُ بِهَذَا .

٩٣ - حديث عن السرقة وعن هوم الهوى والشباب

وَقَالُوا إِنَّ الْجَمَاعَ مِنْ أَكْثَرِ أَذْوِيَةِ السَّوْدَاءِ لَسُرُورِ تِلْكَ السَّاعَةِ ؛ وَدُخُولِ الْحَمَامِ ، لَمَّا يَمْرُضُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْإِنْطِرَابِ فِيهِ . مَنْ سَرَّهُ أَنْ تَقَرَّ عَيْنُهُ حَيَاتِهِ ، فَلْيَتَمَتَّعْ مَا وَجَدَ سَهْوَةً شَهْوَتِهِ ؛ وَمَنْ اغْتَمَّ سَاعَةً لَدَيْهِ ؛ فَقَدْ عَمِيَ ؛ وَمَنْ أَخَّرَهَا ، فَقَدْ عَدِمَ ! فَإِنَّ الْإِنْسَانَ ابْنُ الْآنِ !

وَقَالُوا فِي الْجُلُوسِ عَلَى الْمِيَاهِ وَالرِّيَاحِينَ مِمَّا يُسَلِّي الْعَاشِقَ وَيَتَلَاوَى مِنْ أَحْزَانِهِ بِهِ . وَأَمَّا أَنَا ، فَأَقُولُ إِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ فِي تَذْكَارِهِ ؛ وَنَقِمِ الْبُرْهَانِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ لَا تَوَلَّعَ إِلَّا بِمَا اسْتَحْسَنَتْ ؛ فَكُلُّ مُسْتَحْسِنٍ تَرَاهُ

(١) سورة النور : ٤١ . (٢) سورة الإسراء : ٤٤ . (٣) سورة الأنعام : ١٣٠ .

يُخْرِجُهَا إِلَى ذِكْرِ الْأَسْنَى فِي خَاطِرِهَا ، وَكُلُّ حَدِيثٍ إِنَّمَا يَسُوقُهُ إِلَيْهِ ؛
وَكُلُّ مَا زِيدَ تَذْكَارًا زَادَ شَوْقًا ، فَأَعْقَبُهُ سَهْرًا وَقَلْعًا . وَالشَّيْءُ لَا يُعَاثَى
إِلَّا بِضَدِّهِ : فَكَيْفَ يَشْفَى بِحُسْنٍ وَيُسَلِّهِ حُسْنٌ ؟ بَلْ يُوقِظُهُ وَيَشْغَلُهُ !
أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَكْرُوبَ يَتَفَرَّجُ بِالسُّرُورِ ، وَالسُّرُورَ ، يَضْمَحِلُّ بِالْكَدْرِ ؟
وَلَيْسَ لِمَاشِقٍ مُرَزَّيْ بِمَالٍ وَلَا أَهْلٍ ، فَيَتَسَلَّى بِمَا يُذْهِبُ غُومَهُ ؛ بَلْ
هُوَ مِنْ شَأْنِهِ فِي لَذَّةٍ حُلَاوَتِهَا مَشُوبَةٌ بِحَرَارَةٍ : وَهُوَ حُكْمُ الْحُلُوكَةِ فِي
الْمُدَاقَةِ ، لَا يَكُونُ إِلَّا مَائِلًا إِلَى الْحَرَارَةِ ؟ وَكَذَلِكَ فِي الْمُشْتَهَاتِ : كُلُّ
مَا تَمَّتْ حَرَارَتُهُ ، طَابَ رِيحُهُ .

- وإذا قاس حالَ أَرْمَنِيَّةِ التي كانت تَسْرُهُ على ضروب من حالات
الصبوة ، لم يَجِدْ فِيهَا مَدَّةً كانت عنده أَفْضَلَ ، وَأَبْلَغَ فِي السُّرُورِ ، وَأَهْشَّ
لِلنَّفْسِ وَالنِّيقِ * بِالْحِسِّ وَأَذْكَى لِلْقَلْبِ ، وَأَصْفَى مَشْرَبًا ، وَأَهْنَأَ طَعْمًا ، مِنْ (١) ٧٧
تلك المَدَّةِ ، وَإِنْ كَانَ فِيهَا بَعْضُ جَوِّى ؛ فَإِنَّهُ « لَا بُدَّ بَعْدَ الشَّهْدِ
مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ » ، وَدَوَاؤُهُ ، مَا لَا يَرْضَاهُ ، وَلَا يَخْتَارُهُ بَدَلًا مِمَّا هُوَ
فِيهِ ؛ إِنْ يَشْغَلُهُ مِنْ ذَلِكَ خَطْبٌ كَبِيرٌ ، يَنْسَى بِهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ ، وَالَّذِى
هُوَ بِسَبِيلِهِ عِنْدَهُ أَوْلَى . ١٥

٩٤ — تأملات نظرية وأمثلة يَضْرِبُهَا الْمُؤَلِّفُ

مِنْ قِصَّةِ حَيَاتِهِ عَنِ الطُّمُوحِ وَزَوَالِ خَيْرَاتِ الدُّنْيَا

- وَالصَّبَوَةُ تُحَدِّثُ لِلإِنْسَانِ هَيْجَانًا وَهُمُومًا : كَالْمُهَمِّمِ بِالنَّظَرِ فِي مَالِهِ ،
أَوِ الْمُشْغَبِ بِمُحَاوَلَةِ مَا يُصْلِحُهُ ؛ فَلَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ ضَارًّا ، بَلْ يَوْمَئِذٍ مِنْهُ
مُكَابَدَةُ الْأَعْدَاءِ وَمَقَاسَاةُ طَلَبِ الْمَيْشِ ، الَّذِى ، إِنْ فُتِرَ عَنْهُ شَيْءٌ ، لَا طَلَبَ ٢٠

الزيادة في الرزق . فإن ذلك يسعى كالطير الذي هو بالخيار في الكد والراحة .

والنفس تَوَاقَّةٌ : متى سَمِعَتْ إلى مَرْتَبَةٍ ، تَأَقَّتْ إلى ما فوقها ؛ فالعَاقِلُ يرى أن كُلَّ كَيْدٍ وَطَلَبٍ دون السَّعْيِ في طَلَبِ ما لا بُدَّ منه من قِوَامِ العيش فَخَرٌ وَأَشْرٌ وَرَغْبَةٌ وَحِرْصٌ . ولذلك هو الإنسانُ عن كُلِّ شَيْءٍ مَسْئُولٌ ، إِلَّا عن ثَلَاثَةٍ : طَعَامٌ يَسُدُّ جَوْعَهُ ، وَثَوْبٌ يَسْتُرُ عَوْرَتَهُ ؛ وَبَيْتٌ يَكُنُّهُ مِنَ الشَّمْسِ . ولو أنَّ له الدُّنْيَا أَجْمَعُ ، لم يكن له منها زائداً إِلَّا حَظُّ العَيْنِ الذي يَسْتَوِي به فيه مع غَيْرِهِ مِنَ النَّاظِرِينَ ، فلم من تَبَاتِهِ ، وَتَوَرَّطَ هو في حِسَابِهِ وَأَرْزَارِهِ ، وما كَانَ إلى انْقِطَاعِ وَفَادٍ . فَحَقِيقٌ عَلَى اللَّيِّبِ أن يَزْهَدَ فِيهِ ؛ لو آكَلَتْ حَالُهُ إِلَى السَّلَامَةِ بَعْدَ ذَهَابِهِ ، لا عَلَيْهِ وَلَا لَهُ ؛ فَكَيْفَ ، وهو قد أَيقَنَ بِالْفَنَاءِ وَبَعْدَهُ الْحِسَابُ وَالْجَنَّةُ أَوْ النَّارُ ؟ وقال الْمَسِيحُ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — : « الدُّنْيَا فَنَظْرَةٌ : فَاعْبُرُوهَا وَلَا تَعْمُرُوهَا ! » على أَنَّهُ لا يُوجَدُ أَحَدٌ يَزْهَدُ في حَالِ كُلِّ الزَّهَادَةِ ، حَتَّى يَبْلُغَ مِنْهُ أَمَلُهُ أَوْ بَعْضُهُ ؛ فَإِنَّ الزَّهَادَةَ الطَّبِيعِيَّةَ إِنَّمَا تَكُونُ فيما تَكْرَهُهُ النَّفْسُ ، ولا بُدَّ مِنْ مِثْلِهَا إِلَى ما فِيهِ أَذَى مُرَوِّرٍ . وَاللَّهُ يَقُولُ في الْإِنْسَانَ ، لَعَلِمِهِ بِهِ ^(١) : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ ؛ فَكَأَنَّ الشَّيْءَ ، إِذَا أُذِرَكَ ، انصرفت عنه النَّفْسُ لِبُلُوغِ نَهْمَتِهَا ؛ وَمَتَى تَمَنَّعَ عَلَيْهَا ، كَانَتْ بِهِ أَشَدَّ (ب) كَلْفًا .

وَلَقَدْ بَلَّوْتُ مِنْ نَفْسِي بَعْضَ ذَلِكَ ، إِذِ الطَّبَعُ الْبَشَرِيُّ وَاحِدٌ ، لَا يَكَادُ يَخْتَلِفُ إِلَّا فِي الْأَقَلِّ ؛ وَلِذَلِكَ أَمَرَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجِبَ لِأَبْنَاءِ

جنسه ما يحب لنفسه ، حظاً على العدل والإنصاف .

وأجدنى فى كثرة المال ، بعد تملكى عليه مع ذهابه ، أزهده منى فيه قبل اكتسابه ، مع شُفوفِ الحال إذ ذاك على ما هى عليه الآن . وكذلك شأنى كله فى كل ما أذكر كنته قبل من الأمر والنهى ؛ واكتساب الذخائر ، والتأنى فى المطاعيم والملابس والمراكب والمباني ، وما شاكل من الأحوال الرفيعة التى نشأنا عليها ، حتى إنه لم يبق من ذلك ما تتمناه النفس ، وما لا تظنه ، إلا وقد بلغنا منه الغاية ، وتجاوزنا فيه النهاية ؛ ولم يكن عند الحصول عليه ينقطع ويذهب وشيكاً ، فتطول عليه الحسرة ، ويُعد من جملة الأحلام ! بل ، تمدى برهة من عشرين عاماً ؛ وما كان قبله يكاد أن يؤاخره ؛ إذ رُبِّينا فى حِجره . ١٠

ووجدتني ، بعد فقد هذا كله ، على الولد أحرص منى على ما سواه من كل ما وصفنا ، لقدم ذلك الوقت ؛ وقلت فى نفسى : « الغاية التى إليها يسعى الناس من أمر دنياهم ، قد أذكر كناها ، وشهرنا بها فى الآفاق ؛ ولا بد من فقدِها ، باكراً كان أو مؤخراً ، بحياة أو موت ! فنحسب هذه العشرين عاماً هى مائة عام ، إذا تمت ؛ سواء ، وكان لم تغن بالأمس ! ونحن الآن جدراهُ بالنظر فيما تبتغيه . والله أن يقضى ما شاء ! » وقيل لرجل حراث : « هل زرعت ؟ » فقال : حرثنا . والله الزارع ! » وكذلك ذكر أنه لم يبق من المتوكلين على الله غير المزارعين ؛ فإنهم يدفنون فى الأرض أقواتهم ويطلبون فضل الله وبركته . ١٥

٩٥ - يتحدث المؤلف عن أولاده

وكان تديرونا هذا إلهاماً لينفذ القدر ، بكون من نشأ لنا من الولد .
لم يتبعه وقته ، ولا كان في غير مكانه .

(وذكر * الفلاسفة أن الوحي يتجزأ على ثلاث : كلام وإلهام ، ٧٨ (١) ومنام ؛ وهو قوله تعالى ^(١) : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ . وقيل في قوله ^(٢) - عز وجل - ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ إنما كان وحي إلهام . وكان النبي - عليه السلام - يقول في بعض أقسامه : « لا ا ومقلب القلوب ! » فإنها بين يدي الرحمن يُقلبها كيف شاء لينفذ فيه أحكامه وتجري عليها أقداره .)

١٠ فما بقي لنا من الآمال غير مالٍ حلالٍ للعاش ، يفنى عن السؤال ، وعملٍ صالحٍ للعداد ، يُنجي من العقاب ويوجب الثواب .
وقد كان سقراط الحكيم يكره الوطأ مدة عمره ، يعتقذ بذلك أنه مُهْرَمٌ للجسم ومُسْرِعٌ إلى الفناء ، قد قيل إن فاعل ذلك مُقتَسِنٌ من حياته ؛ فمن شاء ، فليقتل ، ومن شاء فليكثر ! ولهذا أرجح الجاحظ ١٥ في « كتاب الحيوان » بأن الخصى إنما طال عمره من أنه لا يُجامع .

وأما أنا أقول إن تلك الساعة التي يستحيل فيها عن الإنسانية بقطعه إلى الـ ^(٣) أشد استغراباً ، وأذهب لجوهرية ، وأقطع لروقه من أن لو جامع كل يوم في عمره عشر مرات ؛ لأن المجامع يُخرج

(٢) سورة القصص : ٧ .

(١) سورة النحل : ٦٨ .

(٣) بياض كلمة في الأصل ؛ ولعله : « الحيوانية » .

للفضول ، وهذا خُرُجٌ منه الجَوْهَرُ ، وفُرُغَتْ عروقه ، ولَبِثَتْ لحمه ، وأَضَعِفَتْ عَصَبُهُ ، وأَرَخَتْ جِلْدَتَهُ .

ولَمَّا كَبِرَ سِنَّ سُقْرَاطَ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ الْكِبَرِ إِلَّا الْمَوْتُ ، جَامَعَ مَرَّةً مِنْ عُمْرِهِ ، آخِرَ زَمَانِهِ ، وتَأَوَّلَ فِي ذَلِكَ إِنَّمَالًا لِحِكْمَةِ الْبَارِئِ — عَزَّ وَجَلَّ — ؛ وَقَالَ : « لَمْ تَكُنْ حِكْمَةُ النِّسْلِ إِلَّا بِهَذَا الْقَعْلِ ؛ وَإِنْ أَنَا مُتُّ تَارِكًا لَهُ أَصْلًا ، كُنْتُ كَالسَّاحِطِ أَوِ الْمُتْنَتِ لِمَا رَبَّتَهُ الرَّبُّ ، وَعَسَى بِذَلِكَ نَسْتَوْجِبُ عِقَابَهُ ! » ثُمَّ قَالَ ، إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ : « مَا أَظُنُّ عِيًّا عَلَى إِلَّا مُجَامَعَةَ تِلْكَ السَّاعَةِ ! »

وكان من نعمة الله على أن رزقني بكرة أولادى ابنة ، لم يزل قَبِيلُنَا كَلَّهُ يَتَبَرَّكُ بِهَا ، وَيَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ بِكْرُهُ ابْنًا ذَكَرًا . وقد رأينا في سَيْفِ الدَّوْلَةِ أَيْنًا — رَحِمَهُ اللَّهُ — أَنْ لَمْ تَمْ لَهُ فَرَحُهُ بِذَلِكَ ؛ عَلَى أَنَّ هَذَا * لَيْسَ ٧٨ (ب) عَلَى الْعَمُومِ ؛ وَإِنَّمَا ذَكَرْنَاهُ لِلتَّضَاوُلِ ، إِذْ قَالَ قَبِيلُنَا — عَلَيْهِ السَّلَامُ — : « تَفَاءَلُوا وَلَا تَطْيَرُوا ! » فَنَحْنُ قَدْ تَفَاءَلْنَا ، لَا سِيَّامَا بِمَا شَهِرَ عِنْدَ أَهَالِينَا وَقَالُوهُ قَدِيمًا ؛ وَلَوْ كَانَ ضِدَّهُ ، مَا ذَكَرْنَاهُ ، لِلنَّهْيِ عَنْهُ .

١٥ ثُمَّ رَزَقْنَا بَعْدَ هَذَا ابْنَيْنِ ؛ فَلَمْ يُبَشِّرْ بِالْأُنْثَيْنِ ، كَيْ لَا يَجْتَمِعَ عَلَيْنَا حُزْنُ ذَلِكَ مَعَ مَا نَحْنُ فِي سَبِيلِهِ ، لُطْفًا مِنَ الْوَهَّابِ وَإِنْعَامًا وَإِحْسَانًا . فَتَعَدَّادُ رِيعِ اللَّهِ شُكْرُهَا ، وَالْإِعْلَانُ عَلَى وَجْهِ الشُّكْرِ وَالتَّقْوَى ، لَا عَلَى الْفَخْرِ وَالْحَبْلَاءِ ، مِنْ أَوْجَبِ مَا يَأْخُذُ بِهِ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ . قَالَ النَّبِيُّ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ، وَلَا فَخْرَ ؛ وَأَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ ، وَلَا فَخْرَ ! »

٩٦ — توجه المؤلف الحديث إلى قراءته ، راضين عنه

أو ساخطين عليه

ثم انصرف وجهُ اهْتِبَالِنَا إلى وَضْعِ هذا الكتاب ، وهو لَعَمْرِي بمنزلة
الابنِ الذي يُبْنِي ذِكْرَ أبيه في العالم ، لِنُبَيِّنَ به عن أَنْفُسِنَا مَا أَشْكَلَ على
الجاهل من مقالةٍ سود [في دَوْلَةٍ ،] زَعَمَ الحاسِدُونَ أَنَّ منها كان سقوطُنا .
ولن نعلم مع هذا بَرَكَتَهَا لِمَا نرجوه من ثوابنا ، وَحَسَنَاتِهِ لِبُعْدِنَا منها
ونزاهتنا عنها . وَإِنَّمَا وَضَعْنَا هذا الكتاب لمن أَشْكَلَ عليه الأمرُ من أهل
الفضل والحق ، الْمُحِبِّينَ ^(١) لله فينا ، الوادِّينَ ^(٢) الْخَيْرَ لنا ؛ ولا يزيد
الْبُغَاةُ إِلَّا طَغْيَانًا وَتَعْنِيَةً .

١٠ فَرُدُّ عَلَى أَهْلِ الْإِنصَافِ وَذَوِي الْأَلْبَابِ :

« إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الْخَاطِبُونَ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ! فَعَلَيْكُمْ اعْتِمَادُنَا ، وَإِنَّا كُمْ
خَاطِبُونَ ، وَلَكُمْ مَا تَكَلَّمْنَا ! فَلَا تَعْبَى بِكُمْ عَنِ الْمَعْرِفَةِ تَحِيدُكُمْ عَنِ الْمِنْهَاجِ ؛
وَلَا شَتَانَ لِرَبِّهِ سَلَفَتْ تُحَرِّقُكُمْ إِلَى نَفْثَاتِ الْخَافِدِينَ ! وَاللَّهُ يَجْعَلُنَا فِي الْجَنَّةِ
إِخْوَانًا ، كَمَا جَعَلَنَا عَلَى الْخَيْرِ أَعْوَانًا ! »

١٥ وَفَرُدُّ عَلَى مَنْ اعْتَزَّضَ جَهْلًا أَوْ حِقْدًا :

« اخْشَأْ بِجَهْلِكَ ، وَمُتْ بِتَغِيظِكَ ! فَلَيْسَتْ الْأَقْدَارُ جَارِيَةً عَلَى
اخْتِيَارِكَ ، وَلَا أَنْتَ الْمُخَاطَبُ ! بَلْ تَأْخُذُ بِأَدَبِ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ — عَلَيْهِ
السَّلَام — فِي قَوْلِهِ ^(٣) : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ
الْعُرْفِ ﴾ .

(٢) أصل : « الوادون » .

(١) أصل : « المحبون » .

(٣) سورة الأعراف : ١٩٩ .

الجاهِلين ﴿ . وهل تنعم ، أيها الطاعن لنا ، أن ورثنا مُلكاً عن آباء
كِرَام ، يَوْمٌ منه خَيْرٌ من عُمرِكَ كُلِّهِ ؟ إِذْ قَالَتْ * الْعُلَمَاءُ إِنَّهُ مِنْ عَاشِ ٧٩ (١)
ذَا فَضِّلَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَصْحَابِهِ ، فَهُوَ ، وَإِنْ قَصُرَ عُمرُهُ ، طَوِيلُ الْعُمُرِ ،
مَعَ أَنَّهُ كَانَ فِي طَاعَةٍ لَمْ تُوصَفْ مُقَدِّمًا ، بِحَمْدِ اللَّهِ ، بِجَوْرِ وَلَا طَغْيَانٍ ،
وَلَا سَفَكْنَا دَمًا ، وَلَا غَضَبْنَا مَالًا . وَكَانَتْ مَدَّتُنَا فِيهِ نَحْوُ مِنْ عَشْرِينَ ٥
عَامًا خَيْرًا مِنْ سِنِينَ ، إِذْ لَيْلَةُ الْقَدَرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ . وَتَمَامُ الْمَدَدِ
عَلَى قَدِيمِ الدَّهْرِ عَادَةٌ لَا تُسْتَغْرَبُ لَنَا خَاصَّةً . وَلَا بُدٌّ مِنَ الْفِرَاقِ ! فَلِلَّهِ الْحُدُ
إِذْ لَمْ نَفْقِدْهَا بِفَقْدِ عَقُولِنَا وَلَا أَدْيَانِنَا ، وَلَا نَمُتْ بِنِفَادِ أَعْمَارِنَا : فَيَوْمٌ مِنْ عُمرِ
الْإِنْسَانِ يَذْكُرُ اللَّهُ فِيهِ خَيْرٌ مِنْ تَمَامِ عَمَلِهِ ؛ وَمَيْتَةٌ عَلَى بَلَاءٍ وَتَذْكَارٍ
خَيْرٌ مِنْ مَيْتَةٍ عَلَى فِتْنَةٍ غَفْلَةٍ . ٥

٩٧ - يدفع المؤلف عن نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه
من أخطاء حياته الخاصة .

نَمْ أَضْرَبْتُ عَنْ وَصْفِ كُلِّ جَمِيلٍ قَعْلَنَاهُ ، وَحَزَمَ اسْتَشْرَعْنَاهُ ،
وَحِدْمَةٌ لِلدَّوْلَةِ تَكَلَّفْنَاهَا .

١٥ وَطَلَبْتُ بُنْيَاتِ الطَّرِيقِ ، وَتَتَبَعْتُ مَا لَا عَارَ فِيهِ عَلَى الْمَلِكِ . وَلَا تَقْصَانِ
فِي الْمَمْلَكَةِ ، مِنْ رَاحَةٍ تُخْتَلَسُ عِنْدَ الْفِرَاقِ مِنَ الشُّغْلِ كَيْ تَعْقِبَ نَشَاطًا ،
وَعَمَّا دُفِعْنَا إِلَيْهِ تَسْلِيَةً . فَقَدْ قَالَتِ الْحُكَمَاءُ : « تَرَكَ الْأَذَاتِ يُعْقِبُ
الْبَرَدَةَ ، وَيُوْثِّرُ فِي الْحِلْدِ أَدْوَاءَ مُنْكَرَةٍ . وَقِيلَ : إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلرَّءِ
عَلَى الْبَقَاءِ مَقْدُورَةٌ ، فَلْيَتَمَتَّعْ ؛ فَإِنْ تَرَكَ ذَلِكَ لِلنَّفْسِ .

٢٠ فَهَجَّجْنَا بِلِقْظِكَ ، وَأَخْرَجْنَا مِنْ حَيْرِ الْمَزَلِ إِلَى الْجَدِّ ، وَكُنْتَ كَجَارِ

سُبَّة : إِنْ رَأَى حَسَنَةً ، كَتَمَهَا ؛ وَإِنْ رَأَى سَيِّئَةً ، أَدَاعَهَا . فَطَفَفَتْ وَأَرْبَيْتَ إِنْ افْتَرَيْتَ ، وَمَا أَدَعَتْ هَذَا ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ أَكُنْ مَخْلُوعَ الْعَذَارِ ، وَلَا أَطْلُتُ إِلَى رَاحَةِ تَوْجِبِ الْغَفْلَةِ ، كَالَّذِي صَنَعَ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا مِنَ الْمُلُوكِ ، وَتَعَفَّفْنَا عَنِ الدِّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَالْحُرِّمِ !

وَلَمْ يَبْقَ لَكَ مَا تَقُولُ : « إِنْمَا كَانَ صَاحِبُ غَرَنَاطَةِ حَرِيصًا عَلَى جَمْعِ الْمَالِ ، مُحِبًّا فِي الْحِسَانِ ، يُنَادِمُ الصَّبِيَّانِ ! » [وَإِذَا] لَمْ تُحَسِّنِ الرُّوْيَةَ ، وَلَا ظَنَنْتَهُ فِكْرًا .

- أَلَسْتُ تَعْلَمُ ، أَيُّهَا الْجَاهِلُ ، أَنَّ الْمَلِكَ لَا يَنْتَفِعُ مِنَ الْمَالِ إِلَّا بِمَا كَانَ أَوْقَارًا ؟ وَهَلْ اسْتَوْجِبَ الْمَلِكُ إِلَّا بِذَلِكَ ؟ وَكَيْفَ لَا يَحْرُسُ عَلَى صِيَانَةِ عِزِّهِ وَالْعُدَّةِ عَلَى عَدُوِّهِ ؟ مَا أَنْسَاكَ لَوْ عَلِمْتَ أَنَّهُ مَنَعَ مِنْ حَقِّي أَوْ أُعْطِيَ ١٠ فِي غَيْرِ مَا يَجِبُ ؟ هَلْ مَتَى ضَاعَ مَعْقِلٌ ، أَوْ رَفُضَ جُنْدًا ، وَدَخَلَتْ ٧٩ (ب) دَاخِلَةٌ مِنَ التَّقْتِيرِ أَوْ لِلنَّعْ ؟ أَوْ مَتَى شَكَرَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ أَخَذَ مَالًا بَغَيْرِ حَقِّ ؟ لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَى تَزْوِيرِ ذَلِكَ ! فَالْأَغْلَبُ يَعْلَمُ صِحَّتَهُ . وَأَكْثَرُ مِنْ قَوْلِكَ مَتَى خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ شَاعِرٌ بِصِلَةٍ جَزَلَةٍ ، أَوْ مَتَى خَرَجَ [مَادِحٌ] ١٥ بِكَسْوَةٍ سَنِيَّةٍ : أَمْرٌ لَا يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى اعْتِدَارٍ ، إِذَا الْعَمَلُ بِهِ مِنَ الْأَذْبَارِ . وَأَمَّا مُنَادِمَةُ الصَّبِيَّانِ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ يَدُّ مِنْ اسْتِعْمَالِ شَيْءٍ مِنَ الْخَمْرِ ، الَّتِي قَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْهَا ، فَالِلْمَقَارِ وَالرِّيَّارِ ؟ لَيْسَ هَذَا تَجَلُّسَ حُكْمٍ : فَيُتَخَيَّرُ لَهُ ذَوُو الْأَسْنَانِ ، وَلَا يُضَيَّعُ لِتَدْيِيرِ رَأْيٍ ، فَيُشَاوَرُ فِيهِ أَهْلُ الْعِلْمِ ، وَلَا مَيِّدَانِ حَرْبٍ ، فَيُدْعَى إِلَيْهِ أَمْجَادُ الْقُرْسَانِ ! وَلِكُلِّ وَقْتٍ حِكْمٌ : ٢٠ مِنْ اسْتِعْمَالٍ فِيهِ غَيْرُ شَاكِتٍ ، قَدْ جَهَلَ . وَلَمْ نَكُنْ مَعَ هَذَا نَأْخُذُ مَعَهُمْ فِي جِدِّ ، وَلَا نُمَكِّنُهُمْ مِنْ أَمْرِ ، وَلَا نُنْهَضُهُمْ إِلَى غَيْرِ طَرِيقَتِهِمْ ؟

والمُسْتَعْمَلُونَ لخدمَةِ الدولة مشهورُونَ ؛ مَعْنًى لَهُ حِفْظٌ وَدَرَجَةٌ :
والخديمُ لَا يَكُونُ نَدِيمًا : كَيْفَ تَصُولُ الْيَوْمَ عَلَى مَنْ أَطْلَعَ عَلَى عَوْرَاتِكَ
البارحة ، إِذِ الشُّكْرُ عَوْرَةٌ ؟ أَمْ كَيْفَ تَأْمُرُ بِخِدْمَةِ الْجُنْدِيَّةِ وَالشَّدَّةِ عَلَيْهِ
فِي الْخُرُوجِ مَنْ تَعَاطَى مَعَكَ الْكَأْسَ ، وَكَثُرَ مَعَكَ الْمَزَاحُ وَالْعَرَبْدَةُ ؟ ثُمَّ
تَطْلُبُهُ لِيَلِدَمَتِكَ ، فَتَجِدُهُ عَشُولًا عَمَّا يَصْلُحُكَ مَشْغُولًا .

- وَبَغْيَرِ هَذَا كُلِّهِ ، فَإِنَّ الدُّوَلَةَ الْكِبَارَ لَمْ يَزَلْ فِيهَا الْعِلْمَانُ وَأَبْنَاءُ
الصَّنَائِعِ صِنَارًا وَكِبَارًا ، عَبِيدًا وَأَحْرَارًا ، وَهُمْ بَيْنَ يَدَيِ الرَّئِيسِ جَمَالٌ ،
وَعَلَى خِدْمَتِهِ أَعْوَانٌ ؛ وَيتَصَرَّفُ الصَّغِيرُ السِّنِّ فِيمَا لَا يَنْبَغِي لِلْمُسِنَّ أَنْ
يَتَوَلَّاهُ . وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ وَرُتْبَةٍ . وَهَلِ الْمُلْكُ وَالْمَالُ إِلَّا لِلتَّزْيِينِ وَالتَّجَمُّلِ
بِهِ ، وَاتِّخَابُ الْحِسَانِ مِنْهُمْ تَلِيقٌ بِهِمْ الْكِسْوَةُ السَّنِيَّةُ وَالرَّارِكَبُ الْفَارِهَةُ ؟
وَأَخُوكَ مِنْ وَاتَاكَ ، إِذْ يَتَعَبَّدُ بِمَالِكَ مِنْ شَتَّى يَتَعَبَّدُ [خِدْمَتِكَ مِنْ]
حُرٍّ أَوْ مَمْلُوكٍ . وَإِنَّ ابْنَ الْإِنْسَانِ ، إِذَا لَمْ يَصْلُحْ لَهُ إِنْ يَقُلْ
هَذَا ، أَيْ عَمَلٍ وَلَيْتَاهُ عَلَى بِلَّةٍ ، أَوْ صَرَفْنَا إِلَيْهِ حُكْمَ رَعِيَّةٍ ؟ إِلَّا
مَا وَصَفْنَاهُ ، لَا أَدْرِي غَيْرَهُ * وَإِلَّا فَتَكُونُ مُجْرِحًا ، وَلَا شَارِيكَ ٨٠ (١)
عَاضِدًا ، أَوْ تَكُونُ قَاضِيًا مُسْتَوْجِبًا (١) !

جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ عَنِ الشَّرِّ مُعْرِضِينَ ، وَبَطَاعَتَهُ عَامِلِينَ ! إِنَّهُ أَكْرَمُ
الْأَكْرَمِينَ ! لَا رَبَّ غَيْرَهُ ، وَلَا إِلَهَ حَقَّ حَاشَاهُ !

(١) وقع خرم ومحو كثير في آخر صفحة من المخطوط المنقول عنه .

كَمَلُ الْكِتَابِ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ . وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى
سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

الملحق الأول

مُتَخَبَات عَنْ « كِتَابِ الْبَيَانِ الْمَغْرِبِ »^(١)

لَاِبْنِ عِذَارِي الْمُرَّاكُشِيِّ

عَنْ دَوْلَةِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُبْلَقِينَ بْنِ زِيرِي

(١)

٥ وفي سنة ٤٦٥ ، كانت وفاة باديس بن حَبُوس على قول المرَّادِي .
والأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ وَفَاتِهِ كَانَتْ ٤٦٩ ؛ هَكَذَا ذَكَرَ ابْنُ الْقَطَّانِ فِي « نَظْمِ
الْجَمَانِ » .

ذَكَرَ بَيْعَةَ حَفِيدِ بَادِيسِ بْنِ حَبُوسِ

هو عبد الله بن مُبْلَقِينَ الْمَالِكِ بتدبير اليهودي المتقدم ذكره . وتسمى
١٠ بِالْمُظَفَّرِ بِاللَّهِ ، الناصر لدين الله . وكان غلاماً لم يبلغ الحلم ؛ فَاتَّفَقَ عَلَى
مُبَايَعَتِهِ وَزَرَّاهُ جَدَّهُ وَوَجَّوهُ صِنْهَاجَةً . وانفرد بأمره رجلٌ منهم يُعْرَفُ
بِسِمَاجَةٍ ؛ فَاسْتَقْلَّ بِحَالِهِ وَرِيَاسَتِهِ . وكان لباديس وَلَدٌ خَلْفَ مِنَ الْبَنِينَ ،
وكان قد أعطاه في حياته مدينة جَيَّانَ ؛ فَكَانَ يَنْهَمِكُ فِي شَرَبِ مِنَ الْخَمْرِ ،
وَيُحَدِّثُ أَحْدَاثًا قَبِيحَةً مِنَ الْقَتْلِ ؛ وَكَانَتْ لَهُ كَلْبَةٌ سَمَّاها لُبُونَةً ؛ فَمِنْ أَحْدَثَ
١٥ لَهُ حَادِثًا أَوْ اسْتَوْجِبَ عِقُوبَةً ، أَمَرَ بِهِ ، فَرُمِيَ إِلَى الْكَلْبَةِ ، فَأَكَلَتْهُ .

(١) عَنْ مَخْلُوطِ مَكْتَبَةِ جَامِعِ الْفَرْوِينِ بِفَاسَ (دَقْم ١٨٥٥) لَمْ يَنْشُرْ نَصَهُ إِلَى الْآنَ .

فتفرق الناس عنه وكرهوه ، واتفقوا على تقديم عبد الله بن بُلقين المذكور .
فقام بأمره سِماجةٌ خير قيام .

وطمع ابن عباد في رجوع تلك الجهة إليه لموت باديس ؛ فحشد من
كان عنده ، واستكثر من الجند ، وقدم إلى إغرناطة ؛ فبرز عليها وبنى
٥ بقرها حصناً على ستة فراسخ منها ، وملأه بالزُمامة والرجالة ، وترك الخيل
فيه مع قائده ، وأمرهم بالضرب على إغرناطة وجيَّارها . فكان ذلك .
ثم لم يزل سِماجة يخدم الصبي إلى أن بلغ مبلغ الرجال ؛ فأراد الانفراد
بماله ؛ فنفى عن نفسه سِماجة ؛ فلهق بالمرية بمال كثير وحالة جسيمة ؛
ولم يزل بها إلى أن هلك . وبقى عبد الله بن بُلقين بفرنطاة . وسيأتي
١٠ خبره في دولة الرُّبطين إن شاء الله تعالى .

(٢)

وفي سنة ٤٨٢ ، طرد عبد الله بن بُلقين من غرناطة مُقاتِل بن عَطِيَّة
الزَّتَّانِي ، وكان فارسَ الإسلام ، وهو مع إخوته في ثلاثمائة فارس . فكان
ذلك ابتداء تحوس عبد الله بن بُلقين .
١٥ وفيها ، قام مؤمِّل ، مولى باديس بن حبُّوس ، في قصبة لوشة ، على
خفيد مولاه بدعوة كمتونة ؛ فأخذه عبد الله وسجنه .

.....

فأول من شهر اختلاف على يوسف بن تاشفين صاحب إغرناطة عبد الله
ابن بُلقين ، كما ذكرنا ؛ فنظر في اختزان الأقوات ، وألحق الرُّمامة
٢٠ والرجال ، وأعلى الأبراج ، وبنى الأسوار ، ووصل بعضها ببعض ، وأقام

عليها الدِّيبَانَات ، ونصب الرِّعَادَات ، وملأ بيوت السلاح ، وجدَّ في ضرب السَّهَام ، وبذل في ذلك جهده ؛ وإذا نفدت هذه ، لم تكن المَدَّة ؛ ونقل المال والذخيرة ، وخرَّج المتاع والآنية إلى قَصَبَةِ الْمَنَكَب لكَوْنِهَا في غاية النعمة وعلى ضَفَّة البحر ؛ ولم يستأصل ذلك لكثرتِه ؛ وهدم حصونًا ، توهم عليه القيام منها ، ومن مَأْمَنِهِ يوتى الخذر .

وعمد على مال كثير ، وثياب قبيسة ، وتُحَفٌ جلييلة ، وأعلاق رقيقة ؛ فوجهَ بها إلى الإذْفُونَش ، وكتب إليه متطارحًا عليه ، مستجيرًا به ، وأعلمه أن البلد بلدُه ، وأنه فيه فائدة . فاهتزَّ لذلك إذْفُونَشُ ، وقبل المال والهدايا ، وأقسم بجميع أيمانه ومعتقد مَأْتِه أن يشدَّ اليد عليه في ملكه ، ولا يتركه لضَمِّهِ ولا هُضْمِهِ ، وأن ينهض إليه بنفسه ويبدل جدَّه في نصره ؛ وراجعه بمثل ذلك من قوله . فتوitt قصُ حفيد باديس بذلك .

وفي ذلك يقول السَّمْسَارِيُّ :

صَاحِبُ غَرْنَاطَةِ مَتَفِيَّةٍ وَأَعْلَمُ النَّاسِ بِالْأُمُورِ
صَانِعُ إِذْفُونَشٍ وَالنَّصَارَى فَأَنْظَرُ إِلَى رَأْيِهِ الدِّيرِ
وَشَادَ بَنِيَانَهُ خِلَافًا لَطَاعَةِ اللَّهِ وَالْأَمِيرِ
يَبْنِي عَلَى نَفْسِهِ سَفَاهًا كَأَنَّهُ دَوْدَةُ الْحَرِيرِ
دَعَاؤُهُ يَبْنِي فَسَوْفَ يَدْرِي إِذَا أَتَتْ قُدْرَةُ الْقَدِيرِ

١٥

وَاتَّصَلَتْ أَنْبَاؤُهُ بِأَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَقِيقَتِهَا ؛ فَاشْتَدَّ غَضَبُهُ ؛ وَاسْتَزَادَ

جزعه .

٢٠ وَكَانَ أَبُو جَعْفَرٍ الْقَلْبِيُّ مِنْ أَهْلِ إِغْرَنَاطَةِ فَرِيدِ عَصْرِهِ فِي الْخَيْرِ وَالْعِلْمِ

وَالْتَّلَاوَةِ ، وَالْمُشَارِ إِلَيْهِ

الملحق الثانى

متنخبات عن « كتاب الإحاطة فى تأريخ غرناطة »
للسان الدين ابن الخطيب السلماني

(١)

ترجمة عبد الله بن بلقين^(١)

٥ عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيرى بن
مناد الصنهاجى أمير غرناطة .

أوليتته : قد مرّ ذلك فى اسم جدّه ما فيه كفاية^(٢) .

حاله : لقبه المظفر بالله ، الناصر لدين الله . ولى بعد جدّه الحاجب

المظفر بالله فى شوال سنة ٤٦٥ . وصحبه سماعة الصنهاجى تسع سنين .

١٠ ﴿ قال الغافقى : ﴾ وكان قد حاز حظاً وافراً من البلاغة والمعرفة ،

شاعراً جيّداً الشعر ، مطبوعه ، حسن الخط ؛ كانت بفرناطة ربعة موصّفة

بخطّه فى نهاية الصنعة والإتقان .

﴿ ووصفه ابن الصيرفى ؛ فقال : ﴾ كان جباناً ، مغمداً السيف ،

(١) مخطوطة الاسكوريال (رقم ١٦٧٣) ، ص ٢١٤ .

(٢) راجع « مركز الإحاطة » (ط القاهرة) ج ١ ، ص ٢٣٨ : ترجمة الأمير باديس بن

حبوس الصنهاجى .

قلعاً ، لا يثبت على الظهر ، عِزْهَاءَ ، لا أَرَبَ له في النساء ، هِيَابَةً ، مفرط الجزع ، يخلد إلى الراحة ، ويستوزر الأغمار .

خلعه : ﴿ قال : ﴾ وفي عام ٤٨٣ ، تحرك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين لخلع رؤساء الأندلس ؛ فأجاز البحر ويَمَّ قُرْطُبَةَ . وتواترت الأنباء على حفيد باديس صاحب غرناطة بما يغيظه ويحقدّه ، حسباً تقدّم^(١) في اسم مؤمّل مَوْتَى باديس . وقدّم إلى غرناطة أربع محلات ؛ فنزلت بمقربة منها ، ولم تمتدّ يده إلى شيء بوجّه ؛ فسرّ الناس واستبشروا ، وأمنت البادية ، وتسايَل أهلُ الحاضرة إلى القرى . وأسرع حفيد باديس في المال ، وألحق السوق والحاكّة ، واستكثر من الليف ، وألح بالكتب على إذفونش بما يطمعه .

وتحقّق يوسف بن تاشفين استشراف الحضرة إلى مقدّمه ؛ فتحرّك . وفي ليلة الأحد ثلاث عشرة خَلَتْ من رجب ، اجتمع إلى حفيد باديس صَنَائمه ؛ فخوفوه من عاقبة التريّص ، وحمّاه على الخروج إليه . فركب ، وركبت أمّه ، وخرجا ؛ وتركّا القصر على حاله ؛ ولقي أمير المسلمين على فرسخين من المدينة ، فترجّل وسأله العفو ؛ فعفا عنه ووقف عليه ، وأمره بالركوب ؛ فركب وأقبل حتى نزل بالمشيخة^(٢) من خارج الحضرة . واضطربت المحلات ، وأمر مؤمّلًا بشقاف القصر ، فتولّى ذلك .

وخرج الجُم من أهل المدينة ؛ فبايعوا أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ؛

(١) راجع أسفله ، ص ٢١٢ .

(٢) اسم مكان من خارج غرناطة لم نعرّ عليه . وإنما ثبتناه عن النسخة الثانية الاسكوريالية من

« الإحاطة » . وفي النسخة الأولى : « بالمشايخ » .

قبلهم وأنسهم وسكن جانبهم ؛ فاطمأنوا . وسئل مؤملٌ إليه دخول الأعيان ؛ فأمر بكتِّب الصكوك ورفع أنواع القبالات والخراج ، إلا زكاة العين وصَدقة الماشية وعشر الزرع . واستقصى ما كان بالقصر ؛ فظهر على ما يحول الناظر ، ويروع الخاطر ، من الأغلاق والذخيرة والحلى ، ونفيس الجواهر ، وأحجار الياقوت ، وقصب الزمرد ، وآنية الذهب والفضة ، وأطباق البلُّور المحكم ، والجُرَّانيات ، والعراقيات ، والثياب الرقيقة ، والأنماط ، والكلال ، والسنائر ، وأوطئة الديباج ، ممَّا كان في ادِّخار باديس واكتسابه . وأقبلت دوابُّ الظهر من المنكبِّ بأحمال السيِّك والمسبوك . واختلفت أمُّ عبد الله لاستخراج ما أودعَ بطن الأرض ، حتى لم يَبْقَ إلَّا الخُرثى والنفل والسقط ، وزَّع ذلك الأمير على قواده ، ولم يستأثر منه بشيء .

﴿ قال ﴾ : ورغب إليه مؤمل في دخول القصر ؛ فركب إليه ، وكثُر استحسانه إيَّاه ، وأمر بحفظه وتقَدُّ أوضاعه وأفنيته .

وقيلَ عبدُ الله إلى مراكش ، وسنه يومَ خُليع خمس وثلاثون سنة وسبعة أشهر ؛ فاستقرَّ بها هو وأخوه تميم ؛ وحلَّ اعتقألهما ، ورُقَّهَ عنهما ؛ وأجروا المرتبَ والمُساهمةَ عليهما . وأحسن عبد الله أداء الطاعة ، مع لين الكلمة ؛ فصَيَّتْ مَارِبُهُ ، وأُسِفَّتْ رَغْبَاتُهُ ، وخَفَّ عَلَى الدَّوْلَةِ ؛ فاستراح واستريح معه . ورزق الولد في الخمول ؛ ففأشَّ له ابنانِ وبنتٌ جمع لهم للال ، فلما توفَّى ترك لهم مالا جَمًّا .

مولده : وُلِدَ عبد الله سنة ٤٤٧ .

(٢)

ترجمة مقاتل بن عطيّة (١)

مُقاتِل بن عطيّة البرزاليّ ، يكنى أبا حرب . قال فيه أبو القاسم الغافقي (٢) : من أهل غرناطة ، ويُلقَّب بذي الوزارتين ؛ وتعرّف بالزُّيْته المحرقة كانت في وجهه .

حاله : كان من الفرسان الشجعان ، لا يصطلي نباره ؛ وكان معه من قومه نحو من ثلاثمائة فارس من بني برزّال . ولأهـ الأمير عبد الله بن بُلقين ابن باديس مدينة اليُسّانة ، والتقى به ابن عبّاد وأخذ بمختقها . وكان عبد الله يحرزه . وعندما تحقّق حركة اللمتونيين إليه ، صرفه عن جهته ؛ فقلّ لذلك قاصرُه ، وأسرع ذهاب أمره :

شجاعته : قال (٣) : وحضر مُقاتل مع عبد الله بن بُلقين أمير غرناطة وقعة النيبّل في صدر سنة ٤٧٨ ؛ فأبلى فيها بلاءً عظيماً ، وجرح وجهه وخرق درعُه بالطعن والضرب . وذكر من حضرها ونجا منها ، قال : كنتُ قد سقط الرمح من يدي ولم أشعر ، وحملت الترس ولم أعلم به ، وحلني الله إلى طريق منجاة ، فركبتها مرّةً أقعُ ومرّةً أقومُ ؛ فأدركتُ فارساً على فرس أدم ، ورمحه على عاتقه ، ودرقته على فخذه ، ودرعُه مهتكةٌ بالطعن ، وبه جرحٌ في وجهه يشعب دماً تحت منفره ، وهو مع ذلك ينهض على رسله ، فرجعتُ إلى نفسي ؛ فوجدتُ قتلاً ؛ فتذكّرتُ الترس ؛ فأخرجتُ حمائله عن عاتقي

(١) مخطوطة الاسكوريال (رقم ١٦٧٢) ، ص ١٨٨ .

وَأَلْقَيْتُهُ عَنِّي ؛ فَوَجِدْتُ خَفَّةً وَعُدْتُ إِلَى الْعَدُوِّ ؛ فَصَاحَ ذَلِكَ الْفَارِسُ : خُذِ
 التَّرْسَ ! « قُلْتُ : « لَا حَاجَةَ لِي بِهِ ! » فَقَالَ : « خُذْهُ ! » فَتَرَكْتُهُ وَوَايْتُ
 مُسْرِعًا ؛ فَهَمَزَ فَرَسَهُ وَوَضَعَ سِنَانَ رِمَحِهِ بَيْنَ كَتِفَيَّ وَقَالَ : « خُذِ التَّرْسَ ،
 وَإِلَّا أَخْرَجْتُهُ بَيْنَ كَتِفَيْكَ فِي صَدْرِكَ ! » فَرَأَيْتُ الْمَوْتَ الَّذِي فَرَزْتُ مِنْهُ ،
 وَرَجَعْتُ إِلَى التَّرْسِ ؛ فَأَخَذْتُهُ ، وَأَنَا أَدْعُو عَلَيْهِ ، وَأَسْرَعْتُ عَدُوًّا . فَقَالَ
 لِي : « عَلَى مَا كُنْتَ فَلْيَكُنْ عَدُوًّا ! » فَاسْتَعِذْتُ وَقُلْتُ : « مَا بَعَثَ اللَّهُ
 إِلَّا لَهْلَاكِ ! » وَإِذَا قِطْعَةً مِنْ خَيْلِ الرُّومِ قَدْ بَصُرَتْ بِهِ ؛ فَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ
 يَسْرِعُ الْجَرَى فَيَسْلِمُ وَأُقْتَلُ ، فَلَمَّا ضَاقَ الطَّلُقُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَقْرَبِهِمْ مِنْهُ ، عَطَفَ
 عَلَيْهِ كَالْعَقَابِ وَطَعَنَهُ وَوَطَرَهُ ، وَتَخَلَّصَ الرِمَحُ مِنْهُ ، ثُمَّ حَمَلَ عَلَى آخِرِ ؛ فَطَعَنَهُ
 وَمَالَ عَلَى الثَّلَاثِ ، فَانْهَزَمَ مِنْهُ ، فَارْجَعَ إِلَى ، وَقَدْ هَبْتُ مِنْ فَعْلِهِ ، وَرَشَاشُ
 دَمِ الْجَرْحِ يَتَطَايَرُ مِنْ قِنَاعِ الْمِفْقَرِ لَشَدَّةِ نَفْسِهِ ، وَقَالَ لِي : « يَا فَاعِلُ ! يَا صَانِعُ !
 أَتَلْقَى الرِمَحَ ، وَمَعَكَ مُقَاتِلُ الرُّيَّةِ ؟ »

(٣)

ترجمة مؤمل^(١)

مُؤْمَلٌ ، مَوْلَى بَادِيسَ بْنِ حَبُوسَ .
حَالُهُ وَحِجَّتُهُ : « قَالَ ابْنُ الصَّيْرَمِيِّ » وَقَدْ ذَكَرَ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ بُلْقَيْنَ
 حَفِيدَ بَادِيسَ ، وَاسْتَشَارَتَهُ فِي أَمْرِهِ لَمَّا يَلْقَاهُ حَرَكَةُ يَوْسُفَ بْنِ تَاشَفِينَ إِلَى
 خَلْعِهِ : وَكَانَ فِي الْجُمْلَةِ مِنْ أَحْبَابِهِ رَجُلٌ مِنْ عِيِيدِ جَدِّهِ اسْمُهُ مُؤْمَلٌ ، وَلَهُ
 سَنٌ ، وَعِنْدَهُ دِهْلَاءٌ وَفُطْنَةٌ وَرَأْيٌ وَنَظَرٌ .

(١) مخطوطة الاسكوريال (رقم ١٦٧٣) ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

﴿ قال في موضع آخر ﴾ : ولم يكن في وزراء مملكته وأجباء دولته أصيلُ الرأي جَزَلُ الكلمة إلا ابن أبي خَيْثَمَة من كتبه ، ومؤمِّل من عبيد جدّه ، وجعفر من فتيّانه .

﴿ رجع . قال ﴾ : فالطف له مؤمِّل في القول ، وأعلمه برفقي وحسن أدبٍ أن ذلك غير صواب . وأشار إليه بالخروج إلى أمير المسلمين ، إذا قُرِبَ ، والتطارُح عليه ؛ فإنه لا يمكنه مدافعتَه ولا يطاق حربه ، والاستخذاء له أحمد عاقبة وأيمنُ مغبّة . وتابعه على ذلك نظراؤه من أهل السنِّ والحكمة ، ودافع في صدر رأيه الغلة الأغمار ؛ فاستشاط غيظًا على مؤمِّل ومن نحا نحوه ، وهمّ بهم . فخرجوا ، وقد سبل بهم فرقًا منه . فلما جنَّهم الليلُ ، فرّوا إلى كَوْشَة ، وبها من أبناء عبيد باديس قائدها ؛ فلكوها وثاروا فيها بدعوة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين .

وبادر مؤمِّل بخطاب يوسف المذكور ؛ وقد كان سفر إليه عن سلطانه ؛ فأعجبه عقلاً ونبلاً ؛ فاهتزَّ إليه ؛ وكان أقوى الأسباب على حركته . وبادر حفيد باديس لأمره ؛ فأشخص الجيش لنظر صهره ؛ فتغلب عليهم . وسبق مؤمِّل ومن كان معه شرَّ سوق في الحديد ، قد أركبوا على دوابِّ هجن ، وكُشفت رؤوسهم ؛ وأردف وراء كلِّ رجلٍ من يصفعه . وتقدّم الأمر في نصب الجذوع وإحضار الرماة . ونلّطَّ جعفر في أمرهم وقال للأمير عبد الله : « إن قتلتمهم الآن ، أطفأت غضبك وأذهبت مالك ! فاستخرج المال ، وأنت من وراء الانتقام ! » فتفقهم . وأطعموا في أنفسهم ريثًا شغله الهول . وأنقذ يوسف بن تاشفين في حلٍّ اعتقالهم ؛ فلم تَسْعُه مخالفتَه . فأطلقهم . ولما ملك غرناطة على تغية تلك الحال ، قدّم مؤمِّلًا على

مُسْتَخْلَصَه ، وجعل يده مفاتيح قصره ؛ فقال ما شاء من مال وحظوة ،
واقضى ما أراد من صايتٍ وذخيرة . ونُسبت إليه بغرناطة آثار ، منها
السَّقَاية بيباب الفخَّارين ، والحوَر المروقة بحَوَر مُؤَمِّل . أدركتها ،
وهي بحالها .

وفاته : ﴿ قال ابن الصِّيرَفِي ﴾ : وفي ربيع الأوَّل من هذا العام ، وهو عام ٤٩٢ ،
توفى بغرناطة مؤمِّل ، مَوْلَى باديس بن حَبُوس ، عبدُ أمير المسلمين وجابي
مُسْتَخْلَصَه . وكان له دهاء وصبر ؛ ولم يكن بقارىء ولا كاتب ؛ رزقه الله عند
أمير المسلمين أيَّامَ حياته منزلةً لطيفةً ودرجةً رفيعةً . ولا أشرف على
المنية ، أحضر ما كان عنده من مال المُسْتَخْلَص ، وأشهد الحاضرين على
دفعه إلى من استوثقه على حمله ؛ ثمَّ أبرأ جميع عُمَّاله وكُتَّابه ، وأنفذ
رجالاً من صنائمه إلى أمير المسلمين بحملةٍ من مال نفسه ، يُريه أنَّ ذلك
جميع ما اكتسبه في دولته أيَّام خدمته ، وأنَّ بيت المال أولى به ؛ ورغب
في ستر أهله ووَلَدِه . فلما وصل ذلك إليه ، أظهر الأسف عليه ، وأمضى
تقديم صنيعته .

ثمَّ ذكر ما كشف البحث عنه من محتججه ، وشقاء مَنْ خَلَفَه بسببه ،
وعُدَّد مالاً وذخيرةً .

فهرس أسماء الرجال

٧١ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ١٠٧ ، ١١٧ ،

١١٨ ، ١٣٠ ، ١٦٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،

٢١٠

باديس بن المنصور (أمير إفريقية) ٢٤

باديس بن واري ١٤٦

باطر (بطره) شولش ٦٩ ، ٧٤

ابن البراء ١٣٧

بزلف (والى السوس) ١٦٣

بقراط ١٨٥

ابن بكر ١٧٠

أبو بكر بن مسكن ١١٨ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،

١٥٧

بليار الصنهاجى ٨٧

بلقين بن باديس سيف الدولة (والد عبد الله

المؤلف) ١٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٥ ،

٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ،

١٩٩

بلقين بن حبيوس ٢٣ ، ٣٥

بلقين بن زوى بن زيرى ٢٤

— ث —

ابن ياقنوت ٩٦ ، ٩٧

تيم بن بلقين بن باديس الممز (آخر عبد الله

المؤلف) ٤١ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٩٠ ،

٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٢ ،

١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ،

١٦٢ ، ١٦٣

— ج —

الجاحظ ١٩٨

— ا —

أبو إبراهيم اليهودى (ابن نقرالة) ٣٠ ،

٣١ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ .

ولد أبي إبراهيم اليهودى ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ،

٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ،

٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،

٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٦ ،

٨٨ ، ١٣٣ ، ٢٠٥ .

ابن الأحسن السجلامى ١٠٢ ، ١٧٢

ابن الأحمر ١٤٥

أبر الأحوص بن صاحب (صاحب المرية)

٤٤ ، ٤٥

أختا عبد الله المؤلف ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٤

الإذفونش ٢٠٧ ، ٢٠٩ . وانظر « الفونش »

ابن أرقم ٥١ ، ٥٢

ابن الأصمى ٩٧

ابن أسمى الكاتب ٦٣ ، ٦٠

إفلاطون ٨

أبرهانش ١٢٣ ، ١٢٤

ألفونش السادس ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ،

٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ،

٨٤ ، ٩١ ، ٩١ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،

١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٢ ،

١١٣ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ،

١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،

١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،

— ب —

باديس بن حبيوس المنظر (جد عبد الله) ١١ ،

١٢ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ — ٦٨ ،

جالينوس ١٨٦ ، ١٩٣

جعفر الخصى ١٥١ ، ٢١٣

ابن أبي جوش ٨٦

- ح -

حبوب بن ماكسن (أمير غزاة) ١٧ ،

١٩ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ،

٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٧

الحجاج ١٩٢

ابن الحديدي ٧٧

ابن الحسن النباهي (قاضي مالقة) ٦٤

الحكم المستنصر باقة ١٥

- خ -

ابن الخياط المنجم ٧٨

ابن أبي خيشمة ١٥٨ ، ٢١٣

- د -

داود بن عائشة ١٠٣

- ذ -

ابن ذي النون ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٧ ،

٦٩ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨

- ر -

الراضي (ابن المعتمد بن عباد) ١٠٣ ، ١٠٨

١١٢ ، ١٧١

أبو الربيع بن الماطوف ٤٨ ، ١٣٠

أبو الربيع النصراني ٦٦ ، ٦٨

الرشيد (هارون) ١٨٤

الرشيد (ابن المعتمد بن عباد) ٨١

ابن رشيق ٨٠ ، ٨١ ، ١٠٨ ، ١١٠ ،

١١١ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ١٢٢

١٤٤ ، ١٧٣ ، ١٧٤

الروي أو النصراني = ألفونش السادس

الريه (لقب مقاتل بن عطية البرزالي) ٣١١ ،

٢١٢

ابن الريولة ٧٧ ، ٧٨

- ز -

زاوي بن زيري ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ،

٢٤ ، ٢٥

زاوي الصنهاجي ٨٧

زهير (صاحب المرية) ٣٤ ، ٣٥

ابن الزيتوني القروي ١٥٨

- س -

سراج الدولة ٨١

ابن سعدون ١٤٩ ، ١٥٥

ابن السقاء ٤٥

سقراط ٨ ، ١٩٨ ، ١٩٩

ابن سلمون ١١٧

سماجة الصنهاجي ٧٦ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ،

٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٥ ، ٩٦ ،

١٤١ ، ١٧٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨

السماري ٢٠٧

ابن سهل (القاضي) ١١٥ ، ١١٨ ، ١٤٦

السيد لذريق ١٧٥

سير (الأمير المرابطي) ١١٠ ، ١٦٠ ،

١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤

سيف الدولة = بلقين بن باديس ولد عبادة

ابن سيق ١٣٢

- ش -

شلاله ٧٣

- ص -

الصحراري (أبو بكر م يوسف بن تاشفين)

١٧١

-ق-

القادر (حفيد ابن ذي النون) ٧٧ ، ٨٠ ،
 ١٥٣ ، ١٧٣ .
 ولد القاضي (صاحب باغ) ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ،
 قرو ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ،
 ١١٦ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،
 ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ،
 ١٧١ ، ١٧٣ ،
 ابن القطان ٢٠٥
 ابن القليجي أبو جعفر ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ،
 ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ،
 ١٢٧ ، ١٢٨ ، ٢٠٧

-ك-

كباب بن تميم ٧٥ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٥ ،
 ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠

-ل-

لييب النصى ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،
 ١٥١
 لمة الخادم ١٥٨
 ابن أبي لولا ١٣١

-م-

ابن ماشاء الله ١٤٧
 ماكمن بن باديس بن حبوس ٤٠ ، ٤٨ ،
 ٤٩ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ،
 ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٦ ، ٩٤ ،
 ٢٠٥ ، ٢٠٦
 المأمون بن المعتد ١٧٠
 المتوكل بن الأنطس ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٦٥ ،
 ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،
 ١٧٤ ، ١٧٦
 مجاهد (صاحب دانية) ٤٤ ، ٤٥

ابن صايح = أبو الأحوص والمعتصم صاحب
 المرية .

أبو الصمصام ١٧١

ابن الصيرفي ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢١٤

-ح-

عباد (المعتضد بن عباد) ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٨ ،
 ٥٩
 عباد بن المعتد ٧١
 العباس بن المتوكل بن الأنطس ١٧٤
 أبو العباس الحكيم ١٣٢
 أبو العباس (كاتب حبوس) ٢٧ ، ٢٨ ،
 ٣٠

ولد أبو العباس ٣٠ ، ٣١

ولد عباس (كاتب زهير) ٣٤ ، ٣٥

عبد الله بن القروي ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ،
 ٤٠ ، ٤٢ ، ٥٩

عبد الملك (القاضي) ١٠٢

أم العلور (بنت عم ماكمن) ٦٧ ، ٦٨

علي بن أبي طالب ١٨٣

علي بن القروي ٢٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ،
 ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢

ابن عمار ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ،
 ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ،
 ٩٦

عمر بن عبد العزيز ١١

-غ-

الغافقي (أبو القاسم) ٢٠٨ ، ٢١١

-ف-

فرقان ٢٨ ، ٣٢

الفضل بن المتوكل بن الأنطس ١٧٤

٤٤ ، ٤٥
 المنصور بن التوكل بن الأنطس ١٧٢ ،
 ١٧٣ ، ١٧٤
 المؤمن بن هود ٧٨ ، ٧٩
 موسى ٨
 مؤق (صاحب المدينة) ٣٧
 مؤمل ١١٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ،
 ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ،
 ١٥٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ،
 ٢١٣ ، ٢١٤
 ابن ميسون (أمين هود اليخانة) ١٣٠ ، ١٣١ ،
 ١٣٢
 - ن -
 الناية ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،
 ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ،
 ٦٥ ، ٧٠ ، ١٢٣
 نعمان ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٤٨
 - ه -
 هشام المؤيد ١٥
 - و -
 واصل الملح ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨
 والددة المؤلف ٩٤ ، ٩٥ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،
 ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٢١٠
 - ي -
 يحيى بن يفران ٥٣ ، ٥٧ ، ٥٨ ،
 يد ير بن حسانة بن حاكس ٢٧ ، ٢٨ ،
 ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤
 ابن يعيش ٦٤
 ابن يكون ١٤٥
 يوسف بن تاشفين أمير المسلمين ١٠٢ ، ١٠٣ ،

ولد مجاهد ٦٢ ، ٧٨
 مخلوف بن ملول ٥٨
 المرادي ٢٠٥
 المرتضى ٢٠ ، ٢٢ ، ٣٥
 ابن مرتين ٧١
 ابن المرة ١٣٠ ، ١٣٢
 المستعين بن هود ٧٨
 مسكن بن حبيب الغوالي ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٠ ،
 ٦١ ، ٦٢
 المظفر (جد عبد الله) = باديس بن حبيب -
 المعصم بن صالح (صاحب المرية) ٤٥ ،
 ٤٦ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ،
 ٥٦ ، ٥٧ ، ٧١ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ،
 ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٤٤ ، ١٦٤ ،
 ١٦٥ ، ١٦٧
 المعتمد = صباد
 المعتمد بن صباد ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٥ ،
 ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩١ ،
 ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١ ،
 ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ،
 ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،
 ١٣١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،
 ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ،
 ١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٠٦
 معد بن يعلى ١٣٩
 المعز بن باديس (أمير إفريقية) ٢٤ ، ٣٥ ،
 ٤٣
 المعز = تميم بن بلقين بن باديس -
 معز النولة بن المعصم بن صالح ١٦٧
 مقاتل بن عطية البرزالي ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٢ ،
 مقاتل بن يحيى ٤٧
 المقتردر بن هود ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ،
 ابن ملحان ٧١
 منذر بن هود ٧٩
 المنصور بن أبي عامر ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ،
 المنصور بن أبي عامر (صاحب شرق الأندلس)

١٧٦ ٠ ١٧٤ ٠ ١٧٢ - ١٤٣ ٠ ١٣٨	١٠٨ ٠ ١٠٧ ٠ ١٠٦ ٠ ١٠٥ ٠ ١٠٤
٢١٣ ٠ ٢١٢ ٠ ٢١٠ ٠ ٢٠٩ ٠ ٢٠٦	١١٤ ٠ ١١٣ ٠ ١١٢ ٠ ١١١ ٠ ١١٠
٢١٤	١٢٠ ٠ ١١٩ ٠ ١١٨ ٠ ١١٧ ٠ ١١٥
١٤٧ ٠ ١٤١ ٠ ١٤٠ ٠ ١٣٨ يوسف بن حجاج	١٢٩ ٠ ١٢٨ ٠ ١٢٧ ٠ ١٢٢ ٠ ١٢١

فهرس أسماء الأمم والقبائل والعائلات

صهاجة ١٨ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ،	الإفنج ٤٤ ، ٤٥ ، ٨١
٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٢ ، ٥٤ ،	البربر ١٦ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٤٥ ،
٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٧ ،	١٥٠ ، ٩٣ ، ٦٤
٨٥ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ٢٠٥ ،	بنو برزال ٦٢ ، ٦٣
بنو عباد ٤٧ ، ٧٩ ، ١٦٤ ،	بنو ثاقناوت ٩٧ ، ٩٨
بنو الوارثي ٧٧	تلكاتة ٢٤ ، ٥٧ ، ٨٧ ، ١٤٦
لمتونة ٢٠٦	بنو حمود ٤٤
المرايطون ٤٥ ، ٨١ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،	الروم أو التماري ١٥ ، ١٦ ، ٧٠ ،
١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،	٧٣ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٩ ،
١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،	١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١٢٨ ،
١٣٩ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ،	١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٥٢ ،
١٦٨ ، ١٧٥ ،	١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢١٢ ،
المغاربة ٦٠ ، ٦١ ، ١١٩ ، ١٥٠ ،	زناقة ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
بنو مغيث ٧٧	١٣٧
اليهود ٣٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،	بنو زيري ١٢٨

فهرس الأعلام الجغرافية

١٦٠٤ ١٥٢٠ ١٠٨٠ ١٠٤٠
 جطرون (Jotrón) ٩٤٠ ٩٢٠
 جليقية (Galice) ٧٣٠
 جيان (Jaén) ١٩٠ ٥٣٠ ٥٥٠ ٦٠٠
 ٦١٠ ٦٣٠ ٧٦٠ ٩٤٠ ٢٠٥٠
 حارقن ٩٤٠
 الحمراء (Alhambra) ٥٤٠ ١٣٠٠
 الحمة (Alhama) ٩١٠
 حور مؤيل (بقرناطة) ٢١٤٠
 دانية (Denia) ٤٥٠ ٧٧٠ ٧٨٠ ٧٩٠
 الرملة (La Rambla) ٣٢٠ بقرناطة
 رنده (Ronda) ١٧١٠
 ريه ٩١٠
 ريينة ٩٤٠ ٩٢٠
 الزاوية (La Zubia) ٢٢٠
 الزلاقة (Sagrajas) ١٠٤٠ ١٠٥٠ ١٠٦٠
 سبتة (Ceuta) ١٠٢٠ ١٠٣٠ ١٢٩٠
 ١٤٥٠ ١٤٦٠ ١٦٠٠
 سرقسطة (Saragosse) ٧٨٠ ٨١٠ ٨٢٢٠
 السطح (عمل) ٢٢٠ ٣٢٠
 السوس ١٦٣٠
 شاط (Jete) ٩٠٠
 شربة ١١٣٠
 شرق الأندلس ٦٠٠ ٨٠٠ ١٢٢٠
 شقورة (Segura) ٨٠٠ ٨١٠
 فلير (Sierra Nevada) ٢٢٠
 شنت أتلج ٧٢٠
 شنت مرية (Santa Maria) ٨٠٠
 شنتيل (Genil) ٢٠٠
 شيلن ٧١٠ ٧٢٠
 صالحه (Zalia) ٩١٠

أرجندوة (Archidona) ٩١٠ ٩٥٠
 إسطة (Estepe) ٧٥٠
 إسبيلية (Seville) ٧٥٠ ١٠٢٠ ١٠٣٠
 ١٠٥٠ ١٢٨٠ ١٦٨٠ ١٧٥٠ ١٧٠٠
 أشتير ٩١٠
 حصن آشر (Iznajar) ١٩٠
 إقرناطة = قرناطة
 آغمات ١٧١٠
 إلبيرة (Elvira) ١٨٠ ١٩٠ ٢٠٠
 ٢١٠ ٢٢٠
 أنقيرة (Antequera) ٩٥٠
 أبرش ٩٢٠
 باب الفخارين (بقرناطة) ٢١٣٠
 باب فتنالة (بمالقة) ٩٢٠
 باغه (Priego) ٤٤٠ ٦٤٠ ٦٦٠ ٦٩٠
 بسطة (Baza) ٥٧٠ ٧١٠
 بطليوس (Badajoz) ٤٤٠ ١٠٤٠ ١٠٥٠
 ١١٣٠ ١١٤٠ ١١٥٠ ١٧٢٠ ١٧٣٠
 ١٧٤٠
 بلنسية (Valence) ٧٧٠ ٧٨٠ ١٥٣٠
 ١٧٣٠ ١٧٥٠
 بليلى (Velillos) ٧٠٠ ٧١٠ ٧٢٠
 ٧٤٠ ١٤٨٠
 بياسة (Bacza) ٦٣٠ ٦٤٠ ٩٦٠
 تدلس (Dellys) ١٦٨٠
 تلمير ٧٩٠
 الجبل (نظر) ٢٢٠ ١١٣٠
 جريشة ٩٦٠ ٩٧٠ ٩٨٠ ١٠٤٠
 الجزائر (Alger) ١٦٨٠
 جزيرة الأندلس ١٠١٠ ١٠٧٠
 الجزيرة الخضراء (Algeciras) ١٠٢٠ ١٠٣٠

الصحراء (Sahara) ١٥٨

صحرة حبيب ٩٢

صحرة دوسر ٩١

طرابلس ٨٩

طليطلة (Tolède) ٧٣ ، ٦٥ ، ٦٢ ، ٥٦

١٠١ ، ٨٠

العلوة (Maroc) ١١٨ ، ١٨ ، ١٦

١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٣٩ ، ١١٩

الغريبة ٩٤ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٨

غرناطة (Grenade) ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤

٢٥ ، ٣٤ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧

٥٢ ، ٥٣ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣

٦٥ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥

٨٦ ، ٩٢ ، ١٠٧ ، ١١٣ ، ١٢٠

١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٣٤ ، ١٣٧

١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣

١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٨

١٦٩ ، ١٧٠ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩

٢١٣ ، ٢١٤

فحص غرناطة ٢٢ ، ٤٤ ، ٧٠ ، ١٥٢

فنيانة (Fijana) ٥٩ ، ٦٠ ، ٨٨ ، ٨٩

الفونت (Alfuenta) ٣٤

قاشته ٧٦

قاهرة ٩٤

قبريرة ٥٣

قبرة (Cabra) ٤٤ ، ٦٤ ، ٦٦

قرطبة (Cordoue) ٤٣ ، ٤٥ ، ٧١

٧٧ ، ٧٨ ، ١٣١ ، ١٤٦ ، ١٤٧

١٥٢ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ٢٠٩

قرطمة (Cartama) ٩٤

قرمونة (Carmona) ١٧٠

القصر (حصن) ٩١

قلعة أسطير (Alcala la Real) ٧٠ ، ٧٥

قلعة حماد ١٦٧ ، ١٦٨

قوجر ٣٢

القيروان ٢٤ ، ٢٥

لرقة (Lorca) ٤٤

لوخة (Loja) ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ،

١٥١ ، ٢٠٦ ، ٢١٣

ليبط (Alodo) ٨١ ، ١٠٧ ، ١٠٨

١١٢ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٢

١٢٤ ، ١٣١ ، ١٤٤ ، ١٦٥ ، ١٧٣

مارتش (Martos) ٧٦

مالقة (Malaga) ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧

٥٧ ، ٥٨ ، ٦٤ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣

٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٠٧

١١٣ ، ١١٥ ، ١٣٨

المدينة ٢١

مراكش ٢١٠ (وانظر مراكش)

مرسية (Murcie) ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١

١٠٨ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥

١٤٦

مروكش ١٢٥ ، ١٧١

المرية (Almeria) ٣٤ ، ٢٥ ، ٤٤

٤٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠

١١٣ ، ١٢٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧

١٦٨ ، ٢٠٦

مرية بلش (Velez Malaga) ٩١

المشيحة ٢٠٩

المطمر ٧٦

مكناسة الزيتون ١١٥ ، ١٦٠ ، ١٦١

١٦٣ ، ١٧٠ ، ١٧١

منت ماس ٩٢

التتوري ٨٨ ، ٨٩

النكب (Almuñecars) ٤٤ ، ٥٣

٨٥ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ١٢٠ ، ١٢١

١٥٩ ، ٢٠٧ ، ٢١٠

ميشش (Mijas) ٩٤

١١٣ ٤ ٨٧ ٤ ٨٦ ٤ ٨٥ ٤ ٦٤ ٤ ٥٩

١٢٣ ٤ ١١٤

٤ ١٣١ ٤ ١٣٠ (Lucena) اليمانة

١٤٨ ٤ ١٤٥

٢١١ ٤ ١٢٩ (Nivar) النيل

٩٦ نيمش

١١٨ الهند

٤٤١ ٤ ٣٩ ٤ ٣٨ (Guadix) وادي آش

٤٥٨ ٤ ٥٧ ٤ ٥٦ ٤ ٥٥ ٤ ٥٣ ٤ ٤٤

فهرس الفصول

صفحة

١	مقدمة الناشر
١	الفصل الأول : نظرات عامة للمؤلف
١	١ - القواعد التي يتعين للمؤلف اتباعها
٣	٢ - حقيقة الإسلام والرد على من لا يؤمن به
٦	٣ - قصور القياس دون عون من الوحي
١٠	٤ - ضرورة التعليم والتجربة
١١	٥ - التكوين السياسي للمؤلف
١٣	٦ - صعوبة الإنصاف التاريخي
١٤	٧ - المصادقة وأثرها في التاريخ . مثل المنصور
	الفصل الثاني : الأحداث المهمة لقيام دولة بني زيري وأوليات هذه الدولة . أيام زاوي بن
١٦	زيري وجوبس بن ماسكن
	٨ - الإصلاح العسكري الذي أدخله المنصور . قنوم بني زيري إلى الأندلس وقيام
١٦	دول الطوائف
١٨	٩ - استقرار بني زيري في البيرة بناء على طلب أهلها
٢٠	١٠ - رد الفعل الذي أحدثه في الأندلس قيام دولة بني زيري . اختطاط غرناطة
٢٢	١١ - خروج المرتضى لحرب بني زيري وهزيمته
٢٤	١٢ - رحيل زاوي بن زيري إلى إفريقية وموته هناك مسموماً
٢٥	١٣ - إمارة جوبس بن ماسكن
٢٧	١٤ - المؤامرات التي دبرت لإسناد الإمارة إلى يدري بن حياصة . موت جوبس
٣٠	الفصل الثالث : إمارة باديس بن جوبس . (١) من أوليها إلى موت ابن نغرالة
٣٠	١٥ - أولية إمارة باديس بن جوبس وتعاظم الوزير اليهودي أبي إبراهيم
٣٢	١٦ - فشل المؤامرة التي دبرها يدري بن حياصة ضد باديس
٣٤	١٧ - انتصار باديس على زهير صاحب المرية
٣٦	١٨ - شخصية الأمير بلقين سيف الدولة والد المؤلف
٣٦	١٩ - نشاط يوسف بن نغرالة اليهودي ومؤامراته

صفحة

- ٢٠ - موت الأمير بلقين مسمياً ٣٩
- ٢١ - ما بلغ ابن نقرالة من المكان الأرفع ٤٢
- ٢٢ - استيلاء باديس على مألقة ٤٣
- ٢٣ - علاقات باديس ببنى صباح أصحاب المرية ٤٤
- ٢٤ - وصول الناية إلى غرناطة . حظوته ومنافسته اليهودى ٤٦
- ٢٥ - إجلاله الأمير ماكسن بن باديس ٤٨
- الفصل الرابع : إمارة باديس بن حبوس . (٢) من موت ابن نقرالة إلى نهايتها ٥٠
- ٢٦ - مؤامرة الوزير اليهودى ابن نقرالة . ثورة صحابة عليه وقتله ٥٠
- ٢٧ - الحركة الموقفة التي قام بها باديس لانتزاع وادى آش من أيدي ابن صباح ٥٥
- ٢٨ - الحركة الموقفة التي قام بها باديس لانتزاع مألقة من يد ابن عباد ٥٧
- ٢٩ - الكشف عن أمر فتيانة وقتلتها ٥٩
- ٣٠ - استيلاء باديس على مدينة جيان ٦٠
- ٣١ - استيلاء الناية على بياسة ٦٢
- ٣٢ - مؤامرة ضد الناية ومقتله ٦٣
- ٣٣ - استدعاء الأمير باديس ولده ماكسن ورجوعه إلى الحاضرة ٦٦
- الفصل الخامس : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (١) مشاكل
- ٦٩ - الأندلس الغاربية وحال الجزيرة عند ابتداء إمارة عبد الله ٦٩
- ٣٤ - رفض مطالب ألفونش السادس واشترائه مع بن عمار ٦٩
- ٣٥ - المهادنة بين عبد الله وابن صباح صاحب المرية ٧١
- ٣٦ - مهاجمة ألفونش السادس على غرناطة واضطرار عبد الله إلى المهادنة معه ٧٢
- ٣٧ - استيلاء ألفونش السادس على طليطلة ٧٦
- ٣٨ - استيلاء ابن هود على دانية . بغض أنصار بني هود ٧٧
- ٣٩ - ثورة ابن عمار على المعتمد بمرسية إلى أن أخرجه منها ابن رشيق . أعماله بعد ذلك ومهلكه الشننج ٧٩
- ٤٠ - عقد الصلح بين عبد الله وبين المعتمد صاحب أشيلية ٨٢
- ٤١ - المؤلف يتحدث من منهج في كتابة مذكراته ٨٢
- الفصل السادس : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (٢) مشاكل
- ٨٤ - غرناطة الداخلية إلى قنوم المرابطين ٨٤
- ٤٢ - عزل الوزير ساجدة ، ثم إجلاله واستقلال عبد الله في الأمر ٨٤

صفحة

- ٤٣ - النزاع على الحدود بين ملكة غرناطة وملكة المرية . تعاقب أحداثه وحله ٨٨
 ٤٤ - توجيه صكر ضد تميم بن بلقين صاحب مالقة وأخى المؤلف ، ونصره إياه ٩٠
 ٤٥ - ذكر ثورة كباب بن تميم وثورة بؤ تاقنوت ونهايتهما ٩٥

الفصل السابع : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (٣) قدوم

- المرابطين إلى الأندلس وموقعة الزلاقة ومحاصرة حصن لبيط ١٠١
 ٤٦ - مقدمات تدخل المرابطين في شؤون الأندلس ١٠١
 ٤٧ - إرسال سفارات أندلسية إلى مراکش . احتلال المرابطين الجزيرة الخضراء ١٠٢
 ٤٨ - تجمع جيوش الأندلسيين برسم الجهاد ١٠٤
 ٤٩ - موقعة الزلاقة وانتصار المسلمين على ألفونش السادس ١٠٤
 ٥٠ - يوسف بن تاشفين يعقد مجلس رؤساء الأندلس بعد المعركة . بدء الخلاف بين
 المتحالفين ١٠٦
 ٥١ - عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس . حصار حصن لبيط ١٠٨
 ٥٢ - محاصرة لبيط . تصور فوضى ملوك الطوائف في ذلك الحين ١٠٩
 ٥٣ - النزاع بين ابن حباد وبين ابن رشيح ١١٠
 ٥٤ - رفع الحصار عن لبيط . تفرق المحاصرين وإنشاء الخلاف بينهم ١١٢

الفصل الثامن : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (٤) سياسة

- عبد الله بعد عودته من لبيط . إجراءات دفاعية وسياسية ١١٤
 ٥٥ - تشارم عبد الله بعد رجوعه من حصار لبيط . مملك قرور ١١٤
 ٥٦ - بعض المؤامرات وتخاذل القليعي ١١٦
 ٥٧ - سيرة الجند مع الأمير في ذلك الحين . تشييد الحصون ١١٩
 ٥٨ - معاهدة عبد الله مع أبرهانتس وكرلى ألفونش السادس ١٢٢
 ٥٩ - التزام عبد الله على أداء الجزية لألفونش السادس وعقد اتفاق جديد معه ١٢٤
 ٦٠ - تهديد يوسف بن تاشفين إلى عبد الله . عبد الله يبرر سلوكه ١٢٧

الفصل التاسع : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (٥) الحوادث

- الأخيرة قبل النزاع ونذر الكارثة ١٣٠
 ٦١ - ثورة يهود مدينة اليمانة ١٣٠
 ٦٢ - قضية زناته ١٣٣
 ٦٣ - انقلاب مؤمل وثورته في لوشة ١٣٦

صفحة

- ٦٤ - وصف التأثير فعان وصيرته ضد عبد الله ١٣٩
 ٦٥ - مسألة زواج الأميرتين أختي عبد الله ١٣٩
 ٦٦ - حديث معترض عن نصحاء الأمير عبد الله ١٤١
 ٦٧ - رجوع الحديث عن زواج الأميرتين أختي المؤلف ١٤٣
 ٦٨ - تغفل الأمير عبد الله في مسألة مرمية وغضب المعتمد ١٤٤
 ٦٩ - إرسال سفارة إلى يوسف بن تاشفين بسببه من قبل عبد الله وليقاع الخوف في نفسه بعد رجوعها ١٤٥

الفصل العاشر : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (٦) استسلامه

- السلطان المرابطي . مجته . إخراجهم من الأندلس ونفيه ١٤٧
 ٧٠ - عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وبه مقاتلته إياه ١٤٧
 ٧١ - وصول الجيش المرابطي قبالة غرناطة ١٤٩
 ٧٢ - الحالة داخل حضرة غرناطة ١٥٠
 ٧٣ - لا يجد عبد الله مخرباً إلا بالتسلم ١٥١
 ٧٤ - تسامح الأمير عبد الله ونهب أمواله ١٥٤
 ٧٥ - نفي الأمير عبد الله إلى المغرب الأقصى ١٦٠
 ٧٦ - عزل الأمير تميم صاحب مالقة وأخى عبد الله . نفيه ١٦٢

- الفصل الحادي عشر : عزل بقية ملوك الطوائف ومصيرهم بعد ذلك ١٦٤
 ٧٧ - موقف ملوك الطوائف أثناء الحملة على غرناطة ١٦٤
 ٧٨ - حركات المرابطين على المرية ١٦٧
 ٧٩ - تقرر العلاقات بين الأمير المرابطي والمعتمد ١٦٨
 ٨٠ - الاستيلاء على قرطبة وإشيلية ونفي ابن عباد ١٦٩
 ٨١ - قفول يوسف بن تاشفين إلى مراكنس ١٧١
 ٨٢ - عزل المتوكل بن الأفطس صاحب بطليموس وبهلكه ١٧٢
 ٨٣ - نشاط المرابطين ضد النصارى . استيلاء « السيد » لذريق على بلنسية ١٧٥
 ٨٤ - تأملات في قلب الأقدار ١٧٦

الفصل الثاني عشر : تأملات أخيرة بعد النفي

- ٨٥ - المؤلف والشعر ١٧٨
 ٨٦ - استطراد المؤلف إلى الكلام عن طالعه ومصيره ١٧٩
 ٨٧ - آراء المؤلف في التنجيم ١٨١

١٨٢	٨٨ - آراء طيبة في الأغذية والنبيل	صفحة
١٨٨	٨٩ - رجع الكلام عن التنجيم	
١٩١	٩٠ - مسائل فلكية	
١٩٢	٩١ - تحديد العلوم الطبيعية والطلب	
١٩٣	٩٢ - نقض قول من ينكر أن الجن تتكلم	
١٩٤	٩٣ - حديث عن المرة وعن هموم الهوى والشباب	
	٩٤ - تأملات نظرية وأمثلة يضر بها المؤلف من قصة حياته عن الطموح وزوال خيرات الدنيا	
١٩٥	٩٥ - يتحدث المؤلف عن أولاده	
١٩٨	٩٦ - توجه المؤلف الحديث إلى قرائه راضين عنه أو ساخطين عليه	
٢٠٠	٩٧ - يلغ المؤلف من نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه من أخطاء حياته الخاصة	

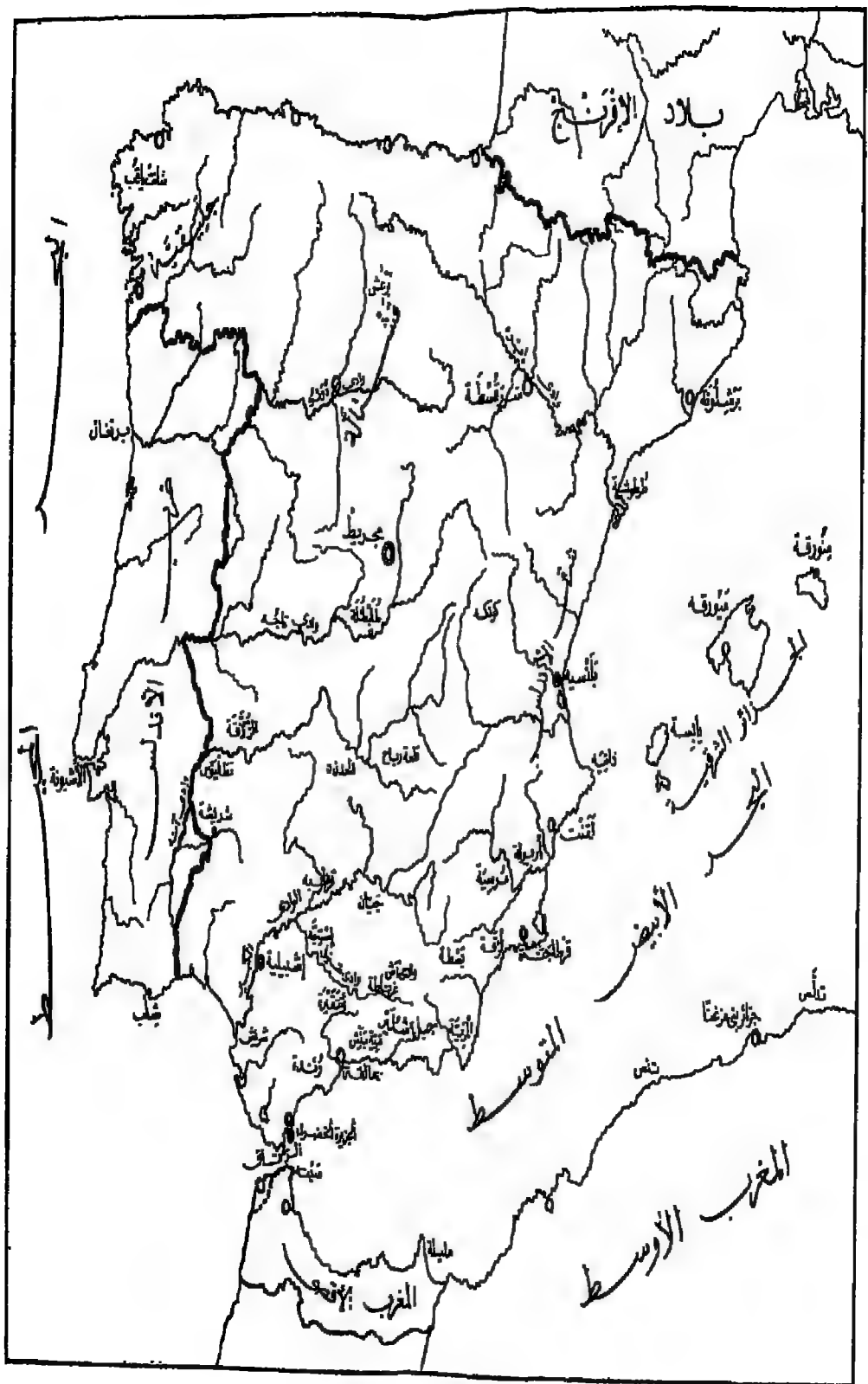
الملحق الأول : منتخبات من « كتاب البيان المغرب » لابن عمارى المراكشى عن دولة الأمير

٢٠٥	عبد الله
-----	----------

الملحق الثاني : منتخبات عن « كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة » لسان الدين ابن الخطيب :

٢٠٨	(١) ترجمة عبد الله بن بلقين
٢١١	(٢) ترجمة مقاتل بن عطية
٢١٢	(٣) ترجمة مؤمل

٢١٥	فهارس الكتاب
-----	--------------



خريطة جزيرة أئلس في عهد ملوك الفرافان

en préparation, sera en grande partie éclairée sous un nouveau jour grâce à cet appoint d'une documentation fort riche et non suspecte.

* * *

Le manuscrit des "Mémoires" de 'Abd Allâh contient au total 80 feuilles d'épais papier de grand format [23 x 31 centimètres], inventoriées à la bibliothèque d'al-Qarawiyyin à Fès sous le No. 1886. L'écriture est du genre *mabrûṭ* andalou; la copie est en général en bon état de conservation; seuls deux feuillets sont fort mutilés. Nous avons adjoint au texte deux appendices comportant des passages inédits du *Kitâb al-Bayân al-mughrib* d'Ibn 'Idhârî et de l'*Iḥṣâ* de Ibn al-Khaṭīb sur 'Abd Allah et deux personnages importants de son règne. Enfin une carte permettra au lecteur de retrouver les plus importantes localités du Sud de l'Espagne qui sont citées dans le texte.

Je voudrais, pour terminer, signaler à ceux de mes lecteurs qui s'étonneront de certaines acceptions ou de certaines tournures des "Mémoires" que la langue de 'Abd Allâh, bien qu'en général correcte, a subi dans une certaine mesure l'influence de l'arabe vulgaire hispanique et qu'il faut pour comprendre certains mots qui peuvent paraître erronés, faire appel principalement au *Supplément aux Dictionnaires arabes* de Dozy.

Je n'ai pas besoin de signaler d'autre part au lecteur que les titres qui ont été introduits pour séparer les diverses sections des "Mémoires" et en annoncer le contenu n'existent pas dans le texte original.

Pari-, 26 juin 1955

R. L.-P.

sinhâjienne des Banû Zîrî. Né en 447 [1056], il fut désigné à la mort de son père Buluggîn Sayf al-dawla, en 456 [1064] comme l'héritier présomptif de son grand père Bâdîs ibn Ḥabûs, et il lui succéda sur le trône de Grenade en 469 [1077], tandis que son frère Tamîm al-Mu'izz devenait prince indépendant de Malaga. Son règne ne fut qu'une longue suite de troubles à l'intérieur de son royaume, de conflits armés avec ses voisins musulmans et de compromissions avec le roi de Castille Alphonse VI. Au moment de l'intervention des Almoravides en Espagne, il participa aux campagnes d'al-Zallâqa et d'Aledo. Mais ses tractations avec le roi chrétien finirent par lui coûter son trône. En 489 [1090], Yûsuf ibn Tâshufîn vint le bloquer dans Grenade et il dut se rendre à sa merci. Il fut déchu de son trône et envoyé en exil dans le Sud du Maroc, à Aghmât, où il finit ses jours.

Ce fut au cours de son séjour forcé à Aghmât que 'Abd Allâh composa ses "Mémoires". Cette autobiographie — on pourra s'en rendre facilement compte — constitue la somme documentaire la plus considérable et la moins déformée que l'on possède sur l'histoire des *mulûk al-ṭawâ'if*. Malgré de longues digressions dans lesquelles l'auteur tente de justifier sa position politique devant les périls qui menaçaient son royaume, le *Kitâb al-Tibyân* fournit une chronique extrêmement détaillée de tous les événements qui aboutirent en 478 [1085] à la prise de Tolède par Alphonse VI, et, l'année suivante, à l'intervention des Almoravides dans la Péninsule ibérique.

C'est en même temps un document psychologique de premier ordre, qui permet, beaucoup mieux que les chroniques postérieures, de juger de l'état de décomposition sociale et politique de l'Espagne musulmane avant et après la bataille d'al-Zallâqa et des progrès accomplis à cette époque par les champions de la Reconquête chrétienne. Le récit des événements antérieurs au propre règne de l'émir 'Abd Allâh est également fort nouveau et fort important. Les "Mémoires" du prince de Grenade doivent être considérées, à partir de l'époque où prend fin la chronique d'Ibn Ḥayyân, comme un fil conducteur à travers l'histoire confuse des *ṭawâ'if*. Cette période, qui sera décrite au quatrième tome de mon *Histoire de l'Espagne musulmane*, actuellement

cahiers manuscrits jetés au rebut dans une dépendance de la mosquée d'al-Qarawiyyîn à Fès depuis au moins six siècles.

On savait, grâce à une indication fournie par la chronique anonyme intitulée *al-Ḥulal al-manṣūḥa*, que l'émir 'Abd Allāh avait composé un livre sur la dynastie fondée en Espagne par sa famille et dont il fut le dernier représentant. Quand, en 1934, je donnai une première édition de la partie relative à al-Andalus du *Kitāb A'māl al-a'lām* d'Ibn al-Khaṭīb, le passage suivant [p. 269] retint mon attention. "J'ai vu un *diwān*, écrit de sa propre main, que 'Abd Allāh ibn Buluggīn composa, après sa déposition, dans la ville d'Aghmāt; il y relate son histoire et les événements qui concoururent à sa chute, et cette œuvre est fort curieuse. Le prédicateur de la mosquée d'Aghmāt me fit cadeau de ce document". Nous savons, grâce à une précision fournie par le même ouvrage, qu'Ibn al-Khaṭīb visita Aghmāt et le tombeau d'al-Mu'tamid Ibn 'Abbād en 781 [1360]. Et l'on peut se demander si le manuscrit que nous avons utilisé n'est pas, sinon cette copie elle-même, du moins une seconde copie faite sur l'original et confrontée avec lui, comme le prouve la mention fréquente: *ṣahha; aṣl^m*.

Enfin, un autre hasard de lecture devait me révéler le titre exact des "Mémoires" de 'Abd Allāh: en effet, d'un passage du *Kitāb al-Marqaba al-'ulyā*, [p. 97], ouvrage sur la judicature andalouse que j'ai publié au Caire en 1948 et dont l'auteur fut le célèbre Ibn al-Ḥasan al-Nubāḥī, il ressort que le livre s'intitulait *al-Tibyān 'an al-ḥāditha al-kā'ina bi-dawlat Banī Z̧ḩr fi Gharnāṭa*.

Ce titre dit bien ce qu'il veut dire: l'auteur, détrôné et exilé, s'est proposé de relater l'histoire de son règne et les circonstances de sa chute.

Qui était cet émir 'Abd Allāh et quelle valeur faut-il attribuer à son livre ? Qu'il me suffise de résumer ici ce que j'en ai écrit récemment dans la nouvelle édition de *l'Encyclopédie de l'Islam* [p. 45].

'Abd Allāh ibn Buluggīn ibn Bādīs ibn Ḥabūs ibn Z̧ḩr fut le troisième et dernier souverain du royaume de Grenade fondé après la chute du califat de Cordoue par une branche collatérale de la famille berbère

AVANT - PROPOS

L'ouvrage dont on va trouver ici la plus grande partie du texte — tout ce qui en a été jusqu'ici retrouvé — est déjà connu de tous ceux qui ont étudié quelque peu l'histoire de l'Espagne musulmane et plus spécialement la période de cette histoire dite des *mulūk al-ṭawdʿif*, correspondant en gros au Ve siècle de l'hégire [XIe siècle de J.-C.]. En effet, au fur et à mesure de leur découverte et à deux reprises, j'en ai publié d'abord trois puis deux fragments étendus dans la revue "al-Andalus" de Madrid, en 1935-36 et en 1941. De l'ensemble aujourd'hui reconstitué, à part la première page et une longue et regrettable lacune centrale, une traduction en espagnol paraîtra à bref délai sous la signature de mon collègue et ami le Prof. E. García Gómez et la mienne. Cette traduction sera accompagnée d'une introduction détaillée et d'un appareil de notes historiques et géographiques auxquelles je renvoie d'ores et déjà le lecteur désireux d'être renseigné en détail sur l'ouvrage que je publie aujourd'hui et sur sa valeur documentaire et littéraire.

Je me bornerai donc ici à quelques indications essentielles. Il n'est pas fréquent de rencontrer, dans l'histoire du monde arabe, des souverains ou des personnages haut placés qui aient pris soin de retracer leur carrière en rédigeant leurs "Mémoires" à l'intention de leurs contemporains ou des générations futures. Cette constatation est encore plus vraie pour l'Occident de l'Islam que pour l'Orient; si on y trouve quelques autobiographies de personnages importants, tels qu'Ibn Khaldûn et Ibn al-Khaṭīb au VIIIe siècle [XIVe siècle J.-C.], on ne connaît, dans ce genre historique, qu'une œuvre à citer: celle d'al-Baydhaq, le compagnon du Mahdī Ibn Tūmart, le fondateur de l'almoḥadisme, dont j'eus la chance, il y a plus de vingt-cinq ans, de retrouver en Espagne, à l'Escorial, un manuscrit jusque-là demeuré ignoré. C'est une autre chance, non moins heureuse, qui m'a valu de mettre la main, à plusieurs années d'intervalle et morceau par morceau, sur un ouvrage autobiographique non moins précieux: celui de l'émir 'Abd Allāh, dont les feuillets s'entassaient pêle-mêle dans un fouillis de

LES « MÉMOIRES » DE 'ABD ALLAH

DERNIER ROI ZIRIDE DE GRENADE

[Ve-XIe siècle]

TEXTE ARABE

publié d'après l'unicum de Fès

par

E. LEVI - PROVENÇAL

Professeur à la Sorbonne,

Directeur de l'Institut d'Études Islamiques

de l'Université de Paris

LE CAIRE

ÉDITIONS AL-MAAREF

1955